ناصر خسرو علوی

سفرنامه

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

ناصر خسرو علوى

سفر نامة

ترجمة

د. يحيى الخشاب

تصدير

د. عبد الوهاب عزام

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

هذه هي الطبعة الثانية من الترجمة العربيـة لكتـاب سـفر نامة للرحالة الفارسي ناصر خسرو علوى وهى من عمل المرحوم الدكتـور يحيى الخشـاب وصـدرت للمـرة الأولى فى القاهرة فى عام ١٩٤٣

إهداء

إلى أستاذنا الجليل عبد الوهاب عزام

تجلة تلميذ وتحية صديق

١٢ إبريل ١٩٤٢

د. يحيى الخشاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

كانت سعة العالم الاسلامي ، وتنائي أطرافه ، واتصال أفكاره ببعضها ببعض من دواعي الأسفار البعيدة ، والرحلات المديدة • فالبلاد على تباعدها متعارفة ، والسبل على طولها متواصلة • فما يبرح الانسان بلدا الى آخر الا وجد البلد الذى رحل اليه موصولا ببلد آخر أبعد منه وهلم جرا • ولا يجد الراحل ما يعوقه من اختلاف الأمم واللغات، وتقاطع الأقطار وانقطاع الصلات •

وكان الحج الى البيت الحرام وزيارة المدينة المنورة مما زاد المسلمين اقداما على الأسفار ، وتمرسا بها ومرانا عليها •

ومن أجل هذا سن العلماء الارتحال الى البلاد القاصية فى طلب العلم ولقاء الشيوخ ، فلم يكن ينبه عالم ويركن الى علمه حتى يطوف فى الأقطار يلقى كبار العلماء وأجلاء الشيوخ ويحصل العلم من شيوخ كثيرين فى بلاد مختلفة •

وكان كل راحل للحج أو العلم أو التجارة أو غيرها يحدث بما رآى ويصف ما شهد ، فكانت أخبار الرحلات

والأسفار مثبتة فى كتب التاريخ وتقويم البلدان وفى سير العلماء ونحوها ٠

★★★

ثم نشأت على مر الزمان طائفة من الرحالين جعلوا مقصدهم وصف أسفارهم ، وتسجيل تجاربهم فى كتب يجد قارئها من الأخبار المتصلة ، والأوصاف المتتابعة ، والتدقيق فى تسجيل الحوادث والمشاهد ما لا يجده فى كتب التاريخ والسير التى تعنى أول ما تعنى بالحوادث مشهودة ومروية ويأتى خلالها وصف البلاد وأهلها تبعا ٠

وعرفت فى العالم الاسلامى الكتب التى سميت الرحلات ٠ وهى فى جملتها وصف انسان لأسفاره وما شهد فيها من أرض وبلاد وأمم ودول وملوك وعلماء وعادات وأخلاق ٠

★★★

أقدم ما عرفنا من الرحلات رحلة ابن فضلان رسول الخليفة المقتدر بالله العباسى الى بلاد البلغار القديمة ، وكانت على نهر اتل (الفلجا) وقد عرفناها بفصل منها نقله ياقوت فى معجم البلدان وكانت هذه الرحلة فى القرن الثالث الهجرى ٠

ومن الرحلات المعروفة الباقية الى يومنا رحلة ابن جبير فى القرن السادس الهجرى ، ورحلة أبى الحسن الهروى الموصلى فى القرن نفسه ، ورحلة البلوى المغربى وابن بطوطة المغربى فى القرن الثامن ، ورحلات أخرى توالت الى هذا العصر ٠

★★★

ومن أقدم الرحلات المعروفة رحلة الشاعر الفارسى المتفلسف ناصر خسرو ، وهى رحلة تقع حوادثها بين سنة ٤٣٧ وسنة ٤٤٤ هـ ، فهى قبل رحلة ابن جبير بأكثر من مائة سنة ويجول صاحبها فى بلاد ايران مبتدئا من مرو فى

خراسان مارا بآذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبي العراق ، ثم يعود الى ايران منتهيا الى مدينة بلخ فى خراسان •

ولمصر من هذه الرحلة النصيب الأكبر ، فقد أقام بها الرحالة أكثر من ثلاث سنوات ذهب أثناءها الى الحجاز • وقد عني بوصف ما شهد فيها أيام الفاطميين ، وكان الرجل شيعيا فسره ما رأى من سلطان الفاطميين في مصر فنشط للوصف والتسجيل •

قدم مصر من فلسطين وحج المرة الأولى من طريق القلزم وركب البحر الى الجار على ساحل الحجاز وعاد من هذه الطريق • ثم فارق مصر الى الحجاز من طريق أسوان وعيذاب وركب السفينة من عيذاب الى جدة • فقد جاب مصر من مدينة تنيس فى بحر الروم الى عيذاب على بحر القلزم •

ووصف مصر يشغل نحو ثلث الكتاب ما بين صفحة ٣٧ وصفحة ٧٤ ويجد فيه القارىء صفحات طريفة ممتعة ، يجد أحيانا حقائق لا يظفر بها قارىء كتب التاريخ والرحلات•

انظر قوله عن دور القاهرة ص ٥٠ :

« وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة ، وهى بعيدة بعضها عن بعض ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر ، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت ، من هدم أو اصلاح ، دون أن يضايق جاره » •

★★★

ترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية الدكتور يحيى الخشاب ، وعلق عليه تعليقات مفيدة ، وقدم له مقدمة قيمة فى تاريخ الشاعر وعصره وكتابه ، وقرر معهد اللغات الشرقية نشره فكان أول منشوراته ولعله فاتحة مباركة

وحلقة فى سلسلة متصلة من المؤلفات القيمة ينشرها المعهد من بعد بتوفيق الله تعالى .

ونشر هذا الكتاب بالعربية اليوم أمنية طال انتظارها، وربح محقق لقراء العربية عامة والمصريين منهم خاصة .

وهو ثمرة جديدة تضاف الى ثمرات كليـة الآداب فى نشر الآداب الشرقيـة والتعريف بهـا بالتأليف والترجمـة والتصحيح والشرح .

فقد أخرج أساتذة الآداب الشرقية فى هذه الكلية فى أقل من خمسة عشر عاما كتبا من عيون الأدب الفارسى الى ما كتبوا من مقالات وألقوا من محاضرات .

وانى لآمل أن يتصل السعى ، ويستمر الدأب ، وتتزيد العنـاية بدرس الآداب الشرقية عامة ، ونقـل ذخائرها الى اللغة العربية حتى تكون مصر مصدرا لأحسن ما فى الآداب الشرقية ، وموردا لطلاب هذه الآداب من أقطار العالم كلها .

د . عبد الوهاب عزام

مقدمة

الحياة السياسية

فى الشرق الاسلامى أيام ناصر خسرو

كانت الحياة السياسية فى الجزء الشرقى من الدولة الاسلامية ، ايران والعراق والشام ، مضطربة أشد الاضطراب فى القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس ، فان دولا كثيرة أقتسمت الحكم فيه ، وكان بعضها يكبر على حساب بعضها • ولقد تحرج مركز الخليفة العباسى في بغداد حتى كان بعض سلاطين هذه الدول ينال منه ويعلن الحرب عليه فكان يضطر الى أن يلجأ الى سلطان دولة أخرى ليحميه ، وكان منهم من يطلب من الخليفة أمرا ، فان أبى هدد بعزله وتولية سواه من بيت العباسيين• وانتهى أمر الخليفة السنى في بغداد بأن سيطر عليه وعلى عاصمته أحمد البويهى (٣٣٤/٩٤٥) ، وهكذا أصبح السلطان الشيعى حاميا للخليفة السنى ، وقد أبقى السلطان على خليفة بغداد ، وان كان لا يعتقد صحة خلافة العباسيين ، حمله على ذلك رغبته فى المحافظة على سلطانه الكامل على الشيعة من أتباعه ، فان عزله خليفة بغداد واعترافه بالخليفة الشيعى (الفاطمى) خطر عليه : خطر صوره أحد مستشاريه بقوله : « انك أنت اليوم مع خليفة عباسى تعتقد أنت وأهلك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرت بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد

أنت وأهلك صحة خلافته فلو آمرهم بقتلك لفعلوه » (١) .

وكانت الدولة الصفارية تعتدى على الخليفة العباسى فتحميه الدولة السامانية ، وكان السلطان محمود الغزنوى يطلب لنفسه ألقابا فيأباها عليه الخليفة فيهدده بالعزل(٢)، وكان الخليفة قد تجرد من كل سلطاته وحقوقه تحت سيطرة البويهيين، وكان الخليفة المسلم الثانى، الذى استقر فى القاهرة منذ سنة ٩٧٢/٣٦٢ ، ينتهز فرصة ضعف منافسه فيبعث دعاته يدعون السامانيين والغزنويين والبويهيين للقضاء على الخلافة العباسية والاعتراف به خليفة شرعيا على المسلمين . وكانت الدعوة فى هذا السبيل محكمة غاية الاحكام فى نظامها ونشاطها وطرق الاقناع بها ، فنجحت فى خراسان الى حد ما ، اذ انضم الى دعاتها أمير الرى أحمد بن على وحسين ابن على المروزى من الأمراء ، ورغب هذا الأخير فى ان تعم الدعوة الفاطمية بلاد ما وراء النهر ، فنصح الى الداعى الفاطمى ، النخشبى ، أن يسافر اليها وأن يعمل على استمالة رجال قصر السلطان السامانى نصر بن احمد . ونجح النخشبى فى بعثته وحمل السلطان على دفع مبلغ ضخم للخليفة الفاطمى القائم بأمر الله تعويضا عن قتل حسين بن على المروزى فى بخارى . واذا كان السلطان السامانى قد دخل فى الدعوة الفاطمية ، فان رجال جيشه وعلماء الدين فى بلاده لم يرضوا عن سلوكه واعتبروه خارجا على الدين الصحيح ، فأما العلماء فقد نصحوا الجند بأن يعودوا الى ديارهم لأن سلطانهم قد حاد عن الصراط السوى ، وأما الجند فقد أجمعوا أمرهم على خلع السلطان . ولكن الأمير نوحا ، ابن السلطان ، نجح فى خلع أبيه وولى الأمر من بعده وأرضى الساخطين من رجال الجيش والعلماء ثم حشد قوى الدولة جميعها للقضاء على الدعوة الفاطمية ، وآثر مقاتلة رجالها على محاربة الكفار من الترك ، وأفلح فى القضاء على نشاط

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٨ طبعة مصر .

(٢) سياست نامه ص ١٤ ـ ١٥ ، ١٣٥ والطبرى ج ١٢ ص ٢٠ طبعة مصر .

الخليفة الفاطمى ودعاته فيما وراء النهر وخراسان ، وان تكن دعوتهم قد استمرت سرية فيما بعد (١) .

واذا كان أمر الدعوة الفاطمية في خراسان وما وراء النهر على نحو ما رأينا ، فانه في فارس والعراق كان اشد قوة وأبعد أثرا ، ذلك أن الدولة البويهية نفسها دولة شيعية، وقد خلفت سادتها الزياريين الذين طردوا العلويين من مدنهم في بلاد الديلم من قبل ، وكان ملوكها يميلون ميلا ظاهرا الى المذهب الفاطمى أو الباطنى . يحدثنا المؤرخون أن مجد الدولة مثلا كان باطنيا ، وقد أثمر نشـــاط الفاطميين فى اقليم فارس خاصة ايما اثمار . وكان موسى بن ابى عمران حجة فيها (أى كبير القائمين بأمر الدعوة الفاطميه) ، وقد نجح هذا فى تنشئة ابنه على مذهبه ، ثم لقنه أصول الدعوة وطرق بثها في الناس ، وطلب الى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى أن يتصبه حجة من بعده ، ولكن الخليفة رفض هذا التنصيب ، لأن المناصب الدينية لا تـورث انما يتولاها من يراه الخليفة أهلا للقيام بها ، وقد ثابر الابن حتى ظفر بثقة الخليفة ، وخلف والده فى منصب حجة فارس ، واتخذ لنفسه لقب المـؤيد لدين الله . وكان السلطـــان فى ذلك الـوقت أبو كاليجار البويهى ، ومع أنه كان شيعيا كان مترددا اشد التردد فى قبـول المـذهب الفـاطمى والاعتراف بخليفـة الفاطميين ، وكانت تتجـاذبه فى ذلك عوامل مختلفـة . فتشيعه وسخطه على خليفة بنى العباس كانا يقربانه من هذا الاعتراف ، ولكن حاشيته وجنده الترك والسياسة التقليدية التى سارت عليها أسرته من عدم المبايعة لخليفة الفاطميين، كل هذا كان يدفعه الى النفور من هـذا الاعتراف . وكان المؤيد يعمل جاهدا فى شيراز ليدخل أهلها فى مذهبه ، فنجح فى استمالتهم حتى قيل عنه لوزير أبى كاليجار : « ان الناس يتخذون هذا الرجل أبا لهم وأخا وصاحبا ومحلا لـكل سر ومفزعا فى كل خير وشر » ، ونجح آخر الأمر فى اقناع أبى

(١) سياست نامه ١٩٢ ــ ١٩٣ .

كاليجار نفسه بالدخول في مذهبه ، وقد ساعده على بلوغ هذه الغاية وزير شاطره الرأى ، فانه لم يكن طبيعيا ان يضطهد رجل لا يبغض السلطان آراءه ، ولو عاش فى بلاط محمود الغزنوى السنى المتعصب لما لقى من العزله والشر أكثر مما يلقى فى عهد السلطان البويهى الشيعى • قبل السلطان دعوته ولكنه اشترط عليه ألا يخرج من بيته حتى لا تشيع الفتنة بين الناس • ولم يمض زمن طويل حتى اعدت دروس خاصة للسلطان فى قصره ، يبدؤها المؤيد بتلاوة القرآن ، ثم يقرأ فصلا من « دعائم الاسلام » للقاضى ابى حنيفة النعمان الذى سنرى مكانته الأدبية والعلميه فى مصر الفاطمية ، وتكررت هذه المجالس ، فقد كانت تعقد مساء كل خميس ، وازداد شغف السلطان بها ، فأخذ يسأل عما أشكل عليه من مسائل ، وسمح للمؤيد بأن يختم درسه بالحمد والدعاء للخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وانتهى الأمر بقول السلطان لداعيه : « انى أسلمت نفسى ودينى اليك ، واننى راض بجملة ما أنت عليه » • ولكن الوزير الذى كان يرعى المؤيد ويؤازره عند السلطان يموت ويلى الوزارة من بعده وزير سنى شديد التعصب لأهل السنة فيحمل على المؤيد ويشى به عند السلطان ، وقد ساعده فى حملته ما قام به المؤيد نفسه فى الأهواز ، فقد ذهب اليها وجمع شيعته من حوله واتخذ من مسجد مهدم مكانا للاجتماع — ويظهر أن اتخاذ المساجد القديمة مكانا للاجتماع كان عاده عند الباطنية (١) — وأصلح المؤيد المسجد وعمر منبره ووضع عليه لوحة من الذهب عليها أسماء الأئمة من ابناء على بن أبى طالب الى المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، ثم كان يدعو لهذا الامام فى خطبة الجمعة وكان مؤذن المسجد ينادى بحى على خير العمل • وقد أثار هذا المسلك شعور أهل السنة وخاصة قاضى الأهواز الذى بلغ من غضبه أن كتب

(١) سياست نامه لنظام الملك ص ١٨٤ ـ ١٨٥ •

الى الخليفة العباسى شاكيا ونذيرا (١) . استغل الوزين السنى ثورة أهل الأهواز ورفع الأمر الى آبى كاليجار فغضب وثار على المؤيد لمخالفته أمره بأن لا يغادر منزله فى شيراز وأخذت مكانته منه تهبط حتى صرح له ، فى مناظرة كانت بينه وبين عالم سنى ، بأن مناظره السنى خير منه ومن جميع أبناء القداح (يعتبره الفاطميون جدا لهم وأحد أبناء على) . ومنذ ذلك الوقت لم يعد لدى المؤيد شك فى أن السلطان قد تخلى عنه ، وفى أن حياته أصبحت فى خطر وأيقن أن بقاءه فى شيراز غير محمود العاقبة ، فظل مختفيا بها الى أن فر الى القاهرة حيث امامه المستنصر ، وكان ذلك عام ٤٣٧ / ١٠٤٥ (٢) .

الحياة الدينية والمذاهب المختلفة

فى هذا الجو المضطرب سياسيا ودينيا نشأ ناصر خسرو . فقد ولد فى قباديان عام ٣٩٤هـ/١٠٠٣م، من أسرة متوسطة الحال لا هى بالغنية ولا هى بالفقيرة ، وتثقف ثقافة واسعة والتحق بخدمة السلطانين الغزنويين محمود ثم ابنه مسعود ، فقد نشأ نشأة سنية وبدأ حياته فى بلاط حماة السنة وقتذاك . وتبدلت الأحوال السياسية ونجح السلاجقة فى القضاء على معظم الدويلات الشرقية وأفلحوا فى توجيه الامبراطورية الاسلامية وأصبح الأمر – الا أقله – بيدهم ، فالتحق ناصر بخدمة جغرى بيك السلجوقى حاكم خراسان ، وتولى أمر خزانته فى مرو مدة طويلة حتى نسب اليها . وكان كسائر الناس فى ذلك العصر حائرا فى المذهب الحق الذى ينبغى له أن يتبعه أيكون شيعيا أم سنيا فاذا وفق الى أن يختار بينهما ، فأى فرقة من الفرق العديدة يتبع ، وقد انقسم كل منهما الى فرق كثيرة . والشيعة الفاطمية لا يفتى

---

(١) السيرة المؤيدية . مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الاول رقم ٢٦٠٥٦ ص ١٨ وما بعدها ثم ص ٩١ وما بعدها .

(٢) ناصر خسرو (باللغة الفرنسية) ص ٣١ ليحيى الخشاب .

لدعاتها نشاط ، وهم يشككون الناس فى أمر الدين ، ويستغلون ما فيهم من ضعف حتى يصلوا الى اقناعهم • يضربون بشدة على أيدى الفاطميين ويغالون فى اضطهاد من والسلاطين من أهل السنة ، الغزنويون ثم السلاجقة ، يشتبه فيه أنه شيعي ، وعلماء الدين يتلقون الأسئلة من جمهرة الشعب الحائر ويحاولون أن يهدئوا من نفوسهم وان يوحدوا فيما بينهم فلا يصلون فى ذلك الى شيء • انظر الى قول المقدسي يصف اقليم خراسان ، فيتحدث عن المداهب المختلفة فيه (١) :

« هو أكثر الأقاليم علما وفقها وبه يهود كثيرة ونصارى قليلة وأصناف المجوس • واولاد على فيه على غاية الرفعه ، ولا ترى به هاشميا الا غريبا ، ومذاهبهم مستقيمة غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة كروخ واستربيان كثيرة ، وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة ، وللشيعة والكرامية بها جلبة ، والغلبة فى الاقليم أصحاب أبى حنيفة ، الا فى كورة الشاش وايلاق وطوس ونسا وأبيورد وطراز وصنفاج وسواديخارا وسيخ الدندانقان واسفرايين وجويان فانهم شفعوية كلهم ، والعمل فى هذه المواضع على مذهبهم ، ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس والمروين ، ولا يكون قاضيا الا من الفريقين •• ونيسابور أيضا شفعوية •• وللكرامية جلبة بهراة وغرج • ولهم خوانق بفرغانة والختل وجوزجانان ، وبمرو الرود خالقاه وأخرى بسمرقند • وبرساتيق هيطل أقوام يقال لهم « بيض الثياب » مذاهبهم تقارب الزندقة ، وأقوام على مذهب عبد الله السرخسى لهم زهد وتقرب • وأكثر أهل ترمذ جهمية ، وأهل الرقة شيعة ، وأهل قبندر قدرية ، والشار يصلى العيدين على قول عبد الله ابن مسعود ، ومذهب أبى حنيفة يوالون بين القراءتين ويكبرون أربعا » • ثم أنظر اليه وهو يتحدث عن أثر هذا

---

(١) احسن التقاسيم ص ٣٢٣ (طبعة اوربا) •

الاضطراب الدينى فى نفوس الناس (١) :

« وذهب رجل الى عالم من علماء الدين فقال له : عافاك الله جئتك مسترشدا ، انى رجل دخلت فى جميع هذه الاهواء فما ادخلت فى هوى منها الا القران ادخلنى فيه ولم اخرج من هوى الا القرآن أخرجنى منه ، حتى بقيت ليس فى يدى شيء » . فقال العالم : أرايت هـل اختلفوا فى ان محمـدا رسول الله ، وأن ما أتى به من الله حق . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى القرآن أنه كتاب الله . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى دين الله أنه الاسلام . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى الكعبة أنها القبلة . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى الصلوات انها خمس . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى رمضان أنه شهرهم الذى يصومونه . قال لا . قال : فهل اختلفوا فى الحج انه بيت الله الذى يحجونه . قال لا . قال : فهـل اختلفوا فى الزكاة أنها من مائتى درهم خمسة . قال لا . قال : فهـل اختلفوا فى الغسل من الجنابة أنه واجب . قال لا . فذكر شيئا من هذا وأشباهه ثم قرأ : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات » (٣/٧)، فهل تدرى ما المحكم ؟ قال لا . قال : فالمحـكم ما اجتمعوا عليه ، والمتشابه ما اختلفوا فيه ، شد نيتك فى المحكم واياك والخوض فى المتشابه » .

وحين رجع المقدسى من البصرة الى خوزستان ، قال له أحد اصدقائه ممازحا : أعد الصلاة التى صليتها بخوزستان فانهم يصلون الى غير قبلة (٢) .

هذه صورة من حيـاة الناس وكيف أثرت فيهـا كثرة الفرق الاسلامية ، وهى تبين الى آى حد بلغ منها هذا الأثر بفضل نشاط الدعاة من هذه الفرق جميعا . وقد رأينا كيف كان يحرص رجال الدين وأهل السنة على ابقاء عامة الشعب

---

(١) ص ٣٦٥ من المصدر نفسه .

(٢) احسن التقاسيم للمقدسى ص ٤١٥ (طبعة أوربا) .

بعيدين عن الدخول فى المتشابهات من آيات القرآن وأحكام الدين المترتبة على تفسيرها ، فهم حريصون على أن يقيم المسلم أركان الاسلام الخمسة . ولكن الرجل المتقف الذى يقرأ آراء الفرق الكثيرة فى مختلف المسائل والذى يحب ان يتناول المتشابهات من آيات القرآن ليبحث أحكامها ، ويبدى رأيه صريحا فيها كان حائرا حقا ، لم يجد فيه شيء من حرص الحكام السنيين على ثبات ايمانه .

وكان ناصر خسرو يشغل منصبا كبيرا فى الدولتين الغزنوية والسلجوقية ، وهو واسع الاطلاع ، يقرأ الفلسفة ويناقش آراء الفارابى وابن سينا ، وقد نظر حوله فوجد هذا الخلاف قائما فحاول أن يصل الى الحقيقة فسلك فى ذلك من الطرق ما استطاع سلوكه . رجع الى القرآن وكتب الحديث ورجع الى التوراة والانجيل وكتب مذاهب الهنود بلغاتها الأصلية ، وأطال النظر فى الأفستا والزند واتصل بعلماء الأديان ، مسلمين ونصارى ويهود وهنود ومجوس ، وناقشهم فى المسائل التى لم يهتد الى رأى فيها ، فلم يظفر بمن يقنعه . ورأى أن يرحل الى بلاد العرب وفارس وتركستان والهند ، لعله يجد من يهديه الى الطريق الحق لمعرفة الله ، ولكنه مع هذا كله لم يصل الى ما يريد (١) . وكانت نتيجة هذا الفشل فى معرفة الحقيقة أن وقع فيما يقع فيه الفلاسفة والمفكرون من الشك الذى قد يصل الى الالحاد ، وظهرت آثار هذه الفترة فى شعره ، فقد كان شاعرا من أعظم شعراء الفرس وأغزرهم مادة . وانتهز خصومه فرصة الشك هذه وآخذوه ببعض أبيات قالها تنم الحيرة وقد تصل الى الكفر . ومن هنا اختلف رأى الكتاب الفرس فيه ، فبعضهم يأخذه بهذه الأبيات ويرميه بالكفر ، وبعضهم يصفه بالتقوى ويصل نسبه بعلى ويجعله حكيما من الحكماء المسلمين (٢) . على أن فترة الشك هذه

---

(١) ناصر خسرو بالفرنسية ليحيى الخشاب ص ٤١ — ٥٢ .
(٢) سفر نامه النص الفارسى ص ١٢ ، الترجمة ص ٩ .

لم تطل على كل حال ، وهذا ناصر يؤثر أن يرتحل الى مصر ، حيث نظمت الدعاية للمذهب الفاطمى تنظيما دقيقا كما سنرى ، لعله يجد فيها ما تصبوا اليه نفسه من معرفة الحقيقة ، فانه قد سمع من دعاة مصر في خراسان وفارس من يتحدث عن مذهب جديد يختلف عن الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية ، كما عرف أن من هؤلاء الدعاة من يستمع الى أسئلة المتحير ويجيبه عليها ، وانه ليحب أن يسال لماذا وكيف ، وأن يجاب عما يسأل جوابا يشفى غلته ، فليعزم اذن على الرحيل وبالله التوفيق .

بواعث الرحلة

يحدثنا ناصر خسرو في ديوانه ، أن الذى دفعه الى رحلته هو ما قرأ فى القرآن الكريم فى سورتى محمد والفتح من قوله تعالى :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٤٧/ ٢٤) .

اذن ففى القرآن ، اذا أمعن النظر فيه وتدبر معانيه ، ما يفرج كربته ويبدد الشك من نفسه ، ويشع فيها من الهدوء والاطمئنان ما يوصل الى ايمان قوى سليم ، ولم يكد يستمر فى القراءة قليلا حتى قرأ فى السورة التالية قوله تعالى :

« ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » (٤٨/ ١٠) .

ثم قوله تعالى :

« لقد رضى الله عن المؤمنين، اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » (٤٨ / ١٨) .

حينئذ أخذ منه الحماس كل مأخذ فنهض من مقعده وعزم على الرحيل الى حيث الشجرة التى بايع المؤمنون تحتها النبى صلى الله عليه وسلم على أن يقاتلوا معه ، المؤمنون من أمثال جعفر والمقداد وسلمان وأبى ذر (١) .

فلعل من سحر المكان ما ينفذ الى نفسه الحائرة بالسكينة والأمن . وقوى هذا الرأى عنده ودفعه الى العمل على تحقيقه ، ما صادفه من تفاؤل توالى عليه بعد عزمه على الرحيل ، يصفه فى سفر نامه ، فيقول انه سافر الى بنج ديه فى عمل من أعمال الديوان وصادف ذلك اليوم اقتران الراس والمشترى ، ويقال ان الله تعالى يستجيب الدعاء فى هذا اليوم ، فذهب الى زاوية ودعا ربه أن ييسر له أمره ويهديه .

وعاد بعد الصلاة الى رفاقه فوجد أحدهم ينشد شعرا فجال بخاطره أن ينشد قصيدة معينة فهم بكتابتها ليعطيها للمنشد لينشدها له ، ولم يكد يفرغ من الكتابة حتى كان المنشد ينشد القصيدة نفسها ، فتفاءل ناصر وعلم ان الله تعالى سيقضى حاجته ويروى غلته بمعرفة الحقيقة التى يبحث عنها .

وفى هذه الحال النفسية حال الضال يبحث عن الهدى والسبيل الى الحق ويطيل التفكير والتأمل ، أخذ ناصر يشرب الخمر شهرا كاملا حتى كانت ذا ليلة رأى فى المنام رجلا ينهره لأنه يدمن على الشراب ، فيناقشه ناصر ويدافع عن مسلكه وحجته فى ذلك أن الفيلسوف الحائر يجد فى الخمر ونشوتها ما يخفف من همومه ، وحجة صاحبه ان التسرية عن النفس لا تكون بفقدان الشعور وأن الفيلسوف لا يستطيع أن يكون هاديا للناس وهو فاقد لوعيه ، وانما على الفيلسوف أن يبحث عما يزيد العقل والحكمة .

ويسأل ناصر محدثه عن السبيل لهذه الزيادة فيشير المحدث الى القبلة قائلا « من جد وجد » ثم ينصرف عنه .

---

(١) ديوان ناصر ص ١٧٣ (طبعة طهران) .

ويصحو ناصر من نومه ، ويتمثل الرؤيا كأنها حقيقة فيفيق من الخمار ويقول لنفسه ان عليه أن يفيق من غفلة أربعين عاما جلى كما آفاق من سبات البارحة ، ويعتزم الرحلة الى مكة ، الى القبلة التى أشار اليها محدثه ، فينصرف الى مرو ويطلب اعفاءه من الوظيفة ويعزم على الحج وكان ذلك فى جمادى الآخر ٤٣٧ (١٠٤٧) ، فى نفس العام الذى سافر فيه المؤيد الى مصر •

الاستعداد للرحلة

غادر ناصر مرو مستصحبا أخاه أبا سعيد وغلاما هنديا، وبعد أن زار بيت المقدس ، قصد الحج لأن محدثه فى الرؤيا أشار الى القبلة حين سأله آين يجد ما يبدد شكوكه ، ولأن قراءة القرآن هدته الى الذهاب حيث الشجرة التى تعاهد تحتها المؤمنون على نصرة النبى عليه السلام الى النهاية مهما كلفهم الأمر ، وعاد الى بيت المقدس فعزم على زيارة مصر على أن يغادرها الى مكة مرة أخرى • فلم يكن فى عزمه أن يقيم بمصر زمنا طويلا ، ولم يكن فى نيته أن يرحل الى بلاد أخرى ، لذلك لم يكن استعداده كاملا لهذه الرحلة الطويلة الشاقة التى سطرها فى كتابه سفر نامه ، والتى دامت سبع سنوات ، لقد اكتفى، حين طلب اعفاءه من عمله فى الديوان، بالقليل الذى لابد منه للرحلة بل لقد ترك بقية أمواله • وهو وان يكن قد لقى فى مصر والحجاز ، وكان تابعا لسلطان مصر ، من كرم الضيافة وحسن الاستقبال شيئا كثيرا كما سنرى فيما بعد ، فانه قد لقى فى الوقت نفسه من الصعوبات شيئا كثيرا فى سائر رحلته ، وخاصة حيث لم يكن يجد عونا من صديق أو اغاثة ممن يعرف قدره • وهو يحدثنا أنه وصل الى فلج ولبث فيها أربعة أشهر لم يكن معه طوالها غير سلتين من كتب ، والناس هناك جهلاء لا يعنون بشراء الكتب ولا يقدرونها ، فلم يكن له من التحايل على كسب القوت ، وهو يجيد الكتابة بالخط الجميل ، وكان معه

بعض الألوان ، فكتب على محراب المسجد بيتا من الشعر وزينه بأوراق الشجر ، فلما أبصر السكان هذا الرسم أعجبوا به وطلبوا اليه أن ينقش المحراب ووعدوه بمائة من التمر ، فسره هذا العرض ونقش لهم محراب مسجدهم ليظفر بقوته من التمر • ثم هو يحدثنا عن الحال التى كان عليها ، هو وأخوه ، عندما بلغا البصرة ، لقد بليت ملابسهما ولم يبق منها الا خرق مدلاة على جسدهما ، وطال شعر رأسهما ، وبدت عليهما سيما الفقر والجوع والاعياء ، فاضطر ناصر الى ان يبيع هذه الكتب التى اضطر من أجلها الى أن يعود من مكة الى مصر • فلما باعها ذهب مع أخيه الى الحمام ، ولكن الحمامى رفض ادخاله ولم يرق لحاله ، ولا لحاجته الى الدفء والنظافة ، وحسب أطفال الطريق أن بهما جنة فاخذوا يعدون وراءهما ويقذفونهما بالحجارة •

ولكن ناصرا وان لم يجد المال الكافى للقيام بهذه الرحلة الطويلة ، لأنه لم يدبر أمرها قبل قيامه من مرو ، ولكن الحوادث هى التى كانت تسيره ، فانه كان يعتمد على شخصيته فى كثير من الأحيان ، فهو الرجل الذائع الصيت الذى يعرفه كبار القوم ، فان أصابه ضر او ألمت به مصيبة استطاع أن يجد عون الأصدقاء ليبدلوا عسره يسرا • فتراه فى عيذاب مثلا ، وقد اضطر الى الاقامة بها ثلاثة أشهر ، يتقدم الى وكيل صديق له كان قد عرفه فى أسوان ليأخذ منه ما احتاج اليه من الدقيق • وكذلك استأجر جملا ، نسيئة لينقله من فلج الى البصرة ، فلما بلغها لم يكن معه الأجر الذى اتفق عليه ، فاتصل بوزير أمير الأهواز فرحب به وأضافه خمسة وأربعين يوما ودفع ما عليه من دين للجمال • وحين بلغ مهروبان وأراد أن ينتقل الى آرجان وجد الطريق خطرا لا يؤمن السير فيه ، فكتب الى كبير من كبرائها فأرسل اليه ثلاثين فارسا صحبوه آمنا اليها •

على هذا النحو نجد أن ناصرا لم يكن يسير فى رحلته وفق ترتيب سابق مرسوم ، وكل ما استعد له فى أمر الرحلة

كان قاصرا على زيارة مكة ، ثم زيارة مصر على أن لا يطيل المكث فيها ليعود الى مكة مرة أخرى ·

كتابة الرحلة

كتب ناصر حوادث رحلته ، يوما فيوما ، تشهد بذلك الدقة التى نراها في وصفه لبعض الأماكن كمسجد بيت المقدس ، ولبعض الحفلات ، كحفلة افتتاح الخليج ، فالصفات التى يصفها والأسماء التى يذكرها ليست مما يعلق بالذاكرة سنوات عدة ، ثم يكون بمثل هذه الدقة وذاك الكمال ·

ولقد اتفق الكتاب على هذا وان اختلفوا فى تحديد التاريخ الذى كتب فيه سفر نامه · أما شيفر فانه يرجح انه كتبه قبل سنة ٤٥٣/١٠٦٠ لأن ناصرا يشير فى كتابه الى نصر الدولة الذى مات فى هذا التاريخ · وأما تقى زاده فانه يذهب الى أنه كتبه بعد سنة ٤٥٥/١٠٦٣ ، لأنه يذكر طغرل بيك على أنه متوفى ، اذ يقول عنه رحمه الله : وقد مات فى هذا التاريخ · ولكن من الصعب أن نقرر أن كلمه « رحمه الله » ـ التى كثيرا ما تذكر فى الكتب الشرقية ـ أصلية فى النص اذ من السهل أن تكون من اضافات النساخ، ثم ان ناصرا فى هذا التاريخ وبعده ، كان مقيما فى يمگان وكان قد كون لنفسه فيها فرقة خاصة لها مذهبها المتأثر أشد التأثر بالمذهب الفاطمى فى مصر ، وفى هذه الأثناء كتب أكثر كتبه بعد أن وضع دستورهالدينى فى كتابه «وجه دين»، أفليس عجيبا أن يكتب فى هذا الوقت رحلته ولا يشير الى أثر مصر فى نفسه ، بل انا لنراها خالية حتى من اشارة صريحة الى مذهبه الذى اعتنقه فى مصر والى اهتدائه الى الحقيقةالتى قال انه ينشدها فى أول الكتاب · فلهذه الاعتبارات كلها نرجح أنه كتب سفر نامه بعد عودته الى خراسان مباشرة ، حينما عاد الى وطنه بعد غيبة سبع سنوات ، وقبل أن يندفع فى الطريقة الجديدة التى اصطبغت بها حياته فيما بعد والتى جعلت منه عدوا خطرا على الدولة السلجوقية وعلى

مذهبها الرسمى ـ السنة ـ والتى جعلت منه صاحب فرقة يدعو اليها ويضطر الى الاختفاء فى الجبال من أجلها ٠

ومما يقوى هـذا الترجيح ، أنه يذكر فى سـفر نامه لقاءه بأخيه أبى الفتح عبد الجليـل ويصور سروره بهـذا اللقاء كما يذكر أن أخاه كان دائم السؤال عنه ، ولكنه يذكر فى الديوان ـ الذى كتب بعد عودته من مصر ـ أن أخاه قد هجره وتنكر له ، وأن اقاربه جميعا ساخطون عليه ، ولـو كتب سفر نامه فى ذلك الوقت لما أشار الى أخيه راضيا عنـه فرحا بلقائه ٠

ويعتقد الكتاب ونحن معهم ، أن النص الذى بأيدينا ناقص ، وأن الكتاب الذى وصل الينا مختصر اختصره بعض النساخ عن « سـفر نامه » آخر أطول من هـذا ٠ ويستشهد غنى زاده عـلى نقص النص بدليلين : أولهما ، أن مقـدمة شاهنامة بايسنقر (١) نقلت عن سفر نامه نصا جاء فيه : ان الحـكيم ناصر خسرو قال انه بلغ طوس سـنة ٤٣٨ / ١٠٤٥ (٢) فرأى رباطا كبيرا حديث البناء ، فلما سأل عن الذى بناه قيل له انه بنى من صلة كانت للفردوسى ، كان قد أرسلها اليه السلطان محمود ٠ فلما سأل ناصر عما كان من أمر هذه الصلة ، قيل له ان الفردوسى توفى قبل أخـذها ، وان وارثته رفضت قبولها ، فبنى الرباط بها ٠ يقول غنى زاده وهذه العبارة ليست مسطورة فى كتاب سفر نامه الذى بأيدينا فهو مختصر اذن ٠ وقال فى ملحوظاته على النص انه يستبعد خطأ مقدمة شاهنامة بايسنقر ٠ والدليل الثانى ، الذى يسوقه غنى زاده على اختصار الكتاب هـو ما جاء فى الصفحة العاشرة منه حيث يقول : « ويطول وصف مسـجد الجمعة فى ميافارقين لو ذكرته ، ولو أن صاحب الكتاب شرح كل شىء أتم الشرح (٣) » ٠

---

(١) مقدمة سفر نامه طبعة كاويانى ص ك ٠

(٢) يصحح الأستاذ غنى زاده سنة ٤٣٨ فيجعلها ٣٧ ، ليوافق هذا التاريخ الجديد رحلة ناصر التى نتحدث عنها ٠

(٣) ص ٨ سفر نامه (العربى) ٠

ونحن نرى أيضا أن النص الذى بأيدينا مختصر والدليل الثانى الذى ذكره الأستاذ غنى زاده هو الذى يجعلنا نرجح ذلك • والواقع أن فى نص الكتاب عبارات كثيرة تقوى هذا الرأى ، كأن يقول ناصر فى وصف بيت المقدس « قد صورته وضممته الى مذكراتى (١) » • او كقوله عن زنجبار والحبشة « سأشرح ذلك فى مكانه (٢) » ، ثم لا نجد هذا الشرح فى الكتاب ، وهكذا • وأما دليل الأستاذ غنى زاده الأول على اختصار النص فلسنا نوافقه عليه ، ذلك أن النص الخاص بالفردوسى ورباط طوس والذى نقله الأستاذ عن مقدمة شاهنامة بايسنقر موجود فى كتاب جهار مقاله لنظامى العروضى حيث تنسب رؤية الرباط للعروضى نفسه • مع اختلاف يسير فى النص (٣) ، ومن الجائز أن صاحب مقدمة شاهنامة با يسنقر قد أخطأ فى النقل فوضع اسم ناصر خسرو بدلا من نظامى العروضى وسفر نامه بدلا من جهار مقاله • ومما يرجح جواز هذا الخطأ قول أستاذنا عبدالوهاب عزام عن هذه المقدمة انها مليئة بالغلط والخرافات (٤) •

وذهب بعض الكتاب الى أن سفر نامه قد نظم شعرا ، والراجح أن التوافق بين بعض حوادث الرحلة وقصائد الديوان هو الذى حدا بهم الى هذا القول ، وليس فى كتب ناصر أو ما كتب عنه نص على رحلة منظومة أو ذكر لها •

وكان ناصر خسرو أمينا فى كتابته ، اذا رأى شيئا رأى العين نص على ذلك نصا ، واذا سمع عن شىء رواه وجعل العهدة على راويه •

---

(١) ص ٤٥ (الفارسى) ، و ٣٢ (العربى) •

(٢) ص ٥٩ (فارسى ٤٦ (العربى) •

(٣) جهار مقاله ص ٥١ •

(٤) مدخل الشاهنامه (العربى) ص ٢٩ •

مراحل الرحلة

فى ضوء ما نشر من كتب ناصر وخسرو نستطيع أن نقسم رحلته الى مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى تبدأ بقيامه من مرو فى ربيع الآخر سنة ٤٣٧ (أكتوبر ١٠٤٥) ، وتنتهى ببلوغه القاهرة فى ٧ صفر ٤٣٩ (٤ أغسطس ١٠٤٧) .

والمرحلة الثانية اقامته فى مصر من ٧ صفر سنة ٤٣٩ (٤ أغسطس) الى أواخر جمادى الثانى ٤٤٢ (أواخر أكتوبر ١٠٥٠) .

والمرحلة الثالثة عودته الى بلخ عن طريق الحجاز وفلج والحسا والبصرة وتبدأ منذ قيامه من مصر وتنتهى فى ٢٦ جمادى الآخر ٤٤٤ (٢٦ أكتوبر ١٠٥٢) .

المرحلة الأولى

أما المرحلة الأولى فيبدو منها ، لأول وهلة ، أن ليس لناصر مأرب سياسى أو دينى . هو راغب فى الذهاب الى مكة لأداء فريضة الحج ، وهو عائد من مكة الى بيت المقدس وفى نيته أن يذهب الى مصر ، يزورها كما زار الشام ، على ألا يقيم بها طويلا لأنه يصرح برغبته فى الذهاب الى مكة . وليس من شك أن رغبته فى زيارة مصر كانت سعيا وراء البحث عن الحقيقة ، اذ فى مصر مذهب دينى عرف بنشاط دعاته فى خراسان ، فلابد لمن يبحث عن الدين الصحيح أن يذهب اليها لدراسة مذهبها .

ويبدو ناصر ، فى هذه المرحلة ، رجلا عالما يحب أن يتصل بالعلماء وأن يناظرهم أو يتحدث اليهم ، فهو يسافر من نيسابور فى صحبة الخواجة الموافق(١)، ذلك العالم الذى اشتهر فى العصر السلجوقى والذى قدم أبا منصور الكندرى لطغرل بيك ليتخذه وزيرا ، والذى شهر بأن تلاميذه يشغلون مناصب الوزارة أو ما شابهها من المناصب الكبيرة فى الدولة

(١) ص ٣ .

والذى تتلمذ عليه نظام الملك وعمر الخيام وحسن الصباح ٠ وصحبة ناصر للموفق تبين الصلة العلمية البحتة التى كانت بين الرجلين ، كما ترجح أن ناصرا فى هذا الجزء من الرحلة كان عالما ليس غير ٠ ومما يؤيد هذا الرأى مقابلته عليا النسائى فى سمنان (١) ، وأبا الفضل خليفة بن على الفيلسوف فى شميران وقد ناظره فى علوم الدين والرياضيات وتوثقت الصلة بينهما (٢) ، ومقابلته ، فى تبريز ، الشاعر قطران الذى سأله عما أشكل عليه من أشعار الدقيقى ومنجيك فكان ناصر يملى عليه الشرح وقطران يكتب (٣) ٠ ويحدثنا أنه نزل ضيفا فى بيت رجل بمدينة قرول فدخل عليه أعرابى وطلب منه أن يحفظه القرآن فأخذ ناصر يتفكه معه ويحفظه سورة قل أعوذ برب الناس (٤) ٠

ومع ظهور هذا الاتجاه العلمى فى المرحلة الأولى من الرحلة فانا نلاحظ أن ناصر قد غادر تبريز عن طريق مرند فى صحبة جماعة من جيش الأمير وهسودان والأمير وهسودان هذا من بنى مسافر الذين عرفوا بميولهم الشيعية ٠ بل ان منهم من كان باطنيا (٥) ٠ أيدل هذا على أن ناصرا قد بدأ رحلته وهواه مع الباطنية ؟ اذا لم ينص على ذلك فى كتابه سفر نامة ولا أظهره فى كتبه الأخرى، فان رواية رشيد الدين — وهو مؤرخ موثوق به فيما يختص بالمذهب الباطنى — تؤيد هذا الرأى ، وهو يقول ان المستنصر بالله الفاطمى قد دعا ناصر خسرو ليحضر الى مصر ، كما دعا حسن الصباح أيضا (٦) ٠

---

(١) ص ٣ ٠

(٢) ص ٥ ٠

(٣) ص ٥ ٠

(٤) ص ١٠ ٠

(٥) الكامل لابن الاثير الجزء ٨ ص ١٢٥ (طبعة مصر) ، سنة ٣٣٠ هجرية ٠

(٦) الورقات ٢٨٦ — ٢٩٠ ٠

وقبل أن ننتقل الى المرحلة الثانية من الرحلة نقف قليلا عند كلامه عن أبى العلاء المعرى ، فهو يصفه بانه حاكم معرة النعمان وأنه واسع الغنى كثير العبيد وكأن سكان المدينة خدم له ثم يقول ان نوابه يدبرون أمر المدينة ولا يرجعون اليه الا فى الأمور الهامة . وهذا الوصف بالشراء والجاه والملك يناقض ما عرف عن أبى العلاء من الفقر . وقد أراد أستاذنا الدكتور طه حسين بك أن يوفق بين حديث ناصر خسرو وبين ما عرف عن أبى العلاء ، فقال (١) : « لهذا التوفيق وجهان يحتملهما العقل : الأول أن الرحالة وصف ما شهد فى المعرة من جاه أبى العلاء وسلطانه المعنوى فظن ذلك ثروة وملكا، الثانى وهو ما نميل اليه أن أبا العلاء كان يملك المعرة حقا ، وكان يحكمها بنواب يدبرون أمرها ويرجعون اليهفى جلائل الأعمال ، فاذا شئنا أن نرجح ذلك فان الأدلة التاريخية الثابتة لا تواتينا ولكننا نذكر قول صالح بن مرداس له حين شفع عنده فى المعرة . قد وهبتها لك .

« أفلا يمكن أن يكون هذا اقطاعا ، وأن المعرة صار أمرها من ذلك الوقت الى أبى العلاء ، على أن تعترف بسلطان حلب وتؤدى اليها الخراج ؟ ذلك ممكن ، ولكن التاريخ لم يروه ولم ينص عليه ، لا لأنه روى غيره بل لأنه أهمل المعرة اهمالا تاما فى ذلك العصر » .

وقد لاحظ أستاذنا بعد ذلك أن قصة صالح مع أبى العلاء كانت بين سنة سبع عشرة وبين سنة عشرين وأربعمائة « وأن زيارة ناصر خسرو كانت بعد ذلك أى سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة . ولو أنه مر بالمعرة قبل هذه القصة لكان من الحق أن نرفض خبره ولا نصغى اليه . أما وهو لم يمر بها الا بعد صالح وقصته فمن الظلم للتاريخ ان نمر بهذا الخبر من غير أن نثبت هذا الاحتمال » .

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء (الطبعة الثالثة ١٩٣٧) ص ١٧٧ ــ ١٧٨ .

وأما وصف ناصر لأبى العلاء بالثراء فان الأستاذ يلاحظ « أن فى حياة أبى العلاء شيئا يلزمنا ألا نصدق ما يرويه التاريخ من فقره المدقع ، من غير تحفظ ولا أناة ، فان فى رسائله ما يدل على أنه قد كان يهدى الى أصحابه الهدايا ، ويعين أصدقاءه » • ونحن نوافق أستاذنا على رأيه، وهو الخبير بأبى العلاء •

ونلاحظ أن ناصر خسرو قد أطلق على نفسه لقب ملك حين كان معتصما فى يمكان يدعو الى مذهبه(١) ، أفلا يمكن أن يكون وصفه لأبى العلاء بأنه يحكم المعرة من هذا القبيل وهو ما عبر عنه أستاذنا بالسلطان المعنوى ؟

المرحلة الثانية

أما المرحلة الثانية فهى اقامة ناصر خسرو فى مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر • وقد رأينا من قبل أن ناصرا لم يصرح برغبته فى الاقامة طويلا بمصر • وهو لا يذكر شيئا عما كان بها من الاهتمام الشديد بالدعوة للمذهب الفاطمى، واذا استثنينا الاشارات العديدة للمستنصر على أنه امير للمؤمنين ، فانا لا نجد اشارة الى اعتناقه لهذا المذهب(٢) •

ومنذ استقر الفاطميون فى مصر سعوا سعيا حثيثا لنشر مذهبهم ، وقد كان الخلفاء الفاطميون يدعون من يثقون باخلاصه لهم وبقدرته على الدعوة لمذهبهم ، يدعونهم الى مصر ليتخصصوا فى المذهب الفاطمى على يد كبار هذا المذهب وليحضروا دروس الخليفة أيضا (٣) ، وكذلك كان بعض الملوك ممن يدينون بالمذهب الفاطمى يرسلون أبناءهم الى مصر حتى ينشئوا على حب الفاطميين ومذهبهم (٤) •

---

(١) روشنائى نامه (طبعة برلين) ص ١٥ •

(٢) ص ٦٣ ، ٦٦ ، ١٠٤ •

(٣) جامع التواريخ لرشيد الدين ورقات ٢٨٦ ـ ٢٩٠ •

(٤) ص ٥٣ من سفر نامه (العربى) •

وكان للثقافة الدينية الشأن الأول فى المجال العلمى بمصر الفاطمية • وكانت المساجد : الأزهرية وعمرو والحاكم ، ودار الحكمة ، وقصر الخليفة نفسه أمكنة لالقاء دروس الفقه والفلسفة الاسلامية • وقد اشترك فى هذه الدروس ، منذ استقر الفاطميون فى مصر ، قاضى القضاة وداعى الدعاة والوزير والخليفة نفسه •

أما قاضى القضاة فكان يختار عادة من أسرة كبير قضاة الفاطميين أبى حنيفة النعمان ابن منصور القيروانى بن حيون الذى رأس القضاة أيام المعز لدين الله (٣٤١ — ٩٥٢/٣٦٦ — ٩٧٥) • وقد اتخذت كتب أبى حنيفة بن حيون هذا أساسا للمؤلفات الفاطمية التى كتبها المجتهدون فى المذهب من بعده • وينسب اليه ابن خلكان كتبا كثيرة منها : « كتاب الدعوة » و « الاحبار فى الفقه » و « الانتصار فى الفقه » • وينسب اليه المسبحى كتاب « اختلاف أصول المذاهب » • ويقال ان له كتابا فى نقد مذاهب ابى حنيفة والشافعى وابن شريح • وقد رأينا من كتبه : « افتتاح الدعوى » و « المجالس والمسايرات » وكلاهما مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول (١) • و « دعائم الاسلام » و « تربية المؤمنين » و « أساس التأويل الباطن » وهى مخطوطات بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن (٢) •

وكان النعمان بن حيون هذا يعرض منهاج كل كتاب على الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قبل كتابته ، ثم يقدمه اليه بعد ذلك (٣) ، وكان الخليفة يكلفه بوضع كتاب فى موضوع يختاره بعض الأحيان • يقول فى كتابه المجالس والمسايرات « وأمرنى الامام المعز لدين الله بتاليف شىء من العلم وقص على جميع معانيه وأصل لى أصوله والقى الى جملة من القول فلم أكن قبل ذلك تقدمت فى تأليف شىء منه ولا اتسع على

---

(١) تحت رقم ٢٠٠٨٨ و ٢١٠٠٦٥ •

(٢) ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحيى الخشاب ص ٨٨ •

(٣) المجالس والمسايرات ١٣٥ •

فيه اتساعا يوجب آن أتقدم فى تصنيفه فلما فتق لى المعنى فيه ولخصه وأوضح لى معانيه وأمرنى بتأليفه وتبسيطه تقدمت فى ذلك تقدم واثق بعون الله به ٠٠ فابتدأت منه جزءا ورفعته اليه فوقع الى : يا نعمان وقفت على الكتاب الذى عملته فرأيته قد جاء حسنا ما بعده أحسن (١) » ٠ ومن آصول المذهب الفاطمى آن العلم يتوارثه الآئمة ، فكان العالم ، مهما سمت مكانته فى العلم ، يعرض مؤلفه على الامام « لأنه لا يصلح العمل به ولا تحل الفتيا والقضاء بما فيه الا أن يصححه أمام الزمان (٢) ٠٠ ، ومن هنا كان التشابه الكبير بين كتب النعمان بن حيون وكتب من جاء بعده من رجال الفقه الفاطميين » ٠

وأما داعى الدعاة فهو كما يدل اسمه كبير الدعاة ، فقد قسم العالم الاسلامى الى جزائر ــ أقسام ــ كان فى كل قسم حجة اى رئيس مذهبى ، وفى كل بلد داع ليدعو الى المذهب وليكون صلة بين الناس وبين امامهم الخليفة الفاطمى ، وذلك كما يقول المعز لدين الله : « ان الله أوجب على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والسعى الينا من قرب ومن بعد كما اوجب الله عليهم فى ظاهر أمره الحج الى بيته الحرام من الآفاق ، ولكنا للرأفة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم الينا ويدلهم علينا ٠٠ (٣) » وكان لهؤلاء الدعاة اساليب لنشر الدعوة ، لا محل للتحدث عنها هنا ٠ وقد وسع اختصاص الدعاة أربعة أمور : اولها علمى وهو أن عليهم ان يلقنوا المؤمنين أصول المذهب وان يجيبوا من يسأل منهم عما يشكل عليه ٠ والثانى سياسى وهو ان يجمعوا المؤمنين من حولهم وآن يدعوهم الى الاعتراف بالخليفة الفاطمى وخلع خليفة بنى العباس ٠ والثالث مالى وهو ان عليهم آن يجمعوا النجوى من المؤمنين

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٥ ٠

(٢) نفس المصدر ص ٧٣ ٠

(٣) نفس المصدر ص ١٠٤ ٠

باسم الخليفة الفاطمي وأن يرسلوا اليه ما يجمعون بعد خصم النفقات اللازمة لهم أثناء تأدية عملهم ٠ والرابع اداري فان عليهم أن يقسموا البلاد أقساما ادارية كما يرون وأن يأخذوا العهد على من يولونه على كل قسم نيابة عن الخليفة ٠

وأما الوزير فكثيرا ما كان يشترك فى التعليم فقد شارك ابن كلس وزير المعز والعزيز فى المجالس العلمية فى قصر الخليفة وفى الجامع الأزهر وألف فى الدعوة الفاطمية كتابا سماه « الرسالة الوزيرية » وكان بيته مجمعا للعلماء من أهل زمانه (١) ٠ وكان اليازورى كبير الدعاة قبل ان يصل الى الوزارة وفى أثناء توليته اياها ٠

وأما الخليفة فقد كان وارثا للعلم عن سلفه كما قلنا، وكان يشترك فى القاء المحاضرات وخاصة فى شهر رمضان فى المساجد وفى قصره ٠ ومن ناحية أخرى كان يثق ببعض العلماء ويكلفهم بالكتابة فى موضوع بعينه او بتلاوة كتاب خاص ، ومن هذا تكليفه ناصر خسرو بالكتابة فى موضوع البرزخ الذى شرحه فى كتابه المصباح (٢) ، ومن ذلك أيضا تكليف المعز لدين الله أبا حنيفة المعروف بابن حيون بقراءة كتاب فى علم الباطن ، أخرجه من خزانته وامره بقراءته على الناس كل يوم جمعة فى مجلس بقصره المعمور (٣) ٠

وكانت دروس الدعوة أو مجالسها مقسمة الى قسمين ، قسم يستمع اليه عامة الناس من الراغبين فى تحصيل العلم، وقسم يستمع اليه المتخصصون فى الدعوة ، كما أعدت دروس خاصة للنساء ٠

---

(١) ناصر خسرو ص ٩٥ ٠

(٢) خوان الاخوان لناصر خسرو ، نشر يحيى الخشاب ص ١١٦ (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ٠

(٣) المجالس والمسايرات ص ٦٧ ٠

هذا ملخص للحالة العلمية في مصر ، حين وفد عليها ناصر خسرو . ونلاحظ أنه في وصفه لمصر لا يحدثنا عن شيء من هذا ، ولا يميط اللثام عن اقتناعه بالمذهب الفاطمي ، وتدرجه في مراتب الدعوة حتى بلغ أرفع درجاتها . ولكنه أشار الى ذلك كله صراحة في ديوانه ، كما تحدث عن صلته بالخليفة في كتبه الأخرى . فهو يذكر حضوره مجلس المؤيد وتفتح ابواب الحكمة له وكيف عرف الظاهر والباطن واهتدى الى امام الزمان المستنصر وهو يرجو الله أن يبقيه طول حياته قادرا على مدح سيد الخلق المستنصر ، جوهرة تاج الرسالة ومفخرة الانس والجن . ويشبه الامام بسحاب الربيع والناس بالتراب ، ويشبه ضمائرهم بالليل ، والامام بالنهار المضيء الذى يهديها . ثم هو يتحدث عن طرحه التردد ، فهو لا يريد أن يكون قلقا ، ويعلن ميله الى العلويين فهو داخل في ملتهم مقتنع بها فانها هي الحق الذى سعى لمعرفته . ثم يتحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم وكيف أمره الله تعالى بالقيام بدعوته مع ما كان يعترضه من صعاب ويبين كيف استعان النبي بعلي في حمل عبء النبوة ، وهو يشبه عليا ومحمدا بآدم وحواء فمن لا يدرى الصلة بينهما فليرجع الى قصتهما فان النسل الباقي يخرج من علي ومحمد كما يخرج النسل الفاني من آدم وحواء . وكما ان النبي نوحا قد ثار من الكفار يوم الطوفان فكذلك أمطر على أرواح الجبابرة طوفانا من حد سيفه ، وفسر كيف كانت النار بردا وسلاما على ابراهيم بأن عليا قد زرع في قلوب المؤمنين مروج الورد بدل نار جهنم . ثم يشبه عليا بهرون من موسى ويطيل الكلام في هذا المعنى . ثم يعود فيشبهه بعيسى ، فعيسى قد أحيا الموتى وكذلك أحيا علي الجهلاء بعلمه ، والجاهل والميت سواء .

ثم هو يتحدث عن بطش علي بالكفار وكيف كان سيفه ذو الفقار قويا على الكافرين ، حتى امتلأت السماء بأرواح لا أجساد فيها وفاضت القبور بأجساد بغير أرواح . ويصف يوم الخندق فيقول ان أرضه صارت كالمرجان من كثرة

ما أراق « ذو الفقار » من دماء . وهو يطلب من المؤمنين أن يسموا عليا « الكرار » كما سماه النبى (صلعم) . ثم ينتقل الى خطبة غدير خم ويذكر قول النبى (صلعم) من كنت مولاه فعلى مولاه .. ثم يتعجب ممن يأكل الطعام نيئا والوقود أمامه أو ممن يظل عطشانا على شاطىء النيل أو الشط ./. ويدعو الناس آخيرا الى الدخول فى المذهب الفاطمى . فى الحصن الذى لا يدخله ابليس . الحصن الذى شيده الله من الغفران ، وحماه جبريل من الشيطان ، الحصن الذى فيه العز والراحة وخارجه الشر والخذلان . وينتهى بمدح رب هذا الحصن ، امام الزمان الخليفة الفاطمى (١) .

ثم يحدثنا فى قصيدة أخرى من ديوانه عن صلته بالامام المستنصر ، ويقول ان الامام نفسه هو الذى أخذ عليه العهد بأن لا يبوح بسر هدايته ، وهو الذى وعده بأن يوضح له ما يسأل عنه ، ثم وضع يده فى يد النبى ليبايع كل منهما صاحبه تحت الشجرة التى تحمل ثمار العلم ، وهكذا تمت البيعة التى أرادها من قبل . ويصف ناصر بعد ذلك كيف ارتقى مراتب الدعوة درجة درجة حتى بلغ مرتبة الحجة وصار واحدا من الاثنى عشر حجة الذين نصبهم الامام بنفسه فى مراكزهم ، وكيف منحه الامام ، أفضل الرجال ، هذه الدرجة ، وهى درجة لم ينلها أحد فى أسرته ، وهكذا ، بعد أن كان تائها فى غياهب الجب ارتفع فوق القمر ، وليس أعظم من هذا علوا (٢) .

لم يحدثنا ناصر عن شىء من هذا فى كتابه سفر نامه أثناء اقامته فى مصر ، ولكنا مع ذلك نستطيع أن نتبين أنه كان يتمتع بمركز ممتاز أثناء اقامته الطويلة بها . فقد حج مرتين فى صحبة رسول الخليفة مع أن الحج كان ممنوعا بسبب قحط فى الحجاز ، وعاد فى المرة الثانية فى صحبة

---

(١) الديوان ٣١٣ ـ ٣١٦ .

(٢) الديوان ٣٦٤ .

امير مكة • واراد أن يرى مائدة الخليفة يوم العيد فسمح له بذلك •

كل هذا يبين مكانة ناصر أثناء الرحلة وتمتعه بمعاملة ممتازة من الخليفة والوزير وقتذاك مما يدل على اعتناقه المذهب الفاطمى ، وهو ما حدثنا عنه في ديوانه كما رأينا •

ولكن لماذا أخفى ناصر اعتناق هذا المذهب في مصر فى سفر نامه ؟ الأن ناصرا كتب رحلته بعد عودته الى وطنه مباشرة . فى الفترة التى انكب فيها على عبادة الله وقبل أن يبدأ حياته داعيا للدعاة فى خراسان ، فلم يكن هناك مجال لأن يتحدث عن اعتناقه مذهبا تحاربه الدولة السلجوقيه وتعمل على ابادته ؟ أو لأن ناصرا كان ، فى بادىء الأمر ، يخاف ان هو أظهر آراءه الجديدة أن يتعرض أخوه ، وهو من كبار رجال الامير السلجوقى جغرى بيك ، للأذى ؟ أو يكون ذلك نتيجة اختصار النص الذى كتبه ناصر خسرو نفسه على يد كاتب سنى فلم يثبت ما خالف المذهب السنى من آراء ؟ كل هذه الفروض جائزة • يبقى بعد ذلك سؤال هو هل كان ناصر ـ وقد أصبح فاطمى المذهب ـ مبالغا ومتعصبا حين وصف مصر هذا الوصف الذى كله ثناء وتمجيد ؟ فهل هو يبالغ حين يتحدث عن ثراء المصريين أو عما هم فيه من الرغد والأمن ؟ أو حين يتكلم عن سوق القناديل فيقول انه لا يعرف مثله فى العالم (١) ؟ الواقع ان أسلوب المبالغة يسود الكتاب كله ولا يقتصر على وصف مصر وحده • فهو يقول عن صيدا وآمد انه لم ير مثلهما على وجه الأرض (٢) ويتحدث عن حصير فى مقام ابراهيم فيقول انه لم ير مثلها فى مكان قط (٣) ، ويقول عن كنيسة القيامة انه ليس لها نظير فى أى جهة من العالم (٤) ، وكذلك يقول

(١) ص ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٤ •
(٢) ص ٩ ، ١٤ •
(٣) ص ٣٤ •
(٤) ص ٤٧ •

عن اصفهان انه لم ير فى كل البلاد التى تتحدث الفارسية مدينة أجمل ولا أكثر سكانا وعمرانا منها (١) . ويقول عن طبس ان الناس بها فى سلام وأمن عظيمين حتى انهم لا يغلقون بيوتهم ليلا ويتركون البهائم فى الطريق مع أن المدينة غير مسورة (٦) . وهكذا نرى أنه يبالغ فى أكثر من موضع من الكتاب وأن العبارات التى وردت عن بعض ما رآى أو سمع فى مصر ليست الا من هذا القبيل ، فهى لا تفيد تعصبا فيما نرى .

المرحلة الثالثة

هكذا يعزم ناصر على العودة الى وطنه ، وقد أصبح من أبرز رجال الدعوة الفاطمية ، وهو لا يذهب الى خراسان عن الطريق الذى سلكه فى مجيئه ولكنه يختار طريق الحجاز وفلج والحسا ويطيل اقامته فى كل بلد منها . ونلاحظ أنه اختار طريق الحجاز ، وأقام ستة أشهر مجاورا فى مكة مع أنه زارها ثلاث مرات من قبل ، كما نلاحظ أن أمير جدة أعفاه من المكس الواجب عليه وكتب لأمير مكة ليعفيه منه أيضا ، وقد يرجح هذا أن لناصر صفة خاصة فى رحلته الى الحجاز هذه المرة .

ويحدثنا ناصر بانه يغادر مكة قاصدا الحسا التى يبلغونها عادة فى ثلاثة عشر يوما ، ولكنه يسلك طريقا موحشا ملؤها المخاطر بين أعراب من سفاكى الدماء ، فى الطائف ومطار والثريا وجزع وسربا وفلج واليمامة ثم يصل أخيرا الى الحسا ، وقد استغرقت رحلته وسط هؤلاء الأعراب تسعة أشهر .

أما أن يغادر ناصر مكة قاصدا الحسا فهذا أمر اقتضته الصلات بين مصر والحسا فى ذلك الوقت وقد كان صاحبها

---

(١) ص ١٠٣ .

(٢) ص ١٠٤ .

ابو سعيد يدفع الخمس للخليفة الفاطمى القائم ولو أن اعترافه بشرعيته لم يكن كاملا . وفى سنة ٣١٧/٩٣٠ اغار أبو طاهر على الكعبة وانتزع الحجر الأسود ونقله الى الحسا، فامر الخليفة الفاطمى المنصور برد الحجر الى مكانه فرد سنة ٣٢٩/٩٥٠ . وساءت الصلات بين قرامطة الحسا والخليفة الفاطمى فبعث أبو الحسن بن احمد الى أصدقائه البويهيين وثيقة تثبت اغتصاب الخليفة الفاطمى الأول الخلافة ، وقد قرئت هذه الوثيقة جهارا فى دمشق (١) ولم يتوان هذا الرجل فى اعداد حملة لمحاصرة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى مصر ، فى السنة التالية لدخوله فيها ، فاضطر هذا ان يكتب اليه كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وان الدعوة واحدة وان القرامطة انما كانت دعوتهم اليه والى ابائه من قبله ووعظه .. (٢) وفى سنة ٤٢٠/١٠٣٠ حاول الكاتب الدرزى المقتنع أن يحمل السادة قرامطة الحسا على الاعتراف بالخليفة الفاطمى الحاكم بامر الله ولكن محاولته ذهبت عبثا (٣) . فهل نستطيع على ضوء الصلات المتقدمة بين قرامطة الحسا والفاطميين ، أن نقول ان رحلة ناصر الى هذه البلاد لم تكن مجرد سياحة انما كان من ورائها توطيد الصلات بين البلدين، وتجديد العلاقة بين السادة والمستنصر؟ وخاصة اذا لاحظنا أن الدولة السنية القوية ، وهى دولة السلاجقة ، كانت قد أخذت فى الاستيلاء على أملاك البويهيين . فأفقدتهم العراق فى سنة ٤٢٠/١٠٢٩ ثم كرمان فى سنة ٤٤٠ / ١٠٤٨ حتى فنيت دولتهم فى سنة ٤٤٧ / ١٠٥٠ . فكان على الفاطميين أن يصلوا ما انقطع من صلات مع أصدقائهم أو أن يجددا هذه الصلات أو يوثقوها ليقفوا معهم صفا واحدا أمام التيار السنى الذى اقتلع الدولة الشيعية البويهية والذى أخذ فى محاربة المذهب الفاطمى

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة القرامطة لأستاذنا ماسينيون وانظر ص ٨١ من هذا الكتاب .

(٢) ابن الأثير حوادث سنة ٣٦٣/٩٧٣ ، ج ٨ ص ١١ من طبعة مصر .

(٣) مقال ماسينيون عن القرامطة .

وما شابهه حربا لا هوادة فيها ولا رفق . ولم يشأ ناصر ان يترك حادثة انتزاع الحجر الأسود من الكعبة ، وهى الحادثة التى استغلها الكتاب السنيون ضد القرامطة والفاطميين عامة فاستنكرها وأكد بذلك احترام قومه للكعبة وللبيت المقدس .

وأما تنقل ناصر وسط الأعراب فى الطائف ومطار والثريا وجزع وسربا وفلج فهو عندنا لأغراض سياسية أيضا . فان الصلات بين اليمن ومصر كانت قوية وخاصة أيام المستنصر ، يحدثنا مؤرخ معاصر لناصر هو محمد بن مالك بن أبى الفضائل اليمانى (١) بأن رئيس الصليحيين استأذن المستنصر الفاطمى فى سنة ١٠٤٧/٤٣٩ فى نشر الدعوة الفاطمية ووجه اليه بهدايا فأذن له . فهل ذهب ناصر الى أعراب هذه الجهات ليؤلف بينهم ويجمع شتاتهم ليكونوا جميعا اذا ما ناداهم الخليفة الفاطمى باسم رئيسهم ؟ هذا ما نرجحه .

ناصر خسرو ورسالته

عاد ناصر الى بلخ سنة ١٠٥٢/٤٤٤ فى صحبة أخيه أبى الفتح عبد الجليل ، وقد طوف كثيرا فى خراسان ، وهى جزيرته التى عين حجة لها من قبل الفاطميين ، ثم انتقل الى مازندران فأقام بها زمنا طويلا حتى نسب اليها ، وقد استطاع أن يقنع كثيرا من أهلها بالدخول فى مذهبه . ولكن مناظرته للعلماء وشهرته بمذهب خاص يتنافى مع السنة وجهره بآرائه وعنايته ببثها بين الناس ، كل هذا أثار عليه الناس والحكومة ، فاعتدى على منزله واضطر أهله الى هجره كما اضطر هو الى أن ينجو بنفسه فهاجر الى يمكان ، وهناك أخذ يصنف الكتب والرسائل فى مذهبه ، وكان بعضها بوحى من الخليفة الفاطمى المستنصر بالله نفسه (٢) .

(١) كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٤٢ ــ ٤٣ .

(٢) خوان الاخوان ص ١١٦ نشر يحيى الخشاب (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

وكتب ناصر كثيرة ، منهـا المنظـوم ومنهـا المنثور ، ونكتفى بأن نذكر كتبه المنشورة أو المخطوطة التى رأيناها . فالمنظومة هى الديوان وسـعادت نامه وروشـنائى نامه ، والمنثورة هى زاد المسافرين وخوان الاخوان والرسالة ووجه دين وسفر نامه ، وعثرنا على مخطوطة تحتوى على جزء من كتاب كشـايش ورهايش (١) . وقد لخص شريعتـه فى كتاب وجه دين الذى أراد أن يقلد به « كتاب البيان » الذى وضعه غياث أحد كبـار رجال الدعوة الباطنيـة فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، وهو يحـوى شرحا باطنيـا لأركان الاسلام والجهاد والامامة (٢) .

وظل ناصر يدعو لمذهبـه فى يمـكان ، ولا يزال لدى الاسـماعيليين النزاريين فى شـوغان كتب لنـاصر منهـا « الصحيفة » و « مرآة المحققين » ثم انهم يعرفون « سـفر نامه » ولكنهم ينسبونه الى سعيد سهراب أحد أقارب ناصر خسرو الذين عاصروه (٣) . ولا يزال قبر ناصر للآن مزارا يؤمه الاسماعيليون النزاريون — نزار بن المستنصر — من الصين وآسيا الوسطى الروسية والهند والافغان (٤) .

★★★

---

(١) دار الكتب الملكية المصريه ، مخطوط رقم ٨٢ فارسى (ووضع خطا تحت موضوع التصوف) وانظر كتابنا ناصر خسرو (بالفرنسية) ص ١٣٢ — ١٤١ ، ص ١٤٩ — ٢١٧ .

(٢) سياست نامه ص ١٨٥ وبيان الأديان لأبى المعالى العلوى ص ٣٩ (تصحيح عباس اقبال) .

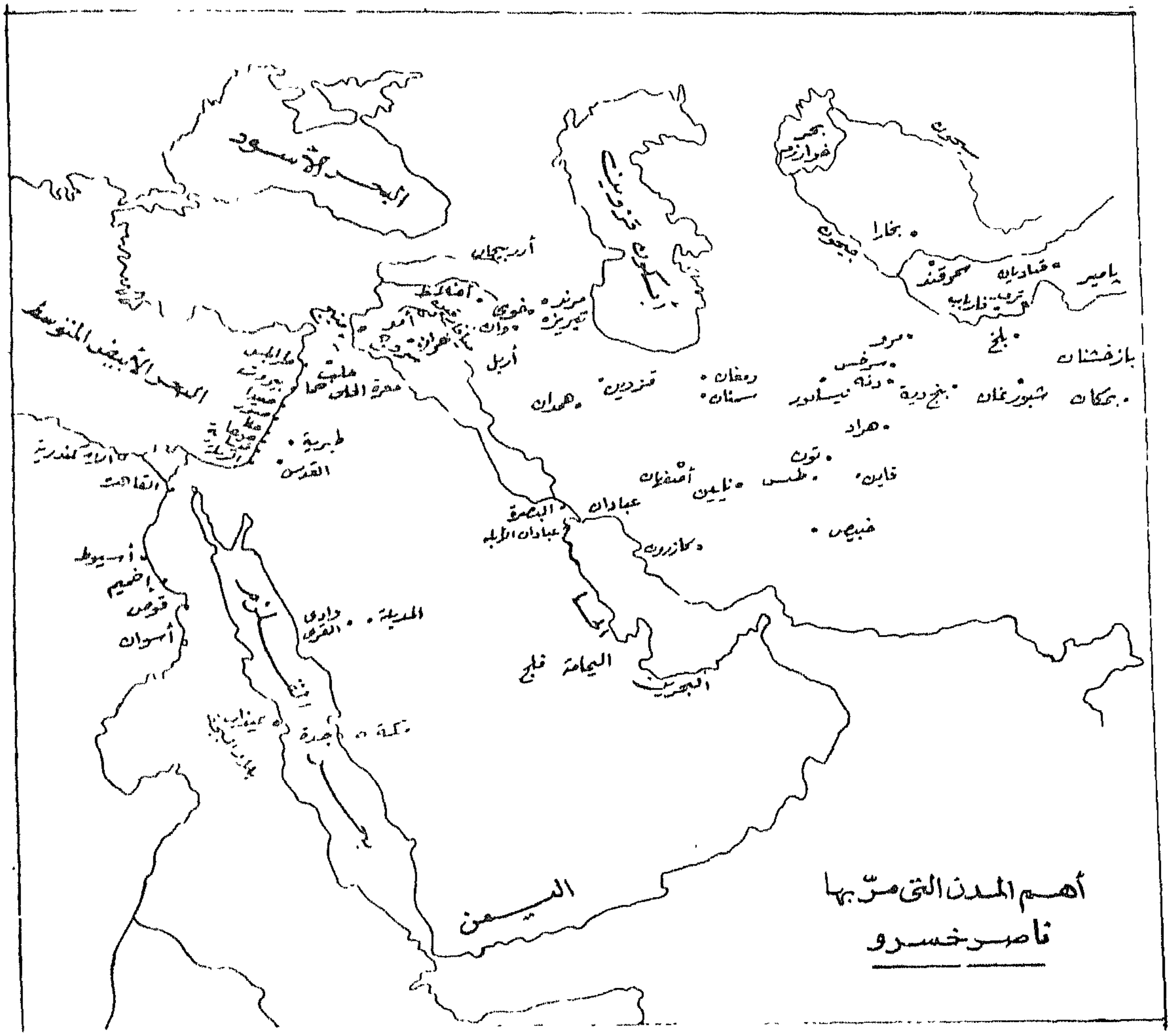
(٣) Majerczak فى مجلة العالم الاسلامى سنة ١٩١٢ ص ٢١٢ (Revue du Monde Musulman)

(٤) Semenow فى ملاحظات على «أم الكتاب» . Ivanow فى مجلة دراسات تاجسان وناصر خسرو ليحيى الخشاب ص ٢٩٤ .

وبعد فانى أشكر أستاذى الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب الذى أتاح لهذا الكتـاب أن ينشر باللغة العربية ، فهو الذى أشار على بترجمة الفصل الخاص بمصر من سفر نامه كملحق لبحث الماجستير سنة ١٩٣١ ، وهو الذى أشار بعد ذلك بنقل الكتاب كله الى اللغة العربية وتفضل بمراجعته ثم عمل على أن يكون من مطبوعات كلية الآداب وأول مطبوعات معهد اللغات الشرقية بها ٠

د ٠ يحيى الخشاب

سفرنامه


البحر الأسود
البحر الأبيض المتوسط
أذربيجان
أخلاط
تبريز
أربيل
خوارزم
بخارا
سمرقند
بلخ
مرو
سرخس
نيسابور
قزوين
سمنان
هراد
تون
قاين
طبس
نايين
أصفهان
خبيص
عبادان
البصرة
كازرون
معرة النعمان
طبرية
القدس
القاهرة
أسيوط
إخميم
قوص
أسوان
المدينة
وادي القرى
مكة
جدة
اليمامة
فلج
البحرين
اليمن
أهم المدن التي مرّ بها
ناصر خسرو

بسم الله الرحمن الرحيم

وصف الشام وفلسطين

هذا ما يقول أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني(١) المروزي تاب الله عنه . كانت صناعتي الانشاء ، وكنت من المتصرفين في أموال السلطان وأعماله ، واشتغلت بالديوان ، وباشرت هذا العمل مدة من الزمن ، وذاع صيتي بين أقراني . وفي ربيع الآخر سنة ٤٣٧ (أكتوبر ونوفمبر ١٠٤٥) ، أيام أبي سليمان جغري بيك داود بن ميكائيل بن سلجوق حاكم خراسان(٢) ، ذهبت من مرو في عمل الديوان، ونزلت في بنج ديه مرو الرود .

كان ذلك يوم قران الرأس والمشتري ، ويقال ان الله تعالى وتقدس يستجيب فيه الى ما يطلب الناس من حاجات ، فذهب الى زاوية وصليت ركعتين ودعوته تعالى وتبارك أن ييسر لي أمري ، فلما عدت لأصدقائي وأصحابي وجدت أحدهم ينشد شعرا فارسيا ، فجال بخاطري أبيات ، فكتبتها على ورقة لأعطيه اياها حتى ينشدها ، فاذا به ينشد ما كتبت

---

(١) هي مدينة وولاية على جيحون قرب ترمذ وهي مجاورة للصغانيان . معجم البلدان ج ٤ ص ١٩٦ ، طبعة أوربا . والمروزي نسبة الى مرو .

(٢) ولي خراسان من قبل أخيه طغرل بيك وقد توفي سنة ١٠٥٩/٤٥١ فخلفه ابنه الب ارسلان الذي أصبح سلطانا بعد موت عمه طغرل سنة ١٠٦٣/٤٥٥ .

من شعر ولما أعطه الورقة ، فتفاءلت بهذا الحال ، وقلت فى نفسى ان الله تعالى وتبارك قد قضى حاجتى ٠

ثم ذهبت الى جزجانان فمكثت بها حوالى شهر ، وظللت أشرب الخمر ، قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « قولوا الحق ولو على أنفسكم » ، حتى اذا كانت ذات ليلة رأيت فى المنام رجلا يقول لى : « الى متى تشرب هذا الشراب الذى يسلب لب الرجال ، خير لك أن تصحو » ٠

فأجبت : ان الحكماء لا يستطيعون شيئا غير هذا يقلل هموم الدنيا ٠ فأجاب : « ان التسرية عن النفس لا تتاتى بفقد الشعور والعقل ، والحكم لا يستطيع أن يقول ان الرجل المسلوب الفؤاد يصلح هاديا للناس ، بل ينبغى عليه أن يبحث عما يزيد العقل والحكمة » ٠ قلت : « وأنى لى هذا ؟ » ٠ قال : « من جد وجد » ثم أشار الى القبلة ولم يقل شيئا ٠ فلما صحوت من النوم ، كانت هذه الرؤيا ماثلة بأكملها أمامى ، وقد أثرت فى ، فقلت لنفسى : صحوت من نوم البارحة وينبغى أن أصحوآ من نوم أربعين سنة خلت ، وأمعنت الفكر فوجدتنى لن أسعد ما لم أعدل عن كل سلوكى ٠

وفى يوم الخميس السادس من جمادى الآخر سنة ٤٣٧ (٢٠ ديسمبر ١٠٤٥) ، منتصف شهر دى (١) من السنة الفارسية ٤١٠ من التقويم اليزدجردى، اغتسلت وذهبت الى الجامع فصليت ، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يعيننى على

---

(١) الأشهر الفارسية الشمسية القديمة هى :

١ ــ فروردين (مارس ــ أبريل) ٠ ٢ ــ اردى بهشت (أبريل ــ مايو)٠

٣ ــ خرداد (مايو ــ يونيو) ٠ ٤ ــ تير (يونيو ــ يوليو) ٠

٥ ــ مرداد ٠ آمرداد (يوليو ــ اغسطس) ٠

٦ ــ شهر يور (اغسطس ــ سبتمبر) ٠

٧ ــ مهر (سبتمبر ــ أكتوبر) ٠ ٨ ــ آبان (أكتوبر ــ نوفمبر) ٠

٩ ــ آذر (نوفمبر ــ ديسمبر) ٠ ١٠ ــ دى (ديسمبر ــ يناير) ٠

١١ ــ بهمن (يناير ــ فبراير) ٠

١٢ ــ اسنبدارمز (فبراير ــ مارس) ٠

أداء الواجب ، وعلى ترك المنهيات والسيئات ، كما أمر الحق سبحانه وتعالى ٠

ثم توجهت من هناك الى شبورغان ، وفى المساء كنت فى قرية بارياب (١) ، ومنهـا سرت الى مرو الرود عن طـريق سنكلان وطالقان ٠ فلما بلغت مرو طلبت اعفائى مما عهـد الى من عمل ، وقلت انى عازم على الحج ، ثم أديت ما على من حساب ، وتركت أموالى عدا القليل الضرورى منها ٠

وفى الثالث والعشرين من شعبان (٦ مارس ١٠٤٦) عزمت على السفر الى نيشابور ، فسرت من مرو الى سرخس ، وهى على ثلاثين فرسخا منهـا ، ومن سرخس الى نيشـابور أربعون فرسخا ، وقد بلغتها يوم السبت الحـادى عشر من شوال (٢٢ ابريل ١٠٤٦٦) ٠ ويوم الأربعاء آخـر هـذا الشهر كسفت الشمس ، وكان الحاكم حينئذ طغرك بيـك محمد (٢) أخا جغرى بيك ، وكانوا يشيدون مدرسة بقرب سوق السراجين ، أمر ببنائها ، وقد ذهب أثنـاء ولايتـه ، لأول مرة ، للاستيلاء على ولاية أصفهان ٠

وفى الثانى من ذى القعدة (١٢ مايو ١٠٤٦) غادرت نيشابور ، فى صحبة الأستاذ المـوفق (٣) الذى كان مؤدبا للسلطان ، فبلغنا قومس ، عن طريق كوان ، وزرت مشـهد

وقد لاحظ schefer (ص ٤ هامش) انه ينبغى أن تكون السنة ٤١٣ بدلا من ٤١٠ ، وهو العدد الذى ذكر خطأ فى المخطوطات المختلفة للكتاب ٠

(١) ويقال لها فارياب أيضا التى منها المعلم الثانى الفارابى المتوفى ٣٣٩ (٩٥٠) ٠

(٢) أول السلاجقة العظام ، وقد استولى على نيشابور سنة ١٠٣٧/٤٢٩ ، وفى ١٠٥/٤٤٧ دخل بغداد ومات سنة ١٠٦٣/٤٥٥ ٠

(٣) كان الخوجة هبة الله الموفق كاتبا للسلطان طغرل بيك ، وهو الذى أشار عليه باختيار أبى منصور الكندرى ، الوزير المشهور ، كاتبا للمراسلات العربية ، والموفق هو والد أبى سهل محمد بن هبة الله المعروف بابن الموفق ، الذى اختير للسير فى خدمة السيدة ابنة الخليفة القائم زوجة طغرل بيك التى أمر السلطان الب أرسلان بعودتها الى بغداد ٠ (ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٢ طبعة مصر) ٠

الشيخ بايزيد البسطامى قدس الله روحه (١) ٠

وفى الجمعة الثامن من ذى القعدة (١٨ مايو ١٠٤٦) سرت الى دامغــان ، ثم بلغت سمنان عن طــريق آبخــورى وجاشت خواران ، فى غرة ذى الحجة سنة ١٤٣٧ (٩ يونيو ١٠٤٦) ، وقد مكثت هناك زمنا وتعرفت بأهل العلم ٠

وقد دلونى على رجل اسمه على النسائى ، وهو شــاب يتكلم الفارسية بلهجة الديالمة ، كان شعر رأسه مرســلا ، وكان ، وهو يتكلم ، يقول « انى قرأت كذا على الأستاذ أبى على بن سينا رحمه الله وهكذا سمعت منه » لــكى أعرف أنه تلميذ ابن سينا ٠ ولما ناظرته قال « انى قليــل المعرفة بكل علم وأحب أن أقرأ معك قليلا فى الحساب » فخرجت متعجبا وقلت : « ماذا يعلم الآخرين وهو لا يعلم شيئا ؟ » ٠

وعددت من بلخ الى الرى ثلاثمائة وخمسين فرسخا ، ويقال انه من الرى الى ساوه ثلاثون فرسخا ، ومن ساوه الى همدان كذلك ، ومن الرى الى أصفهان خمسون فرسخا والى آمل ثلاثون ٠ وبين الرى وآمل جبل دماوند ، وهو كالقبــة ويســمى لواســان ، ويقال ان بقمته بئرا يســتخرج منــ النوشادر ويقال والكبريت أيضــا ، فيصــعد عليها رجال يحملون جلود البقر ويملئونها بالنوشادر ، ثم يدحرجونها من قمة الجبل ، لتعذر ايجاد طريق لنقلها ٠

وفى الخامس من محرم سنة ٤٣٨ (١٣ يوليو ١٠٤٦)، الموافق للعاشر من شهر مرداد سنة ٤١٥ من تاريخ الفرس، توجهت ناحية قزوين فبلغت قرية قوهة وكان بها قحط حتى بيع المن من خبز الشعير بدرهمين ، وقد غادرتها فى التاسع من محرم (١٧ يوليو) فبلغت قزوين ، وهى آهلة بالحدائق

---

(١) هو طيفور بن عسى ، وكان جده الأعلى (سروشان) مجوسيا وأسلم ٠ وتوفى ابو يزيد البسطامى سنة ٨٧٤/٢٦١ ٠ وقد انشا المبة السى على قبره الأمير المغولى الجايتو سلطان محمد خود بنده الذى اتخذ من حفيد ابى يزيد مؤدبا (الشيخ شرف الدين) ، وذلك سنة ١٣١٣/٧٠٠ ٠

التى لا تحدها أسوار أو اشواك ، فلا يحول دون دخولها عائق • رأيت قزوين مدينة عظيمة ، ذات حصن مكين عليه شرفات • وبها أسواق جميلة ، الا أن الماء بها قليل ، وهو يجرى فى قنوات تحت الأرض ، وكان حاكمها رجلا من العلويين • ويشتغل معظم صناعها بصناعة الأحذية •

وفى الثانى عشر من محرم سنة ٤٣٨ (١٠ يوليو ١٠٤٦) غادرت قزوين عن طريق بيل وقبان وهما من ضواحيها ، وسرت الى قرية تسمى خرزويل • كان معنا ، أنا وأخى وغلام هندى كان يصحبنا زاد قليل ، فذهب اخى للقرية ليشترى شيئا من البقال ، فقال له احدهم : ماذا تريد أنا البقال ؟ فقلت : « كل ما عندك يناسبنا ، فانا غرباء وعابرو سبيل » فقال : « ليس عندى شيء أبدا » وبعد ذلك كنت اقول « انه بقال خرزويل » عن كل شخص فى أى مكان يقول كلاما من هذا النوع •

بعد مغادرة هذه القرية جزنا منحدرا صعبا ، وبعد مسيرة ثلاثة فراسخ بلغنا قرية تسمى برز الخير ، من اعمال طارم ، كان جوها حارا ، وبها شجر كثير من الرمان والتين ومعظمه برى • ومن هناك اجتزنا نهرا يسمى شاه رود ، عليه قرية تسمى خندان ، تجبى فيها المكوس من قبل امير الأمراء وهو من ملوك الديلم • وحين يخرج النهر منها يلتقى بنهر آخر اسمه سبيدرود ، ثم يدخل النهران واديا شرقى جبال جيلان ، ويمر النهر بجيلان ثم يصب فى بحر آبسكون (بحر قزوين) • ويقال ان ألفا وأربعمائة نهر تصب فى هذا البحر الذى يقال ان محيطه ألف ومائتا فرسخ، وان فى وسطه جزائر آهلة • بالسكان ، وقد سمعت هذا من كثيرين •

والآن أعود الى رحلتى وما كان فيها :

ومن خندان الى شميران ثلاثة فراسخ من صحراء جبلية كلها • وشميران قصبة ولاية طارم • وعلى حافة المدينة

قلعة مرتفعة مشيدة على صخر صلد ، محاطة بثلاثة اسوار . وقد حفرت في وسطها قناة تجرى حتى شاطىء النهر ، ومنها يستخرجون الماء ويحملونه الى القلعة ، ويقيم بها ألف رجل مختار من أبناء عظماء الولاية ، وذلك حتى لا يستطيع احد ان يضل أو يثور . ويقال ان لهذا الأمير قلاعا كثيرة في ولاية الديلم ، وان العدل والامن مستتبان بها ، بحيث لا يستطيع أحد أن يغتصب شيئا من غيره ، بل ان الناس هناك يدخلون مسجد الجمعة ، ويتركون أحذيتهم خارجه فلا يأخذها أحد . ويكتب اسم هذا الامير هكذا : « مرزبان الديلم جيل جيلان أبو صالح مولى امير المؤمنين » واسمه جستان ابراهيم (١) ، وقد رأيت في شميران رجلا طيبا من دربند ، اسمه أبو الفضل خليفة بن على الفيلسوف ، كان رجلا فاضلا ، أضافنا وأكرمنا ، وقد تناظرنا معا ، واتصلت بيننا الصداقة . سألني : علام عزمت ؟ فقلت اني انوى الحج ، قال : أريد أن تمر بنا في عودتك حتى أراك .

وفي السادس والعشرين من محرم (٣ أغسطس ١٠٤٦) غادرت شميران ، وفي الرابع عشر من صفر (٢١ اغسطس) بلغت مدينة سراب وغادرتها في السادس عشر ، (٢٣ أغسطس) ، ثم مررت بسعيد آباد ، وبلغت تبريز في عشرين صفر ٤٣٨ (٢٧ آغسطس ١٠٤٦) ، وكان ذلك في الخامس من شهر يور الشهر القديم ، وتبريز قصبة ولاية اذربيجان وهي مدينة عامرة وقد قسمت طولها وعرضها فكان كل منهما ألفا وأربعمائة قدم . وكان ملك ولاية أذربيجان يذكر هكذا في الخطبة : « الأمير الأجل سيف الدولة وشرف الملة أبو منصور وهسودان بن محمد، مولى أمير المؤمنين(٢) » .

---

(١) جستان بن ابراهيم من بني سالار ، ايده طغرل بيك في سنة ١٠٣٨/٤٣٠ على ولاية الديلم وطبرستان .

(٢) آخر الأمراء المستقلين في اسره بني سالار أو بني مسافر التي حكمت آذربيجان منذ سنة ٩٤١/٣٣٠ ، وقد سار طغرل بيك الى تبريز سنة ١٠٤٦/٤٤٦ ، فاطاعه اميرها أبو منصور وهسودان ابن محمد الراودى ، وخطب له ، وحمل اليه ما أرضاه به واعطاه ولده رهينة (ابن الأثير ج ٩ ص ص ٢٠٧ طبعة مصر) .

وحكوا لى أنه فى ليلة الخميس السابع عشر من ربيع الأول ٤٣٤ (٥ ديسمبر ١٠٤٢) ، فى الايام المسترقه ، بعد العشاء ، زلزلت الأرض ، فخرب جزء من المدينة ، ولم يصبب الجزء الآخر بسوء ، ويقال انه هلك فيها حينئذ أربعون الف نسمة • ورأيت فى تبريز شاعرا اسمه قطران (١) يقول شعرا جميلا ، ولكنه لم يكن يجيد الفارسية ، وقد زارنى ومعه ديوانى منجيك (٢) والدقيقى (٣) وقرأ على منهما ، وسألنى عما أشكل عليه من المعانى ، فكنت أجيبه وهو يكتب ما أقول ، ثم تلا على شيئا من أشعاره •

فى الرابع عشر من ربيع الأول (١٩ سبتمبر) غادرت تبريز عن طريق مرند، مع جماعة من جيش الأمير وهسودان، فسرنا حتى بلغنا خوى ، ومن هناك سرنا الى بر كرى بصحبة رسول• ومن خوى الى بر كرى ثلاثون فرسخا ، وقد بلغناها

---

(١) ابو منصور قطران الجبلى الأزدى ، وهو من بلاد الجبل فى الديلم كما يدل اسمه • عاش فى تبريز ، وينسب اليه « قوس نامة » ، وقد كتب أشعارا كثيرة منها مدائح للأمير البويهى اسد الدولة • وقد توفى قطران سنة ٤٦٥/١٠٧٢ Browne ج ٢ ص ٢٧١ حيث رجع الى لباب الألباب وتذكرة الشعراء ، وانظر شيفر ص ١٨ •

(٢) ابو حسن على بن محمد منجبك ، ويقول صاحب « احياء الملوك » انه سمى منجيك نسبة الى قرية تحمل هذا الاسم فى ترمذ • وكان منجيك شاعرا مجيدا ولكنه كان هجاء يخشى الناس هجاءه • ويقال انه كان شاعرا لأمراء صغانيان كما يقال انه كان من شعراء محمود الغزنوى ، وقد ضاع معظم شعره ، ومن القليل الذى بقى يمدح فيها أبا المظفر احمد الصفارى وآخرتان يمدح فيهما طاهر بن احمد أمير سستان •

(٣) ابو منصور محمد بن احمد من شعراء العصرين السامانى والغزنوى ، فى القرن الرابع الهجرى ، يقول عوفى فى « لباب الألباب » ، (ج ص ١١ ، ١٢) انه كان فى خدمة الأمراء الجغانيين ، ويروى أبياتا له فى مدح الأمير أبى سعيد محمد بن المظفر بن محتاج الجغانى (المتوفى ٣٢٩) ، وكذلك يروى من مدائحه فى الأمير السعيد منصور بن نوح السامانى (٣٥٠ ـ ٩٦١/٣٦٥ ـ ٩٧٥) والأمير الرضى نوح بن منصور (٣٦٥ ـ ٣٨٧/ ٩٧٥ ـ ٩٩٧) • ويقول صاحب « تاريخ كزيدة » (ص ٨١٨) انه كان معاصرا للأمير نوح بن منصور •

وقد ذكر أستاذنا الدكتور عزام فى مدخل الشاهنامة (العربية) الآراء المختلفة فى دين الدقيقى ، ثم قال ان اسمه اقترن باسم الفردوسى اذ كان السابق له فى نظام الشاهنامة ، فنظم الف بيت ثم حالت المنية دون أمنيته •

راجع مدخل الشاهنامة للدكتور عزام ص ٣٨ ـ ٣٩ وما بعدها ، وانظر فى آل محتاج حواشى القزوينى على جهاز مقاله ص ١٦٣ وما بعدها •

فى الثانى عشر من جمــادى الأول (١٦ نوفمبر) ٠ ومن هناك ذهبنا الى وان ثم الى وسطان ، وكان لحم الخنزير يباع فى سوقها ، كما يباع الضأن ، ويجلس نساؤها ورجالها امام الحوانيت ، ويشربون بغير حياء ٠

ومن هناك بلغنا مدينة أخلاط ، فى الثــامن عشر من جمادى الأول (٢٢ نوفمبر) ، وهى على الحدود ما بين بلاد المسلمين والأرمن ٠ وبينها وبين بركرى تسعة عشر فرسخا ٠ وعليها امير اسمه نصر الدولة (١) ، نيف عــلى المائة ، وله أبناء كثيرون ، أعطى كلا منهم ولاية ٠ ويتكلمون بها ثلاث لغات ٠ العربية ، والفارسية ، والأرمنية ٠ واظن انها سميت « أخلاط » لهذا السبب ، والمعاملة هناك بالنقود النحاسية ، ورطلهم ثلاثمائة درهم ٠

فى العشرين من جمادى الأول (٢٤ نوفمبر) غادرنا أخلاط ، ونزلنا فى رباط (كروانسراى) ٠ كانت السماء تمطر ثلجــا ، والبرد قارســا ٠ وقد غرســوا فى جزء من الطريق ، عمــدا ليسير المسافرون عــلى هديهــا ايام الثلج والضباب ٠ ثم بلغنا مدينة بطليس ، وهى واقعة فى واد ، وقد اشترينا منها عسلا ، المائة من بدينار ، حسب ما باعونا ٠ ويقال ان بها من يجنى فى السنة الواحدة ثلاثمائة وأربعمائة جرة عسل ٠

وخرجنا منها فرأينا قلعة تسمى «قف انظر» ، وتركناها الى مكان به جامع ، يقال بناه عــويس القــرنى قدس الله

---

(١) هو ثالث أبناء مروان بن روشك مؤسس الأسرة الكردية التى تحمل اسمه والذى حكم ديار بكر والجزيرة (٣٧٣ ـ ٩٨٣/٤٨٧ ـ ١٠٩٤) ٠ ولى العرش سنة ١٠١١/٤٠٢ بعد موت أخويه ، وكان فى بدء ولايته تابعا للدولة البيزنطية ، فلما دخل طغرل بيك الجزيرة (١٠٥٤/٤٤٦) ، اصبح نصر الدولة تابعا له ، وحكم اثنين وخمسين سنة وتوفى ٤٥٣ ـ ١٠٦١ ٠

راجع ابن الأثير الجزءين ٩ ، ١٠ ، وراجع شيفر ص ٢١ ـ ٢٢ ، وما اشار اليه من مراجع ، وانظر كتاب « خلاصة تاريخ الكرد والكردستان » لمحمد امين زكى بك (بالكردية) والذى نقله للعربية الأستاذ محمد على عونى ص ١٤٨ ٠

روحه (١) • ورأيت الناس عند حدوده يطوفون بالجبل ويقطعون أشجارا تشبه السرو ، فسألت ماذا تعملون بها ؟ فقالوا : نضع طرفا من الشجرة في النار فيخرج هذا القطران من طرفها الاخر ، فنجمعه في البئر ، ثم نضعه في أوعية ونحمله الى الأطراف • وهذه الولايات التي ذكرتها باختصار بعد أخلاط تابعة لميافارقين •

ثم سرنا الى مدينة أرزن ، وهى مدينة عامرة وجميلة ، فيها أنهار جارية وبساتين واشجار وأسواق جميلة ، ويبيع البرسيون (٢) هناك المائة من عنبا بدينار واحد في شهر آذر (نوفمبر وديسمبر) ، ويسمون هذا العنب رز ارمانوش •

وانتقلنا الى مدينة ميافارقين التي يفصلها عن اخلاط ثمانية وعشرون فرسخا ، ومن بلغ اليها ، عن الطريق الذى اجتزناه ، اثنان وخمسون وخمسمائة فرسخ • وقد دخلناها يوم الجمعة السادس والعشرين من جمادى الأول ٤٣٨ (٢٣ نوفمبر ١٠٤٦) ، وكانت أوراق الشجر حينئذ لاتزال خضراء • وميافارقين محاطة بسور عظيم من الحجر الأبيض الذى يزن الحجر منه خمسمائة من • وعلى بعد كل خمسين ذراعا من هذا السور برج عظيم من الحجر نفسه ، وفي اعلاه شرفات ، وهى من الدقة بحيث تقول أن يد بناء ماهر أكملتها اليوم • ولهذه المدينة باب من ناحية الغرب ، له عتبة عليها طاق حجرى ، وقد ركب عليها باب من حديد لا خشب فيه • ويطول وصف مسجد الجمعة بها لو ذكرته ، ولو أن صاحب

---

(١) من الصحابة ، ويقال انه قتل فى صفين • ويذهب بعض المؤرخين الى أنه قتل فى ارمينيا اوسجستان ، ويذهب آخرون الى انه مات فى الصحراء بين المدينة ودمشق • وأن قبره فى هذا البلد الأخير • راجع ابن الأثير ج ٣ ص ٢٧٢ طبعة أوربا ، ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ ، وشيفر ص ٢٣ (٢) •

(٢) البرسيون هم الفرس الذين حافظوا على دين زردشت ولم يسلموا بعد الفتح الاسلامى •

الكتاب شرح كل شيء أتم الشرح (١) ، وقد قال ان للميضأة التي عملت بهذا المسجد أربعين مرحاضا ، تمر امامها قناتان ، كبيرتان ، الأولى ظاهرة ليستعمل ماؤها ، والثانية وهي تحت الأرض ، لحمل الثقل وللصرف . وخارج هذه المدينة ، في الربض ، أربطة (كروانسراها) واسواق وحمامات ومسجد جامع آخر يصلون فيه الجمعة ايضا . وفي ناحية الشمال سور آخر به مدينة تسمي المحدنه ، بها سوق ومسجد جامع وحمامات ، وكل ما ينبغي لمدينة من مهمات . ويذكر اسم سلطان الولاية في الخطبه هكذا : الامير الاعظم عز الاسلام سعد الدين نصر الدولة وشرف الملة أبو نصر أحمد ، وقد بلغ المائة من عمره ، ويقال انه حي . والرطل هناك أربعمائة وثمانون درهما . وقد بنى هذا الأمير مدينة على مسافة أربعة فراسخ من ميافارقين سماها الناصرية ، ومن آمد الى ميافارقين تسعة فراسخ .

في السادس من شهر دى القديم (٢٢ ديسمبر ١٠٤٦) بلغنا آمد التي شيدت على صخرة واحدة طولها ألفا قدم وعرضها كذلك . وهي محاطة بسور من الحجر الأسود ، كل حجر منه يزن ما بين مائة وألف من ، وأكثر هذه الحجارة ملتصق بعضه البعض من غير طين او جص . وارتفاع السور عشرون ذراعا وعرضه عشر أذرع . وقد بنى على بعد كل مائة ذراع برج نصف دائرته ثمانون ذراعا ، وشرفاته من هذا الحجر بعينه . وقد شيدت في عدة أماكن داخل المدينة ، سلالم من الحجر ، ليتيسر الصعود الي السور ، وقد بنيت قلعة على قمة كل برج . ولهذه المدينة اربعة ابواب كلها من الحديد الذى لا خشب فيه ، يطل كل منها على جهة من الجهات الأصلية . ويسمى الباب الشرقي باب دجلة ، والغربي باب الروم ، والشمالى باب الارمن ، والجنوبي

---

(١) هذه الجملة ، كما يبدو ، من وضع ناسخ الكتاب ، وهي تدل على ان هذا الناسخ ، أو كاتبا سواه ، قد اختصر كتاب سفر نامة . راجع تعليق الأستاذ غني زاده ص ١٠ (١٠) سفر نامة طبعة برلين .

باب التل • وخارج هذا السور سور آخر ، من نفس الحجر ، ارتفاعه عشر أذرع ومن فوقه شرفات فيها ممر يتسع لحركة رجل كامل السلاح ، بحيث يستطيع أن يقف فيه ويحارب بسهولة • ولهذا السور الخارجي أبواب من الحديد شيدت مخالفة لأبواب السور الداخلي ، بحيث لو اجتاز (السائر) أبواب السور الأول ، وجب عليه اجتياز مسافة لبلوغ أبواب السور الثاني ، وهذه المسافة تبلغ خمس عشرة ذراعا • وفي وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر الصلب ، وهذا الماء من الغزارة بحيث يكفي لادارة خمس طواحين ، وهو غاية في العذوبة ولا يعرف احد من اين ينبع • وفي المدينة أشجار وبساتين تسقى من هذا الماء ، وامير المدينة وحاكمها هو ابن نصر الدولة الذى مر ذكره • وقد رأيت كثيرا من المدن والقلاع في اطراف العالم ، في بلاد العرب والعجم والهند والترك ، ولكنى لم أر قط مثل مدينة آمد ، في أى مكان على وجه الأرض ، ولا سمعت من أحد أنه رأى مكانا آخر مثلها (١) • ومسجدها الجامع من الحجر الأسود ، وليس مثله متانة واحكاما • وقد أقيم في وسطه أكثر من مائتي عمود من الحجر ، كل عمود قطعة واحدة ، وفوق هذه الأعمدة عقود من الحجر ، وقد نصبت فوقها أعمدة أقصر من تلك • وجميع أسقف المسجد على هيئة الجملون ، وقد كملت نجارة ونقارة ونقشا ودهنا • وفي ساحته صخرة كبيرة عليها حوض كبير مستدير من الحجر ، يبلغ ارتفاعه قامة رجل ، ومحيط دائرته ذراعان • وفي وسط الحوض أنبوبة من النحاس يتفجر منها ماء صاف ، لا يظهر مدخله أو مخرجه • وبالمسجد ميضأة عظيمة

---

(١) تؤيد رواية Procope قول ناصر خسرو عن آمد • وقد أصلح اسوارها جستنيان ، وكانت حتى سنة ٥٧٢/١١٧٦ مقاما للبطريق اليعقوبى • وقد بلغها الب أرسلان سنة ٤٦٣/١٠٧٠ فاعجب بمناعة سورها فملس عليه بيده ثم مسح بها وجهه تبركا • وشيد سور طرطوشه (بالأندلس) على نمط سور آمد الذى شيده مهندس رومانى وقد صوره Rey في كتابه Monuments de l'architecture des Croisés en Syrie ص ٧٣) • ويقول على الهروى في كتاب (الاشارات الى الزيارات) أن في آمد خمسة مساجد (الورقة ٥٨) • وراجع شيفر ص ٢٦ •

جميلة الصنع بحيث لا يوجد أحسن منها، وقد بنيت عمارات آمد كلها من الحجر الأسـود ، وأما ميافارقين فعماراتها من الحجر الأبيض .

وبالقرب من المسجد كنيسة عظيمة غنية بالزخارف ، مبنية كلها من الحجر ، وقد فرشت أرضها بالرخام المنقوش . وقد رأيت فيها ، على الطارم ، وهـو مكان العبـادة عنـد النصارى ، بابا من الحديد المشبك لم أر مثله في أى مكان .

ومن آمد الى حران طريقان ، أحدهما لا عمران فيـه وهو أربعون فرسخا ، والثاني به أماكن معمـورة وقـرى كثيرة معظم أهلها من النصارى وهو سـتون فرسخا ، وقد سرنا مع القافلة في هذا الطريق ، وكانت الصحراء غاية في الاستواء ، الا أن بها أحجـارا كثيرة بحيث لا تسـتطيع الدواب أن تخطو خطوة واحدة من غير ان تعثر بحجر تحت حوافرها . وقد بلغنا حران يوم الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الآخر سنة ٤٣٨ (٢٨ ديسمبر ١٠٤٦) ، الموافق اثنين وعشرين من شهر دى القديم ، وكان هواؤها في ذلك الوقت كهواء خراسان أيام النوروز .

وسرنا من هنـاك فبلغنا مدينـة تسـمى قرول حيث أضافنا رجل كريم في بيته . وهناك دخل أعرابى فى الستين من عمره فاقترب منى وقال : حفظنى القرآن فلقنته « قل أعوذ برب الناس » فكان يقرؤها معى ، فلما وصلت الى آية « ما سورة نقالة الحطب » ، ولم يعرف أنه قيـل فى سـورة الناس » ، فقلت هـذه السـورة ليست قبـل تلك فقال : « ما سورة نقالة الحطب » ، ولم يعرف انه قيل فى سـورة « تبت » حمالة الحطب لا نقالة الحطب . ولم يستطع هـذا الأعرابى المشرف عـلى الستين ، فى تلك الليلة ، أن يحفظ سورة « قل أعوذ » ، مع تكرارى لها معه .

وفى يوم السبت الثانى من رجب سنة ٤٣٨ (٢ يناير ١٠٤٧) بلغنا مدينة سروج ، واجتزنا الفرات فى اليـوم

التالى ونزلنا فى منبج ، وهى أول مدن الشام ، وكان هذا أول بهمن القديم (يناير — فبراير) ، الطقس هناك معتدل جدا . ولم يكن خارج المدينة عمارات قط . وقد سرت منها الى حلب ، ومن ميافارقين اليها (الى حلب) مائة فرسخ .

ورأيت مدينة حلب فاذا هى جميلة ، بها سور عظيم ، قست ارتفاعه فكان خمسا وعشرين ذراعا ، وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخر ، ويمكن مقارنة حلب ببلخ وهى مدينة عامرة ، أبنيتها متلاصقة . وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ، ويذهب اليها التجار من جميع هذه البلاد . ولها اربعة أبواب ، باب اليهود وباب الله وباب الجنان وباب انطاكية . والوزن فى سوقها بالرطل الظاهرى وهو اربعمائة وثمانون درهما(١) ، وتقع مدينة حما جنوبى حلب بعشرين فرسخا ، ومن بعدها حمص ، ومن حلب الى دمشق خمسون فرسخا ، والى أنطاكية اثنا عشر فرسخا ، والى طرابلس كذلك ، ويقال ان من حلب حتى القسطنطينية مائتى فرسخ .

وفى الحادى عشر من رجب سنة ٤٣٨ (١١ يناير ١٠٤٧) خرجنا من حلب ، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ منها قرية تسمى جند قنسرين ، وفى اليوم التالى سرنا سته فراسخ وبلغنا مدينة سرمين ، التى لا سور لها . وبعد مسيرة سته فراسخ أخرى بلغنا معرة النعمان ، وهى مدينة عامرة ولها سور مبنى . وقد رأيت على بابها عمودا من الحجر ، عليه كتابة غير عربية فسألت ما هذا ؟ فقيل انه طلسم العقرب ، حتى لا يكون فى هذه المدينة عقرب أبدا ، ولا يأتى اليها ، واذا أحضر من الخارج وأطلق بها فانه يهرب ولا يدخلها . وقد قست هذا العمود فكان ارتفاعه عشر آذرع (٢) .

---

(١) هو الرطل الذى اعتمد فى مصر أيام الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ — ٤٢٧/ ١٠٢٠ — ١٠٣٥) .

(٢) جاء ذكر هذا الطلسم فى كتاب خوان الاخوان لناصر خسرو ، ص ١١٩ — ١٢٠ ، نشر يحيى الخشاب . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى ١٩٤٠ .

ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران • وقد بنى مسجد الجمعة على مرتفع وسط المدينة بحيث يصعدون اليه من أى جانب يريدون وذلك على ثلاث عشرة درجة • وزراعة السكان كلها قمح وهو كثير ، وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق واللوز والعنب • ومياه المدينة من المطر والآبار •

وكان بهذه المدينة رجل أعمى اسمه أبو العلاء المعرى • وهو حاكمها • وكان واسع الثراء عنده كثير من العبيد ، وكأن أهل البلد كله خدم له • أما هو فقد تزهد ، فلبس الكليم ، واعتكف فى البيت ، وكان قوته نصف منّ من خبز الشعير ، لا يأكل غيره • وقد سمعت أن باب سرايه مفتوح دائما وأن نوابه وملازميه يدبرون امر المدينة ولا يرجعون اليه الا فى الأمور الهامة ، وهو لا يمنع نعمته احدا ، يصوم الدهر ويقوم الليل ولا يشغل نفسه مطلقا بأمر دنيوى • وقد سما المعرى فى الشعر والأدب الى حد أن افاضل الشام والمغرب والعراق يقرون بأنه لم يكن من يدانيه فى هذا العصر ولا يكون • وقد وضع كتابا سماه الفصول والغايات، ذكر به كلمات مرموزة وأمثالا فى لفظ فصيح عجيب ، بحيث لا يقف الناس الا على قليل منه ، ولا يفهمه الا من يقرأه عليه • وقد اتهموه « بأنك وضعت هذا الكتاب معارضة للقرآن (١) » • ويجلس حوله ، دائما ، أكثر من مائتى رجل : يحضرون من الأطراف، يقرءون عليه الأدب والشعر • وسمعت أن له أكثر من مائة ألف بيت شعر • ساله رجل : « لم تعط الناس ما أفاء الله تبارك وتعالى عليك من وافر النعم ولا تقوت نفسك ؟ » فاجاب « انى لا املك أكثر مما يقيم أودى » • وكان هذا الرجل حيا وأنا هناك •

---

(١) عن الباخرزى : قيل لأبى العلاء : ما هذا الا جيد الا انه ليس عليه طلاوة القرآن ، فقال حتى تصقله الألسن فى المحاريب اربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون ؟ مجلة المستشرقين الألمانية الجزء ٢٩ ص ٦٤٠ (جولد زيهر ١٨٧٦) •

وفي الخامس عشر من رجب سنة ٤٣٨ (١٥ يناير ١٠٤٧) سرنا الى كويمات ، ومنها الى حما • وهذه مدينة جميلة عامرة على شاطىء نهر العاصي ، ويسمى هذا النهر بالعاصى لأنه يذهب الى بلاد الروم ، فهو يخرج من بلاد الاسلام ليدخل بلاد الكفر • وقد نصبوا عليه سواقى كثيرة • ومن حما طريقان ، أحدهما بجانب الساحل وذلك غرب الشام ، والآخر في الجنوب وهو ينتهي الى دمشق ، فسرنا عن طريق الساحل • وقد رأينا في الجبل عينا ، قيل ان ماءها يتفجر في الثلاثة أيام التالية لنصف شعبان من كل سنة ثم ينضب فلا تخرج منه قطرة واحدة حتى السنه التالية • ويذهب الكثيرون لزيارة هذه العين تقربا الى الله سبحانه وتعالى ، وقد بنيت هناك عمارات وأحواض (١) • ولما سرنا من هناك بلغنا سهلا كساه النرجس ثوبا أبيض • وذهبنا بعد ذلك الى مدينة تسمى عرقة • وبعد مسيرة فرسخين منها بلغنا شاطىء البحر فتبعناه ، ناحية الجنوب ، حتى بلغنا مدينة طرابلس بعد مسيرة خمسة فراسخ •

ومن حلب الى طرابلس أربعون فرسخا عن هذا الطريق • وكان بلوغنا اياها في يوم السبت الخامس من شعبان (٦ فبراير) • وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج والموز والليمون والتمر ، وكان عسل السكر يجمع حينئذاك • ومدينة

---

(١) يشير الى العين التى ذكرها يوسف والتى زارها Titus في رحلته من عرقة الى بارين ، ويقول يوسف ان العين تجمد يوم السبت ، وعند المسلمين انها تجمد يوم الجمعة •

ويقول القس صامويل ليد في كتابه : The Ansaryeh and Ismaeleya, a visit to the secret sects of Northern Syria ص ٢٥٠ : ان هذه العين تخرج من تحت صخر ، وانها تنفجر في فترات غير منتظمة ، ولكنها تكثر في الصيف وتقل في الشتاء • وينفجر الماء أحيانا بقوة عظيمة بحيث يقتلع ما في طريقه من أشجار ، والعين التى تسمى فوارة الدير لا تزال حتى اليوم مقصد الحجاج من النصارى والمسلمين •

والعمارات التى يشير اليها ناصر خسرو هي دير مار جرجس ، الذى كان يسكنه القسس الاغريق •

وقد وصفها Burckrdt في رحلته الى الشام والأراضى المقدسة • راجع شيفر ص ٣٨ •

طرابلس مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر ، فاذا ماج علت أمواجه السور ، اما الجانب المطل على اليابس فبه خندق عظيم عليه باب حديدى محكم . وفى الجانب الشرقى من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه ، وعلى قمتها عرادات لوقايتها من الروم ، فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن . ومساحة المدينة ألف ذراع مربع . وأربطتها أربع أو خمس طبقات ، ومنها ما هو ست طبقات ايضا . وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن ان كل سوق قصر مزين . وقد رأيت بطرابلس ما رأيت فى بلاد العجم من الأطعمة والفواكه ، بل أحسن منه مائة مرة . وفى وسط المدينة جامع عظيم ، نظيف ، جميل النقش حصين ، وفى ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام فى وسطه فوارة من النحاس الأصفر .

وفى السوق مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير ، يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقية على الأرض ويصرف فى البحر . ويقال ان بها عشرين ألف رجل ، ويتبعها كثير من السواد والقرى ، ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندى بل أحسن منه . وهى تابعة لسلطان مصر . قيل وسبب ذلك أنه فى زمن ما اغار عليها جيش الروم الكفار فحاربه جند سلطان مصر وقهروه ، فرفع السلطان الخراج عنها ، وأقام بها جيشا من قبله ، على راسه قائد ، لحمايتها من العدو .

وتحصل المكوس بهذه المدينة ، فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان ، فيدفع منه أرزاق الجند . وللسلطان بها سفن تسافر الى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة .

وسكان طرابلس كلهم شيعة . وقد شيد الشيعة مساجد جميلة فى كل البلاد . وهناك بيوت على مثال الأربطة ،

ولكن لا يسكنها أحد ، وتسمى مشاهد • ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبدا ، عدا مشهدين أو ثلاثة من التى مر ذكرها •

وغادرت طرابلس وسرت على شاطىء البحر ، ناحية الجنوب ، فرأيت على مسافة فرسخ واحد قلعة تسمى قلمون، فى داخلها عين ماء • وسرت من هناك الى طرابزن ، ومن طرابلس اليها خمسة فراسخ • ومنها بلغنا مدينة جبيل وهى مثلثة ، تطل زاوية منها على البحر • ويحيطها سور حصين شاهق الارتفاع • وحولها النخيل وغيره من اشجار المناطق الحارة ، وقد رأيت فى يد غلام بهما وردة حمراء واخرى بيضاء حديثتى القطف (تازة) ، وكان ذلك فى اليوم الخامس من اسبندارمذ الشهر القديم (فبراير) سنة ٤١٥ من تاريخ العجم •

ومن هناك بلغنا بيروت ، فرأيت بها طاقا حجريا ، شق الطريق فى وسطه ، وقد قدرت ارتفاعه بخمسين ذراعا • وجانباه من الحجر الأبيض ، تزن كل قطعة منه أكثر من ألف من ، وعلى جانبيه بناء من الطوب النيىء ارتفاعه عشرون ذراعا ، وقد نصبت على قمته أعمدة من الرخام ، طول كل منها ثمانية أذرع ، وهى سميكة بحيث لا يستطيع رجلان أن يحيطاها بأذرعهما الا بصعوبة •

وعلى رأس هذه العمد عقود ، على الجانبين ، كلها من الحجر المنحوت الذى لا يفصله عن بعضه جص أو طين • وفى الوسط تماما الطلق الكبير يعلوها بخمسين ذراعا ، وقد قسمت كل حجر منه فاذا به ثمانية أذرع طولا وأربعة عرضا، وأظن الحجر الواحد يزن سبعة آلاف من •

وقد نقشت هذه الحجارة بدقة ومهارة بحيث يقل ما يشابهها مما ينقش على الخشب • ولم يبق هناك أبنية غير هذا الطلق • وقد سألت أى مكان هذا ؟ فقيل لى : سمعنا أنه باب حديقة فرعون وهو قديم جدا • والوادى المجاور

لهذه الناحية مملوء بأعمدة الرخام ، تيجانها وجذوعها ، وهى من الرخام المدور والمربع والمسدس والمثمن ، وهى من الصلابة بحيث لا يؤثر فيها الحديد ، وليس فى هذه الجهة جبل حتى يقال انهم جلبوها منه • وهناك حجارة تبدو كانها معجونة (جرانيت (١)) ، وهى تفل الحديد •

وفى نواحى الشام أكثر من خمسمائة ألف من أعمدة وتيجان وجذوع ، ولا يعرف أحد ماذا كانت ولا من اين نقلت •

ثم توجهنا الى مدينة صيدا ، وهى على شاطىء البحر أيضا ، يزرع بها قصب السكر بوفرة • وبها قلعة حجرية محكمة ، ولها ثلاث بوابات • وفيها مسجد جمعة جميل يبعث فى النفس هيبة تامة ، وقد فرش كله بالحصير المنقوش ، وفى صيدا سوق جميل نظيف ، وقد ظننت ، حين رايته ، انه زين خاصة لمقدم السلطان أو لأن بشرى سعيدة اذيعت ، فلما سألت قيل لى هكذا عادة هذه المدينة دائما ، وفيها حدائق واشجار منسقة حتى لتقول ان سلطانا هاويا غرسها وفى كل من هذه الحدائق كشك ، وأغلب شجرها مثمر •

وبعد مسيرة خمسة فراسخ على شاطىء البحر بلغنا مدينة صور ، وهى ساحلية ايضا • وقد بنيت على صخرة امتدت فى الماء ، بحيث أن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد على مائة ذراع ، والباقى فى ماء البحر •

والقلعة مبنية بالحجر المنحوت الذى سدت فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلله • وقد قدرت المدينة بالف ذراع مربع • وأربطتها من خمس أو ست طبقات ، وكلها متلاصقة ، وفى كثير منها نافورات ، وأسواقها جميله كثيرة الخيرات • وتعرف مدينة صور ، بين مدن ساحل الشام ، بالثراء ، ومعظم سكانها شيعة • والقاضى هناك رجل سنى اسمه ابن أبى عقيل ، وهو رجل طيب ثرى • وقد بنى على

(١) يسميه الكتاب العرب المانع • شيفر ص ٤٥ •

باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريات المذهبة والمفضضة وصور مشيدة على مرتفع ، وتأتيها المياه من الجبل ٠

وقد شيد ، على بابها ، عقود حجرية ، يمر الماء من فوقها الى المدينة ، وفى الجبل واد مقابل لها ، اذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخا ناحية المشرق بلغ دمشق ٠

بعد آن سرنا سبعة فراسخ من صور، بلغنا عكا، وتكتب هناك « مدينة عكة » ٠ وهى مشيدة على مرتفع بعضه من أرض وعرة وبعضه سهل ، ولم تشيد المدينة فى الوادى المنخفض مخافة غلبة ماء البحر عليها ، وخشية امواجه التى تعج على الساحل ٠ ومسجد الجمعة وسط المدينة ، وهو اعلى مبانيها ، وأعمدتها كلها من الرخام ٠

ويقع قبر صالح النبى عليه السلام خارجه ، على يمين القبلة ٠ وساحته بعضها من الحجر وبعضها الآخر مزروع ، ويقال ان آدم عليه السلام كان يزرع هناك ٠ ومسحت المدينة فكان طولها آلفى ذراع وعرضها خمسمائة ، وبها قلعة غاية فى الاحكام ، يطل جانباها الغربى والجنوبى على البحر ، وعلى الأخير ميناء ، ومعظم مدن الساحل كذلك ٠

والميناء اسم يطلق على الجهة التى بنيت للمحافظة على السفن ، وهى تشبه « الاسطبل » ، وظهرها ناحية المدينة ٠ وحائطاها داخلتان فى البحر ، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعا ، وقد شدت السلاسل بين الحائطين ، فاذا أريد ادخال سفينة الى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص فى الماء فتمر السفينة فوقها ، ثم تشد حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء ٠

وعند الباب الشرقى ، على اليد اليسرى ، عين يصلون الى مائها بنزول ست وعشرين درجة وتسمى عين البقر ٠ ويقال ان آدم عليه السلام هو الذى كشفها ، وكان يسمى

منها بقرته ، ولذا سميت عين البقر (١) ٠

وحين يذهب المسافر من عكة ناحية المشرق ، يجد جبلا به مشاهد الأنبياء عليهم السلام، وهذا الجبل واقع على جانب الطريق المؤدى الى الرملة ٠ وقد عزمت على التبرك بزيارة هذه المشاهد والتقرب الى الله تبارك وتعالى ٠

وقد قال سكان عكا ان في الطريق أشرارا يتعرضون لمن يرون من الغرباء وينهبونهم ، فأودعت نفقتي بمسجدها وخرجت من بابها الشرقي يوم السبت الثالث والعشرين من شعبان سنة ٤٣٨ (٥ مارس ١٠٤٧) ٠

وقد زرت ، في اليوم الأول ، قبر عك باني المدينة ، وهو أحد الصالحين الأولياء ٠ وكنت حائرا اذ لم يكن معي دليل يرشدني ، وفجأة تعرفت ، في اليوم نفسه ، بفضل من الله تبارك وتعالى ، برجل من العجم آتى من آذربيجان للتبرك بزيارة المشاهد مرة أخرى ، فشكرت الله تبارك وتعالى هبته ، وصليت ركعتين ، وسجدت له شكرا على توفيقه اياى لأفي بعزمي ٠ ثم بلغت قرية تسمى بروة وزرت قبر عيش وشمعون عليهما السلام ٠

ومن هناك بلغت مغارك التي تسمى دامون فزرت المشهد المعروف بقبر ذى الكفل عليه السلام (٢) ٠ ثم واصلت السير الى قرية أخرى تسمى أعبلين وبها قبر هود عليه السلام فزرته وكان بحظيرته شجرة الخرتوت ، وكذلك زرت هناك قبر النبي عزيز عليه السلام ٠

ثم يممت وجهي شطر الجنوب فبلغت قرية تسمى حظيرة ، وفي الجانب الغربي منها واد به عين ماء عذب ، تخرج من الصخر ، وقد بني أمامها مسجد على الصخر به

---

(١) كانت مكانا مقدسا عند المسلمين والنصارى واليهود ٠ وقد بنى المسلمون عندها جامعا باسم علي ابن أبى طالب ٠ وقد تكلم عنها ابن جبير ص ٣٠٧ ، وياقوت ج ٣ ص ٧٥٨ ـ ٧٥٩ والقزويني في عجائب المخلوقات ص ١٩٠ ٠ وراجع شيفر ص ٥٠ ٠

(٢) ابن أيوب ٠ قصص الأنبياء لابن اسحق أحمد ص ١٢٩ ـ ١٣٠ طبعة مصر ٠

بيتان صخريان فوقهما سقف من الحجر أيضا ، وعليهما باب صغير يستطيع الزائر دخوله بصعوبة ، وهناك قبران متجاوران أحدهما شعيب عليه السلام والثانى قبر ابنته التى كانت زوج موسى عليه السلام ٠

ويعنى أهل هذه القرية بهذا المسجد عناية فائقة من تنظيف وانارة وغير ذلك ٠ ومن هناك بلغت قرية تسمى اربل ، فى ناحية القبلة منها جبل فى وسطه حظيرة بها اربعه قبور لأربعة من أبناء يعقوب ، واخوة يوسف عليهم السلام وذهبت من هناك فرأيت تلا من تحته غار فيه قبر ام موسى عليه السلام فزرته ٠

ثم خرجت فبدا لى واد فى آخره بحر صغير ، طوله سته فراسخ وعرضه ثلاثة وماؤه عذب لذيذ ٠ وتقع غربية مدينة طبرية ٠ وتصرف فى هذا البحر كل مياه الحمامات وفضلات المدينة وكذلك يشرب منه سكانها وسكان الولاية التى على شاطئه ٠ وسمعت أن أميرا دخل هذه المدينة ذات مرة فامر بسد قنوات القاذورات والماء الملوث حتى لا تفضى الى البحر، فنتن ماؤه وأصبح لا يصلح للشرب ، فامر ثانية بفتح هده القنوات فعاد ماء البحر عذبا ٠

ولطبرية سور حصين ، يبدأ من شاطىء البحر ويمتد حول المدينة والطرف المحدود بالبحر لا حائط له ٠ وبها مبان كثيرة فى وسط البحر فان قاعه صخرى ، وقد شيدت هناك مناظر على رءوس أعمدة رخامية أساسها فى الماء ٠ وفى بحر طبرية سمك كثير ٠ ومسجد الجمعة فى وسط المدينة ، وعند بابه عين ماء ، بنى عند رأسها حمام ماؤه ساخن فلا يستطيع مستحم أن يصبه على جسده من غير أن يمزجه بماء بارد ، ويقال ان الذى بناه هو سليمان بن داود عليه السلام ٠ وقد دخلته ٠

وفى الجانب الغربى من مدينة طبرية مسجد اسمه مسجد الياسمين ، وهو مسجد جميل فى وسطه ساحة كبيرة بها محاريب ، وحولها الياسمين الذى سمى به المسجد ، وفى

رواق بالجانب الشرقي قبر يوشع بن نون ، وتحت هذه الساحة قبور سبعين نبيا عليهم السلام ، قتلهم بنو اسرائيل. وجنوب طبرية بحر لوط وهو مالح المياه ويصب به ماء بحر طبرية . وكانت مدينة لوط تقع على شاطئه ، ولم يبق منها اثر قط . وسمعت من انسان أن في بحر لوط شيئا كالحجاره السوداء ، غير صلب ، يشبه البقر ، يخرج من قاعه فياخذه السكان ويقطعونه ويحملونه الى المدن والولايات .

ويقال انه اذا وضعت قطعة منه تحت شجرة يمتنع الدود عنها من غير أن يمس جذعها أذى منه، فلا يتلف الشجر مما تحت الأرض من دود وحشرات ، والعهدة على الراوى . وقيل كذلك ان العطارين يستخدمونه لأنه يبعد دودة نصيب البذور اسمها النقرة . وفى طبرية يصنعون الحصير ، ومنه حصير الصلاة ، وتشتري الواحدة منها بخمسة جنيهات مغربية . وفى الجانب الغربى من المدينة جبل فيه قطعه من حجر المرمر مكتوب عليها بخط عبرى أن الثريا كانت على راس الحمل ساعة الكتابة .

ويقع قبر أبى هريرة خارج المدينة ناحية القبله ، ذهب احد للزيارة تجمع عليه الأطفال وتحرشوا به وحملوا ولكن لا يستطيع أحد زيارته ، لأن السكان هناك شيعة ، فاذا ذهب أحد للزيارة تجمع عليه الأطفال وتحرشوا به وحملوا عليه وقذفوه بالحجارة ، ولهذا لم أستطع زيارته . سرت بعد ذلك الى قرية تسمى كفر كنه ، بجانبها تل بنيت على قمته صومعة جميلة بها قبر النبى يونس عليه السلام ، وعليها باب متين بقربه بئر ماؤها عذب .

وقد عدت الى عكا بعد زيارة هذا المشهد، وبينهما مسافة أربعة فراسخ ، فمكثت بها يوما واحدا ثم غادرتها الى قرية تسمى حيفا ، فى طريق به كثير من هذا الرمل الذى يستخدمه صياغ العجم والمسمى بالرمل المكى . وحيفا مشيدة على البحر ، وبها نخل وأشجار كثيرة . وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودى .

وسرنا بعد ذلك فبلغنا ، بعد مسيرة فرسخ واحد ، قرية أخرى تسمى كنيسة ، وعندها ينحرف الطريق عن البحر ، ويدخل الجبل ، ناحية المشرق ، حيث الصحراوات والمحاجر التي تسمى وادى التماسيح ، ويعود لمحاذاة الشاطىء بعد مسيرة فرسخين . وهناك رأينا عظام حيوانات بحرية كثيرة مختلطة بالتراب والطين ، وقد تحجرت من كثرة ما ثار عليها من الموج .

وقمنا من هناك وسرنا حتى بلغنا مدينة تسمى قيسارية ، بينها وبين عكا سبعة فراسخ . وهى مدينة جميلة بها ماء جار ونخيل وأشجار النارنج والترنج ، ولها سور حصين له باب حديدى ، وبها عيون ماء جارية . ومسجدها الجامع جميل ، ويرى المصلون البحر ويتمتعون به وهم جلوس فى ساحته ، وهناك زير من الرخام يشبه الخزف الصينى وهو عميق بحيث يسع مائة من ماء .

فى يوم السبت آخر شعبان (١٠ مارس) قمنا من هناك ، وسرنا مقدار فرسخ ، عن طريق الرمل الملحى ، وقد رأيت فى الطريق كله ، سهلا وجبله ، كثيرا من شجر التين والزيتون وبعد بضعة فراسخ بلغنا مدينة تسمى كفر سابا أو كفر سلام ، ومنها حتى الرملة ثلاثة فراسخ ، فى طريق كله شجر كالذى ذكرت .

وفى يوم الأحد غرة رمضان (١١ مارس) بلغنا الرملة، ومن قيسارية اليها ثمانية فراسخ . وهى مدينة كبيرة بها سور حصين من الحجر والجص ، مرتفع ومتين وعليه أبواب من حديد . ومن المدينة الى شاطىء البحر ثلاثة فراسخ . والماء هناك من المطر ، ولذا فقد بنى فى كل منزل حوض لجمع مياه المطر فيبقى ذخيرة دائمة .

وفى وسط مسجد الجمعة أحواض تمتلىء بالماء فياخذ منه من يشاء . ومساحة الجامع ثلاثمائة قدم فى مائتين . وقد كتب امام الصفة انه فى الخامس عشر من شهر محرم

سنة ٤٢٥ (١١ ديسمبر ١٠٣٣) زلزلت الارض بشدة هنا فخربت عمارات كثيرة ، ولم يصب أحد من السكان بسوء ٠ وفى هــذه المدينة رخام كثير ٠ وقد زينت معظم السرايات والبيوت بالرخام المنقوش الكثير الزينة ٠ ويقطع الرخام بمنشار لا أسنان له وبالرمل المكى ٠ ويعملون المنشار على أعمدة الرخام بالطول لا بالعرض فيخرجون منــه ألــواحا كألواح الخشب ٠

ورأيت هناك أنواعا وألوانا من الرخام ، من الملمــع والأخضر والأحمر الأســود والأبيض ومن كل لون ٠ وفى الرملة صنف من التين ليس أحسن منه فى آى مكان يصــدر منها الى جميع البــلاد ٠ تسمى مدينـــة الرملة فى الشــام والمغرب وفلسطين ٠

فى الثالث من رمضان غادرت الرملة فبلغت قرية تسمى خاتون (١) ، وقد سرت منها الى قرية اخــرى تســمى قرية العنب ٠ وقد رأينا فى الطريق كثيرا من نبات السذاب الذى ينبت بريا على الجبال وفى الصحراء ٠

وقد رأيت فى هــذه القرية عين ماء عذب تخــرج من الصخر ، وقد بنيت هناك أحواض وعمارات ٠ وقد ذهبنــا صاعدين وكنا نحسب آنا بعد صعود الجبل سنهبط الى المدينة فى الطرف الآخر ، ولكننا وجدنا أمامنا بعد أن صعدنا قليلا ، سهلا واسعا بعضه صخرى وبعضه كثير التراب ، وعلى راس جبل فيه تقع مدينة بيت المقدس ٠ ومن طرابلس ، التى هى على الساحل ، اليها ستة وخمسون فرسخا ، ومن بلخ اليهــا ستة وسبعون وثمانمائة فرسخ ٠

فى الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ (١٦ مارس ١٠٤٧) بلغنا بيت المقدس ٠ وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية ، وطوال رحلتنا لم نقر فى مكان قط ولا وجدنا

---

(١) قريه لطرون أو بطرون (شيفر ٦٥) ٠

راحة كاملة . وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس «القدس» . ويذهب الى القدس فى موسم الحج من لا يستطيع الذهاب الى مكة من أهل هذه الولايات ، فيتوجه الى الموقف ويضحى ضحية العيد كما هى العادة . ويحضر هناك لتأدية السنة ، فى بعض السنين ، أكثر من عشرين ألف شخص ، فى أوائل ذى الحجة ، ومعهم أبناؤهم .

كذلك يأتى لزيارة بيت المقدس ، من ديار الروم ، كثير من النصارى واليهود ، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش هناك . وهناك كنيسة عظيمة سيأتى وصفها فى مكانه . وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها ، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء ، والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من من زيت الزيتون ، يحفظونها فى الأبار والأحواض ، ويصدرونها الى أطراف العالم . ويقال انه لا يحدث قحط فى بلاد الشام .

وسمعت من ثقات أن وليا رأى النبى عليه السلام فى المنام فقال له « ساعدنا فى معاشنا يا رسول الله » ، فأجابه النبى عليه السلام : « على خبز الشام وزيته » .

والآن أصف مدينة بيت المقدس .

وصف بيت المقدس :

هى مدينة مشيدة على قمة الجبل ، ليس بها ماء غير الأمطار ورساتيقها ذات عيون وأما المدينة فليس بها عين فانها على رأس صخر . وهى مدينة كبيرة كان بها ، فى ذلك الوقت ، عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة ، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات ، وجعلوها مسطحة . بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار .

وفى المدينة صناع كثيرون ، لكل جماعة منهم سوق

خاصة ، والجامع شرقى المدينة وسوره هو سورها الشرقى • وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى « الساهرة » يقال انه سيكون ساحة القيامة والحشر ، ولهذا يحضر اليه خلق كثيرون من أطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا فاذا جاء وعد الله كانو ابأرض الميعاد • اللهم عفوك ورحمتك بعبيدك ذلك اليوم يارب العالمين •

وعلى حافة هذا السهل قرافة عظيمة ، ومقابر كثير من الصالحين ، يصلى بها الناس ويرفعون بالدعاء أيديهم فيقضى الله حاجاتهم ، اللهم تقبل حاجاتنا واغفر ذنوبنا وسيئاتنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين • وبين الجامع وسهل الساهرة واد عظيم الانخفاض كأنه خندق وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين •

ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر اعجب منها، حتى ان الناظر اليها ليسال نفسه كيف رفعت فى مكانها ؟ ويقول العامة انها بيت فرعون • واسم هذا الوادى « وادى جهنم » وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل ان عمر رضى الله عنه انزل جيشه أيام خلافته فى سهل الساهرة هذا ، فلما رأى الوادى قال هذا وادى جهنم ويقول العوام ان من يذهب الى نهايته يسمع صياح اهل جهنم ، فان الصدى يرتفع من هناك ، وقد ذهبت فلم اسمع شيئا • وحين يسير السائر من المدينة ، جنوبا ، مسافة نصف فرسخ ، وينزل المنحدر ، يجد عين ماء تنبع من الصخر ، تسمى عين سلوان •

قد اقيمت عندها عمارات كثيرة • ويمر ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين • ويقال ان من يستحم من ماء هذه العين يشفى مما ألم به من الأوصاب والأمراض المزمنة • وقد وقفوا عليها مالا كثيرا • وفى بيت المقدس مستشفى عظيم عليه اوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف •

وهذا المستشفى ومسجد الجمعة يقعان على حافة وادى جهنم · وحين ينظر السائر من خارج المسجد يرى الحائط المطل على هذا الوادى يرتفع مائة ذراع من الحجر الكبير الذى لا يفصله عن بعضه ملاط أو جص · والحوائط ، داخل المسجد ، ذات ارتفاع مستو ·

وقد بنى المسجد فى هذا المكان لوجود « الصخرة » به وهى الصخرة التى أمر الله عز وجل موسى عليه السلام ان يتخذها قبلة · فلما قضى هذا الأمر ، واتخذها موسى قبلة له ، لم يعمر كثيرا ، بل عجلت به المنية ، حتى اذا كانت أيام سليمان عليه السلام ، وكانت الصخرة قبلة بنى مسجدا حولها بحيث أصبحت فى وسطه وظلت الصخرة قبلة حتى عهد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام فكان المصلون يولون وجوههم شطرها ، الى أن أمرهم الله تعالى ان يولوا وجوههم شطر الكعبة وسيأتى وصف ذلك فى مكانه ·

وقد أردت أن أقيس هذا المسجد ، ولكنى آثرت أن أتقن معرفة هياته ووضعه اولا ثم أقيسه ، فلبثت فيه زمنا أمعن النظر ، فرأيت عند الجانب الشمالى ، بجوار قبة يعقوب عليه السلام طاقا مكتوبا على حجر منه ان طول هذا المسجد اربع وخمسون وسبعمائة ذراع وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع ، وذلك « بذراع الملك » ، المسمى فى خراسان «كزشايكان» وهو أقل قليلا من ذراع ونصف(١) ·

---

(١) يقول شيفر (ص ٧٢) ان قنصل فرنسا فى القدس أرسل اليه حوالى سنة ١٨٨١ النص المكتوب على الجامع وهو : بسم الله الرحمن الرحيم ·

طول المسجد سبع مائة واربع وخمسون ذراعا وعرضه أربع مائة وخمس وخمسون ذراعا بذراع الملك وهناك اختلاف بين ما جاء فى النص الفارسى وبين ما ذكره القنصل · على ان النص الفارسى المطبوع فى برلين والذى اتخذ نسخه شيفر الملحقة بترجمته أصلا قد سقط منه سهوا كلمة جهار (جهار صد) فى ذكر عرض المسجد · راجع النص الفارسى فى كتاب شيفر ص ٢٢ ، ولعل الفرق بين النصين ، فى طول المسجد ، نتج عن اسقاط النساخ لكلمة پنجاه ، فى پنجاه وجهار ، وهذا ما نرجحه ، وصححنا الترجمة على أساسه ، وبه يرتفع الخلاف ·

وأرض المسجد مغطاة بحجارة موثوقة الى بعضها بالرصاص ، والمسجد شرقي المدينة والسوق ، فاذا دخله السائر من السوق فانه يتجه شرقا ، فيرى رواقا عظيما جميلا ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون وللرواق جناحان وواجهتاهما وايوانه منقوشة كلها بالفسيفساء المثبتة بالجص على الصورة التي يريدونها وهي من الدقة بحيث تبهر النظر ٠

ويرى على هذا الرواق كتابة منقوشة بالمينا ، وقد كتب هناك لقب سلطان مصر ، فحين تقع الشمس على هذه النقوش يكون لها من الشعاع ما يحير الألباب ٠ وفوق الرواق قبه كبيرة من الحجر المصقول ، وله بابان مزخرفان وواجهتاهما من النحاس الدمشقي الذى يلمع حتى لتظن أنهما طليا بالذهب ، وقد طعما بالذهب وحليا بالنقوش الكثيرة وطول كل منهما خمس عشرة ذراعا وعرضه ثمان ويسميان باب داود عليه السلام ٠وحين يجتاز السائر هذا الباب ، يجد على اليمين رواقين كبيرين في كل منهما تسعة وعشرون عمودا من الرخام ، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون ووصلاتها مثبتة بالرصاص ٠

وعلى تيجان الأعمدة طيقان حجرية وهي مقامة فوق بعضها بغير ملاط وجص ولا يزيد عدد حجارة الطاق منها على أربع أو خمس قطع ، وهذان الرواقان ممتدان الى المقصورة ٠ ثم يجد على اليسار وهو ناحية الشمال ، رواقا طويلا به أربعة وستون طاقا كلها على تيجان أعمدة من رخام ، وعلى هذا الحائط نفسه باب آخر اسمه « باب السقر » ؟ ٠

وطول المسجد من الشمال الى الجنوب ٠ وهو ساحة مربعة اذا اقتطعت المقصورة منه ٠ والقبلة في الجنوب ٠

وعلى الجانب الشمالى بابان آخــران متجــاوران عرض كل منهما سبع أذرع وارتفاعه اثنتا عشرة ذراعا ، ويســميان « باب الأسباط » • فاذا اجتازه السائر ، وذهب مع عرض المسجد الذى هو جهة المشرق ، يجــد رواقا عظيما كبيرا به ثلاثة أبواب متجاورة • فى حجم « باب الأسباط » ، وكلهــا مزينة بزخارف من الحديد والنحاس ، قل ما هو أجمل منهــا تسمى «باب الأبواب» لأن للمواضع الأخرى بابين وله ثلاثة •

وبين هذين الرواقين الواقعين على الجانب الشمالى ، فى الرواق ذى الطيقان المحملة على أعمدة الرخام ، قبة رفعت على دعائم عالية ، وزينت بالقناديل والمسارج ، تسمى قبــة يعقوب عليه السلام ، لأنه كان يصــلى هنــاك • وفى عرض المسجد رواق فى حائطه باب خارجه صومعتان للصــوفية • وهناك مصليات ومحــاريب جميلة يقيم بها جمــاعة منهــم ويصلون ولا يذهبون للجامع الا يوم الجمعة لأنهم لا يسمعون التكبير حيث يقيمون (١) •

وعند الركن الشمالى للمسجد رواق جميل ، وقبة جميلة لطيفة مكتوب عليها : « هــذا محــراب زكريا النبى عليــه السلام » ، ويقال انه كان يصلى هناك دائما • وعند الحائط الشرقى ، وسط الجامع ، رواق عظيم الزخرف من الحجــر المصقول ، حتى لتظن انه نحت من قطعة واحدة ، ارتفــاعه خمسون ذراعا وعرضه ثلاثــون ، عليــه نقوش ونقر ، وله بابان جميلان لا يفصلهما أكثر من قدم واحــدة ، وعليهما زخارف كثيرة من الحديد والنحاس الدمشقى وقد دق عليهما الحلق والمسامير • ويقال ان سليمان بن داود عليه الســلام بنى هذا الرواق لأبيه •

---

(١) ترجح انها : « نرسد » ، اى لا يصل • راجع تعليقات غنى زاده ص ٣٣ ، (١١) طبعة برلين •

وحين يدخل السائر هذا الرواق متجها ناحية الشرق ، فالأيمن من هذين البابين هو « باب الرحمة » والأيسر « باب التوبة » ، ويقال ان هذا الباب هو الذى قبل الله تعالى عنده توبة داود عليه السلام . وعلى هذا الرواق مسجد جميل كان فى وقت ما دهليزا فصيروه جامعا وزينوه بانواع السجاد ، وله خدم مخصوصون ، ويذهب اليه كثير من الناس ، ويصلون فيه ويدعون الله تبارك وتعالى ، فانه فى هذا المكان قبل توبة داود ، وكل انسان هنـاك يامل فى التـوبة والرجـوع عن المعاصى .

ويقال ان داود عليه السلام لم يكد يطا عتبـة هـذا المسجد ، حتى بشره الوحى بأن الله سبحانه وتعـالى قد قبـل توبته ، فاتخذ هذا المكان مقاما وانصرف الى العبادة . وقد صليت ، أنا ناصر ، فى هـذا المقـام ، ودعوت الله تعالى ان يوفقنى لطاعته ، وان يغفر ذنبى . الله سبحانه وتعالى يهدى عباده جميعا لما يرضاه ، ويغفر لهم ذنوبهم ، بحق محمد وآله الطاهرين .

وحين يمضى السائر بحذاء الجدار الشرقى الى ان يبلغ الزاوية الجنوبية ، عند القبلة التى تقع على السطح الجنوبى ، يجد ، امام الحائط الشمالى ، مسجدا بهيئة السرداب ينزل اليه بدرجات كثيرة مساحته عشرون ذراعا فى خمس عشرة ، وسقفه من الحجر مرفوع على اعمدة الرخام . وبهذا السرداب مهد عيسى عليه السلام ، وهو من الحجر ، كبير بحيث يصلى عليه الناس ، وقد صليت هنـاك . وقد أحـكم وضـعه فى الأرض حتى لا يتحرك . وهو المهدى الذى أمضى فيه عيسى طفولته وكلم الناس منه ، وهو فى المسجد مكان المحراب .

وفى الجانب الشرقى من هذا المسجد محراب مريم عليها السلام . وبه محراب آخر لزكريا عليه السلام . وعلى هذين المحرابين آيات القـرآن التى نزلت فى حق زكريا ومريم . ويقال ان عيسى عليه السلام ولد بهذا المسجد . وعلى حجـر

من عمده نقش اصبعين كأن شخصا أمسكه • ويقال ان مريم امسكته باصبعيها وهى تلد •

ويعرف هذا المسجد « بمهد عيسى » عليه السلام • وبه قناديل كثيرة من النحاس والفضة ، توقد كل مساء •

حين يخرج السائر من هذا المسجد ، متبعا الحائط الشرقى ، يجد عندما يبلغ زاوية المسجد الكبير مسجدا اخر عظيما جدا ، اكبر مرتين (١) من مسجد « مهد عيسى » ، يسمى « المسجد الاقصى » وهو الذى أسرى الله عز وجل بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، ليلة المعراج من مكة اليه ، ومنه صعد الى السماء ، كما جاء فى القران :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » (٢) •

وقد بنوا به ابنية غاية فى الزخرف ، وفرش بالسجاد الفاخر ، ويقوم عليه خدم مخصوصون يعملون به دوام •

وحين يعود السائر الى الحائط الجنوبى ، على مائتى ذراع من تلك الزاوية ، يجد سقفا ، وهناك ساحة المسجد ، واما الجزء المسقوف من المسجد الكبير ، والذى به المقصورة ، فيقع عند الحائطين الجنوبى والغربى • وطول هذا الجزء عشرون واربعمائة ذراع وعرضه خمسون ومائة ذراع ، وبه ثمانون ومائتا عمود من الرخام ، على تيجانهما طيقان من الحجارة •

وقد نقشت تيجان الأعمدة وهياكلها ، وثبتت الوصلات فيها بالرصاص فى منتهى الاحكام • وبين كل عمودين ست اذرع مغطاة بالرخام الملون الملبس بشقاق الرصاص • والمقصورة فى وسط الحائط الجنوبى ، وهى كبيرة جدا

---

(١) يعتقد Scheier أنه ينبغى ان يكون النص ده بمعنى عشره بدلا من دو بمعنى اثنين (ص ٧٩) •

(٢) سورة الاسراء آية •

تتسع لستة عشر عمودا ، وعليها قبة عظيمة جدا منقوشة بالميناء على نسق ما وصفت • وهى مفروشة بالحصير المغربى ، وبها قناديل ومسارج معلقة بالسلاسل ومتباعدة بعضها عن بعض • وبها محراب كبير منقوش بالمينا ، وعلى جانبيه عمودان من الرخام لونهما كالعقيق الأحمر ، وازار المقصورة كله من الرخام الملون •

وعلى يمينه محراب معاوية ، وعلى يساره محراب عمر رضى الله عنه ، وسقف هذا المسجد مغطى بالخشب المنقوش المحلى بالزخارف • وعلى باب المقصورة وحائطها المطلان على الساحة خمسة عشر رواقا ، عليها أبواب مزخرفة ارتفاع كل منها عشرة أذرع وعرضه ست • عشرة من هذه الأبواب تفتح على الجدار الذى طوله عشرون وأربعمائة ذراع ، وخمسة منها على الجدار الذى طوله خمسون ومائة ذراع •

وقد زين باب منها غاية الزينة ، وهو من الحسن بحيث تظن أنه من ذهب ، وقد نقش بالفضة وكتب عليه اسم الخليفة المأمون ، ويقال انه هو الذى أرسله من بغداد (١) • وحين تفتح الأبواب كلها ينير المسجد حتى لتظن أنه ساحة مكشوفة ، أما حين تعصف الريح وتمطر السماء وتغلق الأبواب ، فان النور ينبعث للمسجد من الكوات • وعلى الجوانب الأربعة من الحرم المسقوف صناديق من مدن الشام والعراق ، يجلس بجانبها المجاورون ، كما هو الحال فى المسجد الحرام بمكة شرفها الله تعالى •

وخارج هذا الحرم ، عند الحائط الكبير الذى مر ذكره ،

---

(١) يتفق هذا الوصف مع ما ذكره المقدسى (احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٦٨ — ١٦٩) وهو يقول ان الذى بنى هذه الخمسة عشر رواقا هو أبو العباس عبد الله بن طاهر الذى كان يثق به المأمون وولاة مصر والشام ، وقد توفى فى مرو سنة ٢٣٠/٨٤٤ • ويحيل شيفر (ص ٨١) على ابن خلكان (وفيات ص ٣٦٩ — ٣٧١) وعلى مخطوط فى مكتبته فى تاريخ الخلفاء والأمراء والولاة الذين حكموا دمشق لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى (الورقة ٣٧) •

رواق به اثنان وأربعــون طاقا ، وكل اعمدته من الــرخام الملون ، وهذا الرواق متصل بالرواق المغربى .

وتحت الأرض فى الحرم المسقوف حوض جعــل بحيث يكون فى مستوى الأرض حين يغطى . وقد بنى لتجمع فيــه مياه المطر . وعلى الحائط الجنوبى باب يؤدى الى ميضاة ، يذهب اليها من يحتــاج الى الوضــوء فيجــدده ، وذلك لانه لا يلحق الصلاة اذا هو خرج من المسجد ليتوضأ ، اذ ان كبر المسجد يفوت عليه الصــلاة . اذا اجتــازه . وكل الاسقف ملبسة بالرصاص .

وقد حفرت في ارض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة ، فان المسجد مشيد كله على صخرة ، يتجمع فيها ماء المطر ، فلا تضيع منه قطرة ، وينتفع به الناس .

وهناك ميازيب من الرصاص ينزل منها الماء الى احواض حجرية تحتها ، وقد ثقبت هذه الأحواض ليخرج منها المــاء ويصب فى الصهاريج ، بواسطة قنوات بينها ، غير ملوث او عفن . وقد رأيت على ثلاثة فراسخ من المدينة صهريجا كبيرا تنحدر اليه المياه من الجبــل وتتجمع فيــه ، وقد اوصــلوه بقناة الى المسجد ، حيث يوجد أكبر مقدار من مياه المدينة .

وفى المنازل كلها أحواض لجمع ماء المطر ، اذ لا يوجد غيره هناك ، ويجمع كل انسان ما على سطح بيته من مياه ، فان ماء المطر هو الذى يستعمل فى الحمامات وغيرها .

والأحواض التى بالمسجد لا تحتاج الى عمارة أبدا ، لأنها من الحجر الصلب ، فاذا حدث بها شق أو ثقب أحكم اصلاحه حتى لا تتخرب . ويقال ان سليمان عليه السلام هو الذى عمل هذه الأحواض . وقد جعل القسم الأعلى منها على هيئة التنور ، وعلى رأس كل حوض غطاء من حجر حتى لا يسقط فيه شيء . وماء هذه المدينة أعذب وأنقى من إى ماء آخر . والميازيب تستمر فى قطــر الميــاه يومين أو ثلاثة ولو كان

المطر قليلا ، الى ان يصفو الجو وتزول آثاره السيئة . وحينئذ يبدأ المطر !

قلت ان مدينة بيت‌المقدس تقع على قمة جبل وان أرضها غير مستوية . أما المسجد فارضه مستويه ، فخرج المسجد ، حيثما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه ، اذ يكون أساسه في ارض واطئة ، وحيثمان تكون الارض مرتفعة يقصر الجدار .

وفي الجهات الواطئة من أحياء المدينة فتحوا في المسجد أبوابا كانها نقب ، تؤدى لساحته . ومن هذه الابواب باب يسمى « باب النبي » عليه الصلاة والسلام ، وهو بجانب القبلة ، أى في الجنوب ، وقد عمل بحيث يكون عرضه عشرة أذرع وأما ارتفاعه فيتفاوت حسب المكان ، فهو في مكان خمس أذرع ، أى علو سقف هذا الممر ، وفي مكان اخر عشرون . والجزء المسقوف من المسجد الاقصى مشيد فوق هذا الممر وهو محكم بحيث يتحمل أن يقام فوقه بناء بهذه العظمة من غير ان يؤثر فيه قط .

وقد استخدمت في بنائه حجارة لا يصدق العقل كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها ، ويقال ان سليمان ابن داود عليه السلام هو الذى بناه . وقد دخل منه نبينا عليه الصلوات والسلام الى المسجد ليلة المعراج . وهذا الباب على جانب طريق مكة .

وعلى الحائط ، بقرب هذا الباب ، نقش لمجن كبير . يقال ان حمزة بن عبد المطلب عم النبي عليه السلام كان جالسا هناك وعلى كتفه المجن وظهره مسند الى الحائط ، وأن هذا نقش مجنه .

وعند بوابة المسجد حيث هذا الممر الذى عليه باب ذو مصراعين ، يبلغ ارتفاع الجدار من الخارج ما يقرب من خمسين ذراعا . وقد قصد بهذا الباب أن يدخل منه سكان

المحلة المجاورة لهذا الضلع من المسجد ، فلا يلجأون الى الذهاب لمحلة أخرى حين يريدون دخوله . وعلى الحائط الذى يقع يمين الباب حجر ارتفاعه خمس عشرة ذراعا وعرضه أربع أذرع وليس فى المسجد حجر أكبر منه . وفى الحائط، على ارتفاع ثلاثين أو أربعين ذراعا من الأرض كثير من الحجارة التى يبلغ حجمها أربع أذرع فى خمس .

وفى عرض المسجد باب شرقى ، يسمى « باب العين » اذا خرجوا منه نزلوا منحدرا فيه « عين سلوان » .

وهناك أيضا باب تحت الأرض يسمى « الحطة » يقال بأنه هو الباب الذى أمر الله عز وجل بنى اسرائيل أن يدخلوا منه الى المسجد قوله تعالى : « وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » .

وهناك باب آخر يسمونه « باب السكينة » ، فى دهليزه مسجد به محاريب كثيرة ، باب أولها مغلق حتى لا يلجه أحد . ويقال ان هناك تابوت « السكينة » الذى ذكره الله تبارك وتعالىٰ فى القرآن والذى حمله الملائكة (٢) . وأبواب بيت المقدس، ما تحت الأرض وما فوقها تسعة أبواب، كما ذكرت .

---

(١) سورة البقرة آية ٥٨ .

(٢) اشارة الى قوله تعالى « وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » (البقرة ٢٤٨) .

« قال لهم نبيهم » لما طلبوا منه حجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم « ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت » أى الصندوق الذى به التوراة ، وكان من خشب الشمساد مموها بالذهب نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين « فى سكينة من ربكم » أى مودع فيه ما تسكنون اليه ، وهو التوراة ، وكان موسى عليه الصلاة والسلام اذا قاتل قدمه فتسكن نفوس بنى اسرائيل ولا يفرون ، وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها راس وذنب كراس الهرة وذنبها وجناحان فتئن فيزف التابوت نحو العدو وهم يتبعونه ، فاذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر . وقيل صورة الأنبياء من آدم الى محمد عليهم السلام ، فكان عند آدم عليه السلام الى أن توفى فتوارثه أولاده واحدا بعد واحد .. يضع فيه التوراة ، ثم تداولته أيدى بنى اسرائيل ، وكانوا اذا اختلفوا فى شىء تحاكموا اليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا اذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم ، وكانت الملائكة تحمله فوق المعسكر .. فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه .. فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء ، وهلكت من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت ،

وصف الدكة التى بوسط ساحة المسجد والصخرة التى كانت قبلة الاسلام

اقيمت هذه الدكة في وسط المساحة ، لأنه لم يتيسر نقل الصخرة الى الجزء المسقوف من المسجد لعلوها . وهى تظل مساحة من الأرض مقدارها ثلاثون وثلاثمائة ذراع فى ثلاثمائة وارتفاعها اثنتا عشرة ذراعا . وصحنها مستو ، ومزخرف بالرخام الملبس بوصلات الرصاص . وعلى جوانبها الأربعة ألواح الرخام ، كما يعمل فى المقابر وهى مبنيه بحيث لا يستطيع احد الصعود عليها من غير المراقى المخصصة لهذا الأمر ، ويرى من يصعد عليها سقف الجامع . وقد حفر فى أرضها ، فى الوسط ، حوض يصب فيه مياه المطر بواسطه قنوات اعدت لذلك . وماء هذا الحوض أنقى وأعذب من كل ماء فى الجامع . وعلى هذه الدكة أربع قباب ، أكبرها قبة الصخرة التى كانت القبلة .

وصف قبة الصخرة :

بنى المسجد بحيث تكون الدكة فى وسط الساحة ، وقبة الصخرة فى وسط الدكة والصخرة وسط القبة ، وقبة الصخرة بيت مثمن منظم ، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعا وله أربعة أبواب ، على الجهات الأربع الأصلية ، باب شرقى وآخر غربى وثالث شمالى ورابع جنوبى ، وبين كل بابين ضلع . وجميع الحوائط من الحجر المنحوت ، وارتفاعها عشرون ذراعا .

فأخرجوه وجعلوه على ثورين ، فاقبلا يسيران وقد وكل الله بهما اربعه من الملائكه يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت . فلما سألوا نبيهم البينة على ملك طالوت ، قال لهم النبى ان آية ملكه أنكم تجدون التابوت فى داره ، فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه . « وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون » رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وعمامة هرون وآلهما .

رجع تفاسير : الطبرى ج ٢ ص ٣٦٢ ، والكشاف ج ١ ص ١١٤ ، وأبى السعود ج ١ ص ٢٨٠ والبيضاوى ص ٨٧ ، والخازن ج ١ ص ٢١٦ .

(١) فى النص الفارسى الدكان أو الدكه ويسميها المقدسى الدكة فآثرنا لفظ المقدسى .

ومحيط الصخرة مائة ذراع ، وهى غير منتظمة الشكل ، لا هى مدورة ولا مربعة ، ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل • وقد بنوا على جوانب الصخرة الاربعه اربع دعائم مربعه ، بارتفاع حائط الدكة المذكورة • وبين كل دعامتين ، على الجوانب الاربعة ، عمودان اسطوانيان من الرخام ، بنفس الارتفاع • وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الاعمدة الاثنى عشر ، بنوا القبة التى تحتها الصخرة ، والتى يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعا •

وبين حائط هذا البناء والدعائم والأعمدة (أسمى المربعة المبنية « ستون » دعامة والمنحوتة المستديرة التى من حجر واحد « اسطوانة » عمودا) ثمانى دعائم أخرى مبنيه من الحجارة المنحوتة (١) ، وبين كل اثنتين منهما ثلاثة أعمدة من الرخام الملون على ابعاد متساوية ، بحيث يكون فى الصف الأول عمودان بين كل دعامتين ، ويكون هنا ثلاثة اعمدة بين كل دعامتين •

وعلى تاج كل دعامة اربعة عقود ، على كل عقد طاق ، وعلى كل عمود عقدان فوق كل منهما طاق • وهكذا يكون على العمود متكأ لطاقين ، وعلى الدعامة متكأ لاربعة ، فكانت هذه القبة العظيمة فى ذلك الوقت مرتكزة على هذه الدعامات الاثنتى عشرة المحيطة بالصخرة ، فتراها على بعد فرسخ كأنها قمة جبل • لأنها من أساسها الى قمتها ثلاثون ذراعا ، وهى تستند الى أعمدة ودعامات ارتفاعها عشرون ذراعا ، وقبة الصخرة مشيدة على بيت ارتفاعه اثنتى عشرة ذراعا ، واذا فمن ساحة المسجد الى رأس القبة اثنتان وستون ذراعا •

وأسقف وقباب هذه الدكة مكسوة بالنجارة • وكذلك الدعائم والعمد والحوائط وذلك بدقة قل نظيرها • والصخرة أعلى من الأرض بمقدار قامة رجل ، وقد أحيطت بسياج من الرخام حتى لا تصل يد اليها •

---

(١) فى النص ست دعائم وقد صححها شيفر الى ثمان فى صفحة ٩٠ الملحوظة الأولى ، مستندا الى ما جاء فى النص من اثنتى عشره دعامة والى اللوحة ١٨ من
De Vogué : Le Temple de jérusalem.

والصخرة حجر أزرق لونه ، لم يطأها احد برجله أبدا ، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض ، كان انسانا سار عليها فبدت آثار أصابع قدميه فيها ، كما تبدو على الطين الطرى ، وقد بقيت عليها آثار سبع اقدام • وسمعت ان ابراهيم عليه السلام كان هناك ، وكان اسماعيل طفلا فمشى عليها وهذه هى آثار أقدامه •

ويقيم فى بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعابدين، وقد زينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره • وفى وسطه قنديل من الفضة ، معلق بسلسلة فضيه فوق الصخره • وهناك قناديل كثيرة من فضة ، كتب عليها وزنها ، امر بصنعها سلطان مصر • وقد قدرت ما هناك من الفضة بألف من •

ورأيت هناك أيضا شمعة كبيرة جدا طولها سبع أذرع وقطرها ثلاثة أشبار ، لونها كالكافور الزباحي وشمعها مخلوط بالعنبر • ويقال ان سلطان مصر يرسل هناك كل سنة كثيرا من الشمع ، منه هذه الشمعة الكبيرة ، ويكتب عليها اسمه بالذهب •

وهذا المسجد هو ثالث بيوت الله سبحانه وتعالى ، والمعروف عند العلماء أن كل صلاة فى بيت المقدس تساوى خمسة وعشرين ألف صلاة ، وكل صلاة فى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام تعد بخمسين الف صلاة ، وان صلاة مكة المعظمة شرفها الله تعالى تساوى مائة ألف صلاة • وفق الله عز وجل عباده جميعا لهذا الثواب •

وقد قلت ان أسقف وظهور القباب ملبسة بالرصاص، وعلى جوانب الدكة الأربعة أبواب كبيرة ذات مصراعين من خشب الساج وهى مقفلة دائما ، وبعد قبة الصخرة قبة تسمى « قبة السلسلة » ، وهى السلسلة التى علقها داود عليه السلام ، والتى لا تصل اليها الا يد صاحب الحق ، أما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها • وهذا المعنى المشهور عند العلماء •

وهذه القبة محمولة على رأس ثمانية أعمدة من الرخام، وست دعائم من الحجر . وهى مفتوحة من جميع الجوانب عدا جانب القبلة ، فهو مسدود حتى نهايته ، وقد نصب عليه محراب جميل .

وعلى الدكة نفسها قبة أخرى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام ، وهى مغلقة من ناحية القبلة ايضا حيث بنى محراب جميل . وتسمى هذه القبة « قبة جبريل » عليه السلام . وليس فيها فرش بل ان أرضها من حجر مستو . ويقال ان هنا أعد « البراق » ليركبه النبى عليه السلام ليلة المعراج .

وبعد قبر « قبة جبريل » تأتى « قبة الرسول » وعليه الصلاة والسلام وبينهما عشرون ذراعا . وهى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام أيضا (١) . ويقال ان الرسول عليه الصلاة والسلام صلى ، ليلة المعراج ، فى قبة الصخرة أولا ثم وضع يده على الصخرة ، فلما خرج وقفت لجلالته ، فوضع الرسول عليه الصلاة والسلام يده عليها لتعود الى مكانها وتستقر وهى بعد نصف معلقة . وقد ذهب الرسول عليه السلام من هنـاك الى القبة التى تنتسب اليه وركب البراق ، وهذا سبب تعظيمها .

وتحت الصخرة غار كبير ، يضـاء دائما بالشـمع . يقال انه حين قامت الصخرة خلا ما تحتها ، فلما استقرت بقى هذا الجزء كما كان .

صف المراقى المؤدية الى الدكة التى بساحة الجامع :

يسار الى هذه الدكة من ستة مواضع : لكل منها اسم ، فبجانب القبلة طريقان ، يصعد فيهما على درجات ، فاذا وقفت فى وسط الدكة وجدت أحدهما على اليمين ، والثانى

---

(١) يستعمل هنا كلمة ستون مكان اسطوانة ، وهو يقصد بالأولى الدعامة ، وبالثانية العمود ، ص ٤٣ ملاحظات غني زاده (٧) .

على اليسار . والذى على اليمين يسمى مقام النبى عليه السلام ، والذى على يسار يسمى مقام الغورى . وسمى الأول مقام النبى لأن النبى عليه الصلاة والسلام صعد على درجاته الى الدكة ليلة المعراج ، ودخل الى قبة الصخرة .

ويقع طريق الحجاز على هذا الجانب . وعرض درجاته عشرون ذراعا ، وهى من الحجر المنحوت المنتظم ، وكل درجة قطعة أو قطعتان من الحجر المربع ، وهى معدة بحيث يستطيع الزائر الصعود عليها راكبا . وعلى قمة هذه الدرجات أربعة أعمدة من الرخام الأخضر الذى يشبه الزمرد ، لولا أن به نقطا كثيرة من كل لون ، ويبلغ ارتفاع كل عمود منها عشرة أذرع ، وقطره بقدر ما يحتضن رجلان .

وعلى رأس هذه الأعمدة الأربعة ثلاثة طيقان ، احدها مقابل للباب والآخران على جانبيه ، وسطح الطيقان افقى، من فوقه شرفات بحيث يبدو مربعا ، والعمد والطيقان منقوشة كلها بالذهب والمينا ، ليس أجمل منها . ودرابزين الدكة كله من الرخام الأخضر المنقط ، حتى لتقول ان عليه روضة ورد ناضر .

وقد أعد مقام الغورى بحيث تكون ثلاثة سلالم على موضع واحد ، أحدها محاذ للدكة والآخران على جانبيها ، حتى يستطاع الصعود من ثلاثة أماكن . ومن فوق هذه السلالم الثلاثة أعمدة عليها طيقان وشرفة . والدرجات بالوصف الذى ذكرت من الحجر المنحوت ، كل درجة قطعتان أو ثلاث من الحجر المستطيل . وكتب بخط جميل بالذهب على ظهر الطاق : أمر به الأمير ليث الدولة نوشتكين الغورى .

ويقال انه كان تابعا لسلطان مصر ، وهو الذى أنشأ هذه الطرق والمراقى (١) .

---

(١) هو الأمير أبو منصور أبو شنكين امير الجيوش وحاكم سوريا من قبل الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، واصله من ختان . كان عبدا لضابط فى الديلم اسمه دزبر بن اوسيم . وقد خلف أبا قطاع الهمذانى على دمشق سنة ٤١٩ (١٠٢٨) . واضطر الى =

وعلى الجانب الغربى للدكة سلمان فى ناحيتين منهـــا ، وهناك طريق عظيم مشابه لما ذكرت • وكذلك فى الجـــانب الشرقى طريق عظيم مماثل ، عليـــه أعمـــدة فوقها طيقان وشرفة يسمى المقام الشرقى •

وعلى الجانب الشمالى طريق أكثر علوا وأكبر منهـــا كلها ، به أعمدة فوقها طيقان ، يسمى المقـــام الشـــامى • واظن أنهم صرفوا على هذه الطرق الستة مائة ألف دينار •

وفى الجانب الشمالى لساحة المسجد ، لا على الدكة . بناء كأنه مسجد صغير ، يشبه الحظيرة • وهو من الحجـــر المنحوت ، يزيد ارتفاع حوائطه على قامة رجـــل ويســـمى « محراب داود » وبالقرب منه حجر غـــير مســـتو يبلغ قامه رجل ، وقمته تتيح وضع حصيرة صلاة صغيرة عليها (١) • ويقال انه كرسى سليمان عليه السلام الذى كان يجلس عليه أثناء بناء المسجد •

هذا ما رأيت فى جامع بيت المقدس • وقد صـــورته وضممته الى مذكراتى (٢) ، ومن النوادر التى رأيتهـــا فى بيت المقدس شجرة الحور •

بعد الفراغ من زيارة بيت المقدس عزمت على زيارة مشهد ابراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والســـلام ، فى يوم الأربعاء غرة ذى القعدة سنة ٤٣٨ (٢٠ ابريل ســـنة ١٠٤٧) ، والمسافة بينهما ستة فراسخ ، عن طريق جنوبى

= الفرار منها على أثر ثوره فى سنة ٤٣٣ (١٠٤١) وهاجر الى حلب حيث مات بعد ثلاثة اشهر •

انظر Schefer ص ٩٧ الذى نقل عن مخطوط فى مكتبه لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى فى تاريخ الخلفاء والأمراء والولاة الذين حكموا دمشق ، الورقة ١٣٧ •

(١) هذه الجملة مضطربة : « سروى ••• افتد » • تعليمات غنى زاده ص ٤٥ (٨) • ولو أننا اتبعنا نسخة نب : كه زيلوى كوجك برآن موضع افتد ، لاستقام المعنى •

(٢) هذه الاشـــارة تفيد أن النص الذى بايدينا ليس كاملا ، تنقصه الصور على الأقل . وعندى أنه يشير الى مذكرات مؤقتة يكتبها أثناء رحلته ، راجع تعليق غنى زاده ص ٤٥ •

به قرى كثيرة وزرع وحدائق وشجر برى لا يحصى من عنب وتين وزيتون وسماق ·

وعلى فرسخين من بيت المقدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة ، تسمى « الفراديس » لجمال موقعها · وعلى فرسخ واحد من بيت المقدس، مكان للنصارى يعظمونه كثيرا ، يقيم بجانبه مجاورون ويحج اليه كثيرون ، اسمه « بيت اللحم » · وهناك يقدم النصارى القرابين ويقصده الحجاج من بلاد الروم · وقد بلغته مساء اليوم الذى قمت فيه من بيت المقدس ·

وصف قبر الخليل صلوات الله عليه :

يسمى أهل الشام وبيت المقدس هذا المشهد «الخليل»(١) ولا يذكرون اسم القرية التى هو فيها ، قرية مطلون ، وهى موقوفة عليه مع قرى كثيرة · وفى هذه القرية عين ماء تخرج من الصخر ، يتفجر ماؤها رويدا رويدا ، وهو ينقل من مسافة بعيدة بواسطة قناة الى خارج القرية ، حيث بنى

---

(١) الخليل اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس بينهما مسيرة يوم ، فيه قبة قبر الخليل ابراهيم عليه السلام فى مغارة تحت الأرض ، وهناك مشهد وزوار وقوام فى الموضع وضيافة للزوار ، وبالخليل سمى الموضع واسمه الأصلى حبرون او حبرى (معجم البلدان ج ٣ ، ص ٤٢٦ طبعة الخانكى) ·

وروى عن كعب الأحبار أن أول من مات ودفن فى حبرى سارة زوجة ابراهيم عليه السلام · وقيل قدم على النبى صلى الله عليه وسلم نميم الدارى فى قومه وساله أن يقطعه حبرون فاجابه وكتب له كتابا شهد عليه أبو بكر بن أبى قحافة وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب ، قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لنميم الدارى وأصحابه ، انى أعطيكم بيت عينون وحبرون والمرطوم (مرطوم ، مطلون) وبيت ابراهيم بذمتهم وجميع ما فيهم وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم بعدهم أبد الابدين فمن آذاهم فيه آذى الله » · (معجم ج ٣ ص ٢٠٩) ·

وقد كتب هذا الخطاب على رقعة من الجلد على بن أبى طالب وظل يتوارثه آل نميم الدارى حتى القرن السادس عشر الميلادى ، اذ أرسل الخطاب الى القسطنطينية ليحفظ فى متحف اسكى سراى · شيفر ص ٩٩ هامش حيث أشار الى رحلة الشيخ عبد الغنى النابلسى فى فلسطين ·

حوض مغطى ، يصب فيه الماء فلا يذهب هباء ، حتى يفى بحاجة أهل القرية وغيرهم من الزائرين .

والمشهد على حافة القرية من ناحية الجنوب ، وهى فى الجنوب الشرقى . والمشهد يتكون من بناء ذى أربع حوائط من الحجر المصقول ، طوله ثمانون ذراعا وعرضه اربعون، وارتفاعه عشرون ، وثخانة حوائطه ذراعان ، وبه مقصورة ومحراب فى عرض البناء ، وبالمقصورة محاريب جميلة بها قبران رأسهما للقبلة ، وكلاهما من الحجر المصقول بارتفاع قامة الرجل ، الأيمن قبر اسحق بن ابراهيم ، والآخر قبر زوجته عليها السلام ، وبينهما عشرة أذرع .

وأرض هذا المشهد وجدرانه مزينة بالسجاجيد القيمة والحصر المغربية التى تفوق الديباج حسنا . وقد رأيت هناك حصير صلاة ، قيل أرسلها أمير الجيوش ، وهو تابع لسلطان مصر . وقد اشتريت من مصر بثلاثين دينارا من الذهب المغربى ، ولو كانت من الديباج الرومى لما بلغت هذا الثمن . ولم أر مثلها فى مكان قط .

حين يخرج السائر من المقصورة الى وسط المشهد ، يجد مشهدين أمام القبلة : الأيمن به قبر ابراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وهو مشهد كبير ، ومن داخله مشهد آخر لا يستطاع الطواف حوله ، ولكن له أربع نوافذ منها ، فيراه الزائرون وهم يطوفون حول المشهد الكبير ، وقد كسيت أرضه وجدرانه ببسط من الديباج ، والقبر من الحجر ، ارتفاعه ثلاث أذرع ، وعلق به كثير من القناديل والمصابيح الفضية .

والمشهد الثانى الذى على يسار القبلة به قبر سارة زوج ابراهيم عليه السلام ، وبين القبرين ممر عليه باباهما، وهو كالدهليز وبه كثير من القناديل والمسارج(١)

---

(١) ينقل ياقوت فى معجم البلدان (ج ٣ ص ٤٦١ طبعة الخانكى) عن الهروى فى كتابه الزيارات يقول : قال الهروى دخلت القدس فى سنة ٥٦٧ (١١٧١) واجتمعت =

وبعد هذين المشهدين قبران متجاوران ، الأيمن قبر النبى يعقوب عليه السلام ، والأيسر قبر زوجه ٠

وبعدهما المنازل التى اتخذها ابراهيم لضيافة زائريه، وبها ستة قبور ٠

وخارج المشهد منحدر به قبر يوسف بن يعقوب عليه السلام ، وهو من الحجر وعليه قبة جميلة ٠ وعلى جانب الصحراء بين قبر يوسف ، ومشهد الخليل عليهما السلام ، قرافة كبيرة يدفن بها الموتى من جهات عديدة :

وعلى سطح المقصورة فى المشهد ، حجرات للضيوف الوافدين، وقد وقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات بيت المقدس ٠

وأغلب الزراعة هناك الشعير ، والقمح قليل ، والزيتون كثير ٠ ويعطون الضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون ٠ وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق ، وبالمضيفة خادمات يخبزن طول اليوم ٠ ويزن رغيفهم منا واحدا ٠ ويعطى من يصل هناك رغيفا مستديرا وطبقا من العدس المطبوخ بالزيت وزبيبا كل يوم ٠ وهذه عادة بقيت من أيام خليل الرحمن عليه السلام حتى الساعة ٠ وفى بعض الأيام يبلغ عدد المسافرين

- فيه وفى مدينة الخليل بمشايخ حدثونى أن فى سنة ٥١٣ (١١١٩) فى أيام الملك بردويل (Baudouin) انخسف موضع فى مغارة الخليل فدخل اليها جماعة من الفرنج باذن الملك فوجدوا فيها ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام وقد بليت أكفانهم وهم مستندون الى حائط وعلى رؤوسهم قناديل ورؤوسهم مكشوفة ، فجدد الملك أكفانهم ثم سد الموضع ٠ قال : وقرأت على السلفى أن رجلا يقال له الأرمنى قصد زيارة الخليل واهدى لقيم الموضع هدايا جمة وسأله أن يمكنه من النزول الى جثة ابراهيم عليه السلام ، فقال له : اما الآن فلا يمكن لكن اذا اقمت الى أن ينقطع الجثل وينقطع الزوار فعلت ٠ فلما انقطعوا قلع بلاطة هناك وأخذ معه مصباحا ونزلا فى نحو سبعين درجة الى مغارة واسعة والهواء يجرى فيها وبها دكة عليها ابراهيم عليه السلام ملقى وعليه ثوب أخضر والهواء يلعب بشيبته ، والى جانبه اسحق ويعقوب ، ثم أتى به الى حائط المغارة فقال له : ان سارة خلف هذا الحائط ٠ فهم أن ينظر الى ما وراء الحائط فاذ بصوت يقول : اياك والحرم ٠ قال فعدوت من حيث نزلت ٠

خمسمائة ، فتهيأ الضيافة لهم جميعا (١) ·

ويقال انه لم يكن لهـذا المشـهد باب ، وكان دخوله مستحيلا ، بل كان الناس يزورونه من الايوان فى الخارج· فلما جلس المهدى (٢) على عرش مصر أمر بفتح باب فيه ، وزينة وفرشه بالسجاجيد ، وأدخـل عـلى عمارته اصلاحا كثيرا ، وباب المشهد وسط الحائط الشـمالى عـلى ارتفاع أربع أذرع فوق الأرض ، وعلى جانبيه درجات من الحجر ، فيصعد اليه من جانب ، ويكون النزول من الجانب الثانى· ووضع هنا باب صغير من الحديد ·

ثم رجعت الى بيت المقدس ومن هناك سرت ماشيا مـع جماعة تقصد الحجاز ، وكان دليلنا رجلا اسـمه أبـو بكر الهمدانى ، وهو رجل جلد يقدر على المشى ، وجهه جميـل · غادرت بيت المقـدس فى منتصف ذى القعـدة سـنة ٤٣٧ (أول مايو ١٠٤٧) ، وبعد ثلاثة أيام بلغت جهة تسـمى

---

(١) يشير الى « سماط ابراهيم » أو « الدشيشة » · ويقال ان ابراهيم عليه السلام كان يخرج كل يوم ليأتى بالضيوف ، وقد سمى « أبو الضيفان » لكرمه · يقول مجير الدين فى كتابه تاريخ بيت المقدس (ص ٥٩ طبعة مصر) ، انهم كانوا يضربون الطبل كل يوم بعد صلاة العصر عند باب المطبخ حين يوزع الطعام ، وهو من أعجب ما فى الدنيا ويشترك السكان مع الزوار فى هذه الوجبات · ثم يذكر أن الخبز يوزع ثلاث مرات فى اليوم ، ففى الصباح للفقراء وغيرهم ، وفى الظهر للسكان ، وبعد العصر لهم ولمن يأتى من الزوار · وعند الباب ، حيث يدق الطبل ، توجد المطابخ التى تحتوى على ثلاثة أفران وست طواحين ، وعلى مسافة من هذا مخازن الغلال ·

(٢) يرجح Schefer ص ١٠٥ أن ناصرا يقصد عبيد الله المهدى مؤسس الأسرة الفاطمية ، الذى استولى على مصر فترة قصيرة سنة ٣٠٦ (٩١٨) ولا يقصد المهدى الخليفة العباسى الذى ولى الخلافة سنة ١٥٨ (٧٧٤) · ونحن نوافقه على هذا الرأى · ويزعم مجير الدين أن هذا الباب عمل فى الحكم البيزنطى وقد رسم الهيكل كله على بك العباسى فى رحلته فى افريقيا وآسيا فى السنوات ١٨٠٣ ـ ١٠٨٧ · باريس ١٨١٤ الجزء ٣ ص ١٦٠ ـ ١٦٢ ، رقم ٦٣ ·

وقد جمع Quatremère فى نهاية الجزء الأول من كتابه Histoire de: Sultans Mamlouks الذى ترجمه عن المقريزى كل ما قيل عن حبرون وقبر الخليل فى المراجع الشرقية التاريخية والجغرافية التى رآها ، وما كتبه عنها السواح الغربيون ·

« أعز القرى (١) » ، بها ماء جار وأشجار ، ثم غادرها الى منزل آخر يسمى « وادى القرى » ، ومن بعده نزلنا مكانا ثالثا . ثم بلغنا مكة بعد عشرة أيام . لم تحضر لمكة قافلة من أى بلد فى هذه السنة ، ولم يكن الطعام متوفرا . وقد نزلت فى سكة العطارين أمام باب النبى عليه السلام . وفى يوم الاثنين طلعت عرفات ، وكان الناس مملوئين رعبا من العرب ، ولما عدت من عرفات لبثت بمكة يومين ، ثم رجعت الى بيت المقدس عن طريق الشام .

بلغنا بيت المقدس فى الخامس من المحرم سنة ٤٣٩ (٧ يوليو ١٠٤٧) . ولا أذكر هنا وصف مكة والحج ، سأذكر ذلك عند الكلام على الحجة الأخيرة .

كنيسة بيعة القمامة :

وللنصارى فى بيت المقدس كنيسة يسمونها « بيعة القمامة (٢) » ، لها عندهم مكانة عظيمة . ويحج اليها كل سنة كثير من بلاد الروم ، ويزورها ملك الروم متخفيا ، حتى لا يعرفه الناس . وقد زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله فبلغ ذلك الحاكم ، فأرسل اليه أحد حراسه — بعد أن عرفه أن رجلا بهذه الحلية والصورة يجلس فى كنيسة بيت المقدس — وقال له : « اذهب عنده وقل له : الحاكم أرسلنى اليك ويقول : لا تحسبنى أجهل أمرك ، ولكن كن آمنا فلن أقصدك بسوء » ، وقد أمر الحاكم هذا بالاغارة على الكنيسة فهدمها وخربها . وظلت خربة مدة من الزمان .

وبعد ذلك بعث القيصر اليه رسلا ، وقدم كثيرا من

---

(١) فى النص ارعز وذكرها شيفر باسم عزرا وقال انه اسم غير واضح (ص ١٠٦) وصححها غنى زاده بالرسم الذى ذكرنا (ص ٤٩) .

(٢) وتسمى عند النصارى كنيسة القيامة .

الهدايا والخدمات وطلب الصلح والشفاعة ليؤذن له باصلاح الكنيسة فقبل الحاكم وأعيد تعميرها (١) ٠

وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل ، وهى عظيمة الزخرف ، من الرخام الملون والنقوش والصور ، وهى مزدانة من الداخل بالديباج الرومى والصور ، وزينت بطلاء من الذهب ٠ وفى أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام ٠ وهذه الصور مطلية بزيت السندوس (٢) ٠

وقد غطى سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على قدها ، بحيث لا يحجب منها شىء وذلك حتى لا يصل الغبار اليها ٠ وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم ٠ وهناك عدا ذلك عدة مواضع أخرى كلها مزينة ، ولو وصفتها لطالت كتابتى ٠ وفى هذه الكنيسة لوحة مقسمة الى قسمين عملا لوصف الجنة والنار ، فنصف يصف الجنة وأهلها ، ونصف يصف النار واهلها ومن يبقى فيها ٠ وليس لهذه الكنيسة نظير فى اى جهة من العالم ٠ ويقيم بها كثير من القسس والرهبان ، يقرءون الانجيل ويصلون ويشتغلون بالعبادة ليل نهار ٠

---

(١) هدمت الكنيسة فى سنة ٤٠٠ (١٠٠٩) بامر الخليفه المصرى الحاكم بامر الله ٠ وظلت خربة حتى سنة ٤٢٩ (١٠٣٧) حين عقد الامبراطور ميشيل الخامس Michel V le Paphlagonien هدنة مع والى بيت المقدس من قبل المستنصر بالله ٠ وقد تعهد بتحرير مسلم ومنح الحق فى اعادة بناء الكنيسة ، فارسل المهندسين والمعمارين فورا من القسطنطينية وبنيت الكنيسة من جديد ، انظر Schefer ص ١٠٧ :

(٢) نوع من الزيت يستخرج من صمغ بعض الأشجار ، ويسميه سنالوزى Santalozi ٠ وقد ذكر طريقة تحضيره المخطوط البيزنطى Guide de la Peinture الذى ترجمه الدكتور Paul Durand بعنوان Manuel d'iconographie chrétienne, grecque et latine فى باريس ١٨٤٥ ص ٤١ ٠ راجع Schefer ص ١٠٨ ٠

وصف مصر

ثم عزمت على أن أغادر بيت المقدس الى مصر ، بطريق البحر ، ثم أغادرها الى مكه (١) • ولكن كانت الريح معاكسة وتعذر السفر بالبحر ، فسرنا عن طريق البر ، ومررنا بالرملة ، ثم بلغنا مدينة تسمى عسقلان (٢) ، بها سوق وجامع جميل • رأيت بها طاقا قديما ، قيل انه كان مسجدا ، وهو طاق من الحجر الكبير ، لو أرادوا هدمه للزمهم انفاق مال كثير • وخرجت من هناك فوجدت فى الطريق قرى كثيرة ، ومدنا يطول وصفها فحذفته اختصارا • وبلغنا مكانا يسمى طينة ، وهو مرفأ للسفن ، يذهب منه الى تنيس ، وقد ركبت السفينة اليها •

تنيس جزيرة ومدينة جميلة ، وهى بعيدة عن الساحل بحيث لا يرى من أسطحها • والمدينة مزدحمة ، وبها أسواق فخمة وجامعان ، وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان ، منها دكان عطار • وهناك فى فصل الصيف يبيعون الكشكاب (٣) ، فان الجو حار وتكثر الأمراض فى المدينة •

---

(١) تفيد أنه لم يكن فى نيته اطالة اقامته فى مصر •

(٢) قال الهروى فى كتابه الزيارات (ورقات ٢٧ ، ٢٨) أن راس الحسين بن على ظلت فى مشهد عسقلان الى أن استولى الفرنج على المدينة فنقلت الراس الشريفة الى مصر سنة ٥٤٩ (١١٥٤) (Schefer ص ١٠٩) •

(٣) الكشكاب صنفان : صنف منعش غير مسكر يشبه ما يسمى فى تركيا ايران وهو يشرب فى ايران أيضا • يتكون من اللبن الزبادى المضروب مع الماء • وصنف آخر مسكر يتكون من « السوبيا » المخمرة مضافا اليها بعض العناصر الأخرى ويسمى هذا الصنف الفقاع ، ويقصد ناصر الصنف الأول •

رضا قولى خان فى فرهنك ناصرى ، Schefer ص ١١٠ •

وينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ووقايات ومما يلبس النساء • ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة غير تنيس •

والأبيض منه ينسج فى دمياط • وما ينسج منه فى مصانع السلطان لا يباع ولا يعطى لأحد • وقد سمعت أن ملك فارس أرسل رسله الى تنيس بعشرين الف دينار ليشترى له حلة من كسوة السلطان ، وقد بقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراءها • وبتنيس صناع مختصون بنسيج ملابس السلطان • وقد سمعت أن عاملا نسج عمامة السلطان ، فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى ، وقد رأيت هذه العمامة ، ويقال انها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى •

وينسجون فى مدينة تنيس هذه البوقلمون ، الذى لا ينسج فى مكان أخر من جميع العالم • وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار • وتحمل أثوابه من تنيس الى المشرق والمغرب • وسمعت أن سلطان الروم كان قد اوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس ، فلم يقبل السلطان ، كان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون (١) •

---

(١) كانت تنيس من أجل المدائن وكانت بالقرب من دمياط قال المسعودى كان طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتى ذراع وكان عرضها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا بالعمل ، وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا وبكل مسجد منارة ، وكان بها سنة وثلاثون حماما ، وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب ، وكان بها مائة وستون طاحونا وكان بها من الحوانيت الفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون بها الثياب الشرب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار وكانت تحمل منها الى بغداد ، وكان يعمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب ••• ولم تزل مدينة عامرة الى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (١١٧٧) حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها واستمرت =

حينما يزيد ماء النيل يبعد الماء الملح من حول تنيس ، بحيث يصبح ماء البحر عذبا حتى عشرة فراسخ حولها • وقد بنوا بجزيرة تنيس ومدينتها صهاريج عظيمة تحت الأرض وهي قوية البنيان وتسمى المصانع • فحين يزيد ماء النيل ويطرد الماء الملح من هناك ، تملأ هذه المصانع من ماء النيل الذى يجرها اليها • وماء هذه المدينة من تلك المصانع التى تمتلىء وقت زيادة النيل ، ويستعمل السكان هذا الماء حتى السنة التالية • وكل من لديه ماء فوق حاجته ، يبيع الفائض لغيره •

= على ذلك الى سنه أربع وعشرين وستمائه (١٢٢٦) فى دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فامر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها واستمرت خرابا من يومئذ الى الآن •

تاريخ مصر لابن اياس ج ١ طبعة بولاق ص ٤٩ ــ٥٠•

وقال أبو القاسم ابن حوقل النصيبى فى كتابه صورة الأرض طبع ليدن ١٩٣٨ ص ١٥٢ :

ومن جليل مدنها (مصر) وفاخر خواصها ما خصت به تنيس ودمياط وفيهما يتخذ ويعمل رفيع الكتان وثياب الشرب والديبقى والمصبغات من الحلل التنيسية التى ليس فى جميع ما فى الأرض ما يدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة وربما بلغت الحلة من ثيابها مائتين دنانير اذا كان فيها ذهب وقد يبلغ ما لا ذهب فيه منها مائة دينار وزائدا وناقصا ••• وان كانت شطا ودبقوا ودميرة وتونة وما قاربهم بتلك الجزائر يعمل بها الرفيع من هذه الأجناس فليس ذلك بمقارب للتنيسى والدمياطى والشطوى مما جعل الحمل على عهدنا يبلغ من عشرين ألف دينار الى ثلاثين لجهاز العراق •

وراجع أيضا : يافوت فى المعجم ج ٢ ص ٤١٩ وما بعدها والمقريزى ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها ، طبعة بولاق •

وأما القول بوجود مصانع تنسج ما يريده الخليفة من كسائه وما ينعم به على حاشيته من ملابس ، فهذا نظام معروف منذ أيام الساسانيين • فقد كان « الطراز » ينسج فى مصانع أعدت له فى قصر كسرى • فلما قامت الدولة الأموية نقلت هذا النظام عن الساسانيين ثم توسع فيه العباسيون من بعدهم فكثرت هذه المصانع الملكية ، وأصبح مكانها يقوم حيث تكون المادة الأولية الأساسية فى الصناعة •

وقد امتازت مصر بصنع الكتان فاشتهرت به تنيس ودمياط والاسكندرية • وكانت الدولة تشرف على هذه المصانع وكان كثير من العمال من القبط الذين احتفظوا بدينهم •

راجع : تاريخ القرون الوسطى
Histoire du Moyen-Age, Charles Diehl , G. Marçais
(ج ٣ ص ٣٦٤) حيث رجع المؤلفات الى دائره المعارف الاسلامية مادة طراز (Grohmann)
والى فى حضارة الاسلام Die Renaissance des Islam ص ٤٣١ من النسخة
والى مساجد القاهرة Les mosquées du Caire ص ٩٣ وما بعدها لمؤلفه الأستاذ فيت Wheit مدير دار الآثار العربية بالقاهرة •

وبتنيس مصانع كثيرة موقوفة ، يعطى ماؤها للغرباء • وسكانها خمسون ألفا • ويرابط حولها، دائما ، الف سفينه، منها ما هو للتجار وكثير منهـا للسـلطان • ويجلب لهـذه الجزيرة كل ما تحتاج اليه ، اذ ليس بها من خيرات الأرض شيء ، وتجرى المعاملات فيها بالسفن ، لأنها جزيرة •

ويقيم بتنيس جيش كامل السـلاح ، احتيـاطا ، حتى لا يستطيع أحد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها • وسمعت من الثقات أنه يصل منها لخزانة سلطان مصر ، يوميا ، الف دينار مغربى ويصل ذلك المقدار مرة واحدة ، يحصله شخص واحد ، يسلمه أهل المدينة اليه فى وقت معين (١) ، وهـو يسلم للخزانة ، فلا يتأخر منه شيء • ولا يجبى شيء بالعنف من أى شخص •

وما ينسج للسلطان من القصب والبوقلمون يدفع ثمنه كاملا ، بحيث يعمل الصناع برضاهم للسلطان ، لا كما فى البلاد الأخرى حيث يفرض الديوان والسلطان السخرة على

---

(١) لكى يجد القارىء صوره لما كانت نغله مصر للولاه اذكر ما جاء فى كتاب صوره الأرض لأبى القاسم بن حوقل النصيبى ص ١٣٥ حيث يقول :

وجدت بخط أبى النمر الوراق فى أخبار الحسين الخصيبى ، قال حدثنى ابو حازم القاضى قال قال لى أبو الحسن ابن المدبد : لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا • وقال : تحتاج مصر الى ثمانية وعشرين ألف الف فدان وانما يعمر منها الفا ألف فدان • قال وقال له انه كان يتقلد الدواوين بالعراق يريد ديوان المشرق والمغرب ، وقال ولم أبت قط ليلة من الليالى وعلى عمل أو بقية منه وتقلدت مصر فكنت ربما بت وقد بقى على شيء من العمل فاستتمه اذا أصبحت ، قال وقال له ابو حازم القاضى :

جبا عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب رضى الله عنه اثنى عشر الف الف دينار ، فصرفه عنها عثمان لعبد الله بن أبى سرح فجباها اربعة عشر الف ألف دينار • وقال أبو حازم ، ان هذا الذى جباه عمرو وعبد الله بن ابى سرح انما كان من الجماجم خاصة دون الخراج وغيره •

وجاء فى Mémoires géographiques sur l'Egypte ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ انه فى زمن البطريق Denys de Telmahar كان على كل نصرانى ، غنيا او فقيرا ، ان يدفع خمس قطع ذهبية • فتوسط Denys لدى عبد الله بن طاهر ليخفف الضريبة فامر بأن يحصل من الغنى ٤٨ درهما و ٢٤ من متوسط الحال و ١٢ من الفقير Schefer ص ١١٣) •

الصناع . وتصنع أستار هوادج الجمال ولبود سروج الخيل، الخاصة بالسلطان ، من البوقلمون .

ويؤتى بالفاكهة والأغذية لتنيس من قرى مصر . ويصنعون بها آلات الحديد . كالمقراض والسكين وغيرهما . وقد رأيت مقراضا في مصر ، صنع في تنيس ، ثمنه خمسة دنانير مغربية ، يفتح اذا رفع مسماره ويقص اذا أنزل .

وتصيب النساء هناك ، أحيانا ، علة كالصرع ، فيصحن مرتين أو ثلاثا ، ثم يعدن بعد ذلك الى صوابهن . وكنت سمعت في خراسان ، عن جزيرة تموء فيها النساء كالقطط ، وذلك على النحو الذى ذكرت .

وتذهب السفينة من تنيس الى القسطنطينية في عشرين يوما . وقد سرنا بجانب مصر ، وحين بلغنا شاطئ البحر ، سارت السفينة في النيل . حين يقترب نهر النيل من البحر، يصير فروعا تصب متفرقة فيه . ويسمى الفرع الذى سرنا فيه فرع الروم . سارت السفينة حتى بلغنا مدينة تسمى الصالحية . وهى مدينة كثيرة النعم والخيرات ، وتصنع بها سفن كثيرة ، حمولة كل منها مائتا خروار (١) ، وهى تنقل البضاعة الى مدينة مصر حتى أبواب دكاكين البقالين . ولو لم تكن وسائل النقل كذلك لتعذر نقل المؤمن فيها على ظهور الدواب ، لكثرة الزحام الذى بها . وقد نزلت من السفينة الى الصالحية . ثم بلغت قرب القاهرة في تلك الليلة ، وفى يوم الأحد السابع من صفر سنة ٤٣٩ (٤ أغسطس ١٠٤٧)، وهو يوم هرمزد من شهر يور القديم، كنا في القاهرة .

وصف مصر وولايتها :

يخرج ماء النيل من بين الجنوب والغرب ويمر بمصر ثم يصب في بحر الروم . ويبلغ نهر النيل ، في زيادته ضعف

---

(١) خروار : حمل حمار .

نهر جيحون عند ترمذ • ويمر النيل بولاية النوبة ثم يجيء الى مصر • والنوبة ولاية جبلية • وحين يصل النيل الى الوادى ، فهناك ولاية مصر • وأول مدينة يصل اليها ، على الحدود ، تسمى أسوان • والمسافة من مصر اليها ثلثمائة فرسخ ، وتقع المدن والولايات كلها على شاطىء النيل • وتسمى هذه الولاية ، أسوان ، بالصعيد الأعلى • ولا تستطيع السفن عبور النيل ، حين تصل لاسوان ، لأن الماء يخرج هناك من شلالات فيندفع سريعا (١) •

وولاية النوبة جنوبى أسوان • ولها ملك خاص • وسكانها سود البشرة ودينهم النصرانية • ويذهب اليها التجار ويبيعون الخرز والأمشاط والمرجان ويجلبون منها الرقيق • والرقيق فى مصر اما نوب (او نوبيون) واما روم • وقد رأيت قمحا ذرة من النوبة ، كلاهما أسود •

يقال ان حقيقة منابع النيل لم تعرف • وسمعت أن سلطان مصر أرسل بعثة لتتبع شاطىء النيل ، سنة كاملة ، ودرسه • ولكن أحدا لم يعرف حقيقة منبعه • ويقال انه يأتى من جبل الجنوب ، يسمى جبل القمر •

حين تبلغ الشمس مدار السرطان يزداد النيل ، فيرتفع عشرين ذراعا عما كان مستقرا عليه فى الشتاء • وهكذا يتزايد يوما بعد يوم • وقد أعدوا له ، فى مصر ، مقاييس وعلامات ورتبوا عاملا وظيفته ألف دينار للمحافظة عليها ولتسجيل الزيادة • ومنذ أول يوم للفيضان ، يطوف منادون فى المدينة ، منادين بأن الله تعالى قد زاد النيل كذا اصبعا ، ويذكرون مقدار زيادته كل يوم •

---

(١) وبالنيل موضعان يعرفان بالجنادل ، أحدهما فوق أسوان بثلاثة أميال ، وهو جبل قطع أيضا لطريق الماء وترك ما قطع منه على غاية الوعورة فالماء ينسرب منه بين أحجار عظام • ولا تقدر المراكب ان تسير فيه لوعورته ، واذا جاءته حملت الى البر متاعها الى أن تلحق بمسيل الماء المستقيم •• وكأنه ترك ردءا لمن قصد بلد العدو أو ردءا لمن أراد مصر من ناحية العدو •

وحين تبلغ الزيادة ذراعا كاملا ، تضرب البشائر ويفرح الناس ، حتى تبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا ، وهى الزيادة المعهودة ، يعنى أنه كلما قلت الزيادة عن ذلك ، قيل ان النيل ناقص ، فتصدقوا ونذروا النذور وعلاهم الغم • فاذا زاد عن هذا القدر فرحوا وأظهروا الغبطة • ما لم يصل الارتفاع الى ثمانية عشر ذراعا، لا يأخذ السلطان الخراج (١) • ويتفرع من النيل فروع كثيرة تسير فى الأطراف ، كما يتفرع منها ترع صغيرة • وعليها تقع الولايات والقرى • وأقيمت بمصر سواق كثيرة يصعب حصرها أو قياسها • وشيدت قرى مصر كلها على المرتفعات والتلول ، وذلك حتى لا تغرق ، فان الماء يغمر البلاد كلها وقت الفيضان ، وحينئذ يسيرون من قرية لأخرى بالزوارق (٢) • وقد أنشأوا على

---

(١) ولمصر عادة وسنة لم تزل منذ عهد فراعنتها فى استخراج خراجها وجباية أموالها واجتلاب قوانينها ، وذلك انه لا يستتم استيفاء الخراج من أهلها الا عند تمام الماء وافتراشه على سائر أراضيها وتطبيقها ويقع اتمامه فى شهر توت •

وبطوبة يطالب الناس بافتتاح الخراج ومحاسبة المتقبلين على الثمن من السجلات من جميع ما بايديهم من المحلول والمعقود ، وبامشير يؤخذ الناس فيه باتمام ربع الخراج من السجلات • وببرمهات يطلب الناس فيه بالربع الثانى والثمن من الخراج • وببرمودة المساحة على أهل الأعمال ، ويطالب الناس باغلاق نصف الخراج عن سجلاتهم ويحصد بدرى الزرع • وبيشنس تقرر المساحة ويطالب الناس بما يضاف الى المساحة من أبواب وجوه المال كالصرف والجهبذه وحق المراعى والقرط والكتان على رسوم كل ناحية ويستخرج فيه اتمام الربع وبابيب يستتم فيه ثلثة أرباع الخراج وهو أصل زيادة ماء النيل • وفى مسرى يغلق الخراج وفيه جمهور زيادة النيل • صورة الأرض لابن حوقل ١٣٦ — ١٢٧ •

وقال المقريزى (ج ١ ص ٩٧ — ٩٨) ومن أحسن السياسات فى أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق فى سيرة المعز لدين الله قال وفى هذا الشهر يعنى شوال سنة ٣٦٢ (٩٧٢) منع المعز لدين الله النداء بزيادة النيل وان لا يكتب بذلك الا اليه والى القائد جوهر فلما تم أباح النداء يعنى لما تم ست عشرة ذرعا وكسر الخليج • فتأمل ما أبدع هذه السياسة فان الناس دائما اذا توقف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلا يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون عن بيعها رجاء ارتفاع السعر ويجتهد من عنده مال فى خزن الغلة اما لطلب السعر أو لطلب ادخار قوت عياله فيحدث بهذا الغلاء فان زاد الماء انحل السعر والا كان الجدب والقحط ، ففى كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة •

(٢) وأكثر ما يصل أهل مصر بعضهم الى بعض عند زيادة النيل فى المراكب لأن الماء يحجب باحاطته أكثر مدنها وضياعها ويستولى عليها فى جميع أراضيها • فطرقات =

الشاطىء ، من أول الولاية لآخرها ، جسرا من الطين ، ليسير عليه الناس • وتصرف خزينة السلطان ، كل سنة ، للعامل المعتمد ، عشرة آلاف دينار مغربى ، لتجديد عمارته • ويجهز أهل هذه الولاية حاجاتهم الضرورية كلها لهذه الأشهر الأربعة التى تكون بلادهم آثناها مغمورة بالماء ويخبز كل شخص فى الريف ما يكفيه من الخبز هذه المدة ويقدده حتى لا يتعفن •

ونظام الفيضان هو الآتى :

يتزايد الماء أربعين يوما من بدء الفيضان ، الى أن يبلغ ثمانية عشر ذراعا ، ويبقى على هذا أربعين يوما ، لا يزيد ولا ينقص • ثم يتدرج نحو النقصان مدة أربعين يوما أخرى حتى يصل الى الحد الذى كان عليه فى الشتاء • وحينما يبدأ الماء فى التناقص يتبعه الزراع ، فكلما جفت بقعة زرعوها الزرع الذى يريدون ، وعلى هذا النحو زرعهم الصيفى والشتوى (١) • فلا يتطلب ماء اخر قط •

تقع مصر بين النيل والبحر ، والنيل يأتى من الجنوب ، ويتجه شمالا ، ويصب فى البحر • والمسافة من مصر الى الاسكندرية ثلاثون فرسخا •

وتقع الاسكندرية على شاطىء بحر الروم وشاطىء النيل • وتصدر منها بالسفن فاكهة كثيرة لمصر • وفى الاسكندرية منارة ، كانت قائمة وأنا هناك • وقد كان

= بعضهم الى بعض فى الماء بالمراكب أو من فوق الجسور الممتدة التى يصرف عليها اذ عملت كما ينبغى ربع الخراج •

صورة الأرض ص ١٣٧ وانظر المقريزى ج ١ ص ٩٨ •

(١) يقول المقريزى (ج ١ ص ٩٨) « فاذا تكامل رى ناحية من النواحى قطع اهلها الجسور المحيطة بها من امكنة معروفة عند خولة البلاد ومشايخها فى أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر عن أوقاتها المعتادة على حسب ما تشهد به قوانين كل ناحية من النواحى فتروى كل جهة مما يليها مع ما يجتمع فيها من الماء المختص ولولا اتقان ما هناك من الجسور وحفر الترع والخلجان لقل الانتفاع بماء النيل •• وقد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج » •

فوقهـا مرآة محـرقة ، فكلمـا جاءت سـفينة روميـة من القسطنطينية ، أصابتها نار من هـذه الحراقة فأحرقتها • وقد بذل الروم كثيرا من الجد والجهد والحيلة فبعثوا شخصا فكسر المرآة (١) • وفى عهد الحاكم ، سلطان مصر ، جاءه شخص وعرض عليه أن يعيدها كمـا كانت ، فقال الحـاكم لا حاجة الى ذلك ، فان الـروم يرسلون الينـا الآن الذهب والمال كل سنة ، وهم راضون بأن يذهب جيشنا اليهم • ونحن معهم فى سلام تام • وماء الشرب فى الاسكندرية من المطر • وصحراؤها مملـوءة بهـذه الأعمـدة المبعثرة التى قدمت وصفها (٢) •

---

(١) كثرت الأقوال فى منارة الاسكندرية ، وقد عدد المقريزى (ج ١ ص ٢٥١ وما بعدها) كثيرا من الروايات الخاصة بها ، ويقال انها قديمة جدا ، كانت مشيدة قبل الاسكندر ، وكان عليها مرآة من اخلاط شتى قطرها خمسة أشبار •• فكانوا اذا قصدهم قاصـد من الأمم التى حولهم عملوا لتلك المرآة عملا فالقت شعاعها على سفن العدو فأحرقتها • ولما جاء الاسكندر ، وكانت المنارة قد خرجت ، أعادها ووضع فوقها مرآة ليرى منها من يقصده من أعدائه ، وكانت من زجاج مدبر • وكانت مشفة بحيث تشاهد منها مراكب البحر على مسافة تعجز الأبصار عن ادراكها • ويروى المقريزى ، مؤيدا رواية ناصر ، فيقول ان ملك الروم أيام الوليد بن عبد الملك (٧٠٥/٨٦ ـ ٧١/٩٦) أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء ، فجاء مستأمنا الى بعض الثغور ••• فجاء الى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك وأنه اراد قتله لموجدة ، وأنه رغب فى الاسلام فأسلم على يد الوليد وتقرب من قلبه وتنصح اليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها •• بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن ، فلما صارت الى الوليد تلك الأموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين ان ها هنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك ، فسأله الوليد عن الخبر فقال : تحت منارة الاسكندرية أموال ملوك الأرض ، وذلك أن الاسكندر احتوى على الأموال التى كانت لشداد بن عاد وملوك مصر فبنى لها ازجا تحت الأرض ، وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجوهر ، وبنى فوق ذلك هذه المنارة ـ وكان طولها فى الهواء ألف ذراع والمرآة فى علوه والديادبة جلوس حولها فاذا نظروا الى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا لمن قرب منهم ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فيحترز الناس وتنذر البلد ، فلا يكون للعدو عليهم سبيل ـ فبعث الوليد مع الخادم بجيش من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة ، فضج الناس من هذا وعلموا أنها مكيدة ••• فلما علم الخادم استفاضة ذلك وأنه سينم الى الوليد وأنه قد بلغ ما يحتاج اليه هرب •

(٢) يقول عبد اللطيف البغدادى فى رحلته بمصر (ص ٤١ طبع المجلة الجديدة) : ورأيت بالاسكندرية عمود السوارى • ثم انى رأيت بشاطىء البحر ، مما يلى سور المدينة ، أكثر من أربعمائة عمود مكسرة أنصافا وأثلاثا ، حجرها من جنس حجر عمود السوارى ، ويظن البغدادى أن هذه الأعمدة كانت تسند سقفا كان من تحته الرواق الذى كانت تلقى =

ويمتد بحر الاسكندرية حتى القيروان ، التى يفصلها عن مصر مسافة مائة وخمسين فرسخا • والقيروان ولاية ، مدينتها الكبرى سجلماسة ، التى تقع على بعد أربعة فراسخ من البحر وهى مدينة كبيرة فى الصحراء وبها حصن محكم • وبجانبها المهدية التى بناها المهدى ، أحد أبناء أمير المؤمنين الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما ، بعد استيلائه على المغرب والأندلس ، وهى فى هذه الأيام تابعة لسلطان مصر • ويسقط البرد فى القيروان ، ولكنه لا يمكث على أرضها • ويتجه البحر شمالا ويسير ناحية اليمين الى الأندلس •

بين الأندلس ومصر ألف فرسخ • وسكانها جميعا مسلمون • وهى ولاية كبيرة جبلية ينزل فيها البرد ويتجمد، سكانها بيض وشعرهم أحمر واكثرهم كالصقالبة عيونهم كعيون القطط • وتقع الأندلس فى نهاية بحر الروم ، فالبحر شرقى بالنسبة لأهلها • واذا ذهب (السائر) من الأندلس ، شمالا جهة اليمين ، متتبعا الشاطىء ، فانه يبلغ بلاد الروم • وكثيرا ما يغزون الروم من الأندلس •

ومن الممكن أن يركب المسافر البحر الى القسطنطينية اذا أراد ، ولكن لابد من اجتياز خلجان كثيرة ، عرض كل منها مائتا فرسخ أو ثلثمائة فرسخ ، لا تجتازها الا سفن خاصة •

وقد سمعت من ثقة أن محيط هذا البحر أربعة آلاف فرسخ ، وأن فرعا منه يدخل بلاد الظلمات ، كما يقال ، وأن نهاية هذا الفرع متجمدة دائما لأن الشمس لا تبلغه •

ومن جزائر هذا البحر صقلية ، وتبلغها السفينة من مصر فى عشرين يوما • وهناك جزر كثيرة غيرها • ويقال ان صقلية ثمانون فرسخا فى ثمانين • وهى ملك سلطان مصر • وتغادرها ، كل سنة ، سفينة تحمل المال الى مصر • ويجلبون

فيه دروس الفلسفة كما كانت فيه خزانة الكتب التى يقال ان عمرو بن العاص احرقها (ص ٤٢) •

منها كتانا رقيقا وثيابا منقوشة ، يساوى الثوب منها ، في مصر ، عشرة دنانير مغربية ٠

واذا سار السائر من مصر شرقا يبلغ بحر القلزم ٠ والقلزم مدينة على شاطىء البحر بينها وبين مصر ثلاثون فرسخا ٠ وهذا البحر فرع من المحيط ، يتفرع عند عدن ويتجه نحو الشمال ، فاذا بلغ القلزم انقطع ، ويقال ان عرضه مائتا فرسخ ٠ ويفصله عن مصر جبال وصحراء لا ماء فيها ولا نبات ٠

ومن يريد الذهاب الى مكة ، من مصر ، يلزمه الاتجاه نحو الشرق ، فاذا بلغ القلزم وجد طريقين ، احدهما برى والآخر بحرى ٠ وهو يبلغ مكة عن الطريق الأول في خمسة عشر يوما ، في صحراء طولها ثلاثمائة فرسخ ، وتذهب عن هذا الطريق معظم القوافل الآتية من مصر ٠ فاذا سار عن طريق البحر يبلغ الجار في عشرين يوما ، وهى مدينة صغيرة من الحجاز تقع على شاطىء البحر ٠ ومنها الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ٠ ومن المدينة الى مكة مائة فرسخ ٠

فاذا جاوز الجار ، وواصل السير في البحر ، بلغ ساحل اليمن ، ومن هناك الى ساحل عدن ٠ فاذا جاوزه ينتهى الى الهند وهكذا حتى الصين ٠ واذا سار من عدن الى الجنوب ، مائلا نحو الغرب فانه يذهب الى زنجبار والحبشة وسأشرح ذلك في مكانه (١) ٠

واذا سار من مصر الى الجنوب ، وجاوز ولاية النوبة ، بلغ ولاية الصامدة ، وهى أرض ذات مراع واسعة وفيها دواب كثيرة ، وسكانها سود ، كبار العظام ، غلاظ ، اقوياء البنية ٠ يكثر الجند منهم في مصر ٠ وهم قباح الصورة ،

---

(١) هذه الجملة معناها أن الكتاب الذى بأيدينا مختصر عن نص أطول ، لأنه لم يرد فيه وصف لزنجبار أو الحبشة ٠ او أن المؤلف أراد أن يكتب عنها ثم لم يكتب ٠

ضخام الجثة ، يسمون المصامدة ، يحاربون راجلين بالسيف والحربة ، ولا يستطيعون استعمال غيرهما من الآلات ٠

وصف مدينة القاهرة :

أول مدينة يصل اليها المسافر من الشام الى مصر هي القاهرة ٠ وتقع مدينة مصر جنوبها ٠ وتسمى القاهرة « المعزية » ، ويقال للمعسكر « الفسطاط » ٠ يروى أن أحد ابناء أمير المؤمنين الحسين بن على صلوات الله عليهم أجمعين، وهو المعز لدين الله استولى على بلاد المغرب حتى الأندلس ، ثم سير جيشا نحو مصر ٠ وكان لابد لهذا الجيش أن يعبر النيل ، وهذا أمر غير مستطاع، أولا لأن النيل عظيم الاتساع، وثانيا لأنه مملوء بالتماسيح التى تجذب الى قاعه فى الحال كل من يعبر ٠ ويقال انه فى الطريق قرب مدينة مصر طلسم يحمى الانسان والدواب من هذا الشر ٠ ولكن أثره يبطل على مسافة رمية سهم من المدينة فلا يجرؤ احد أن يقترب من النيل (١) ٠ قيل ان المعز ارسل جيشه ، فنزل حيث القاهرة اليوم ٠ وقد أمر جنوده قائلا « حين تصلون الى النيل ينزل الماء أمامكم كلب أسود فيعبر النهر ، فاتبعوه واعبروا آمنين(٢) » ٠ قيل وقد بلغ هذا المكان ثلاثون الف فارس ، كلهم خدم المعز ٠ وقد انطلق الكلب سابحا أمامهم، وساروا على أثره ، وعبروا من غير حادث ٠ ولم يقل أحد

---

(١) وفى نيل مصر مواضع لا يضر فيها التمساح كمدوة بوصير والفسطاط ، صورة الأرض لأبى القاسم ابن حوقل النصيبى ٠ ليدن ١٩٣٨ ٠ ص ١٦٠ ٠

(٢) يذكر التغربردى فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » (ج ٤ ص ٣٠ ٠ طبع دار الكتب المصرية) أن جوهرا اخذ مخاضة منية شلقان (شرقى القناطر الخيرية مركز قليوب) ، فوصل اليه طائفة من العسكر فى مراكب فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح (من قواد المعز المشهورين ، ظل واليا على دمشق الى سنة ٣٦٠ اذ قتله الحسن بن أحمد القرمطى ، المعروف بالأعصم ـ راجع فى ترجمته تاريخ ابن خلكان ج ١ ص ١٥٨ طبع بولاق ـ) : « لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله » ، فعبر عريانا فى سراويل وهو فى موكب ومعه الرجال خوضا ، والتقى مع المصريين ، ووقع القتال بينهم ، وثبت كل من الفريقين ، فقتل كثير من الاخشيدية وانهزم الباقون بعد قتال شديد ٠

قط أن فارسا عبر نهر النيل راكبا • وكانت هذه الحادثة سنة ثلاث وستين وثلثمائة (٩٧٣) • وقد حضر السلطان الى مصر عن طريق البحر • فأفرغت السفن التى حضر بهـا ، قرب القاهرة ، وأخرجت من الماء ، وتركت كأنهـا أشـياء لا غناء فيها • وقد رأى راوى هذه القصة (ناصر خسرو) تلك السفن وهى سبع ، طول الواحدة مائة وخمسون ذراعا وعرضها سبعون • وقد مضى عليها هناك ثمانون سـنة • وكان ذلك سنة احدى وأربعين وأربعمائة (١٠٤٦) • حين بلغ الراوى هذا المكان •

وحين دخل المعز لدين الله مصر ، تقدم له بالطاعة قائد الجيش ، الذى ولاه خليفة بغداد • ونزل المعز بالجيش فى هذا الموضع الذى هو القاهرة اليوم • وقد سمى المعسـكر بالقاهرة ، لأن ذلك الجيش كان قاهرا (١) • وقد أمر المعز بأن لا يتجول أحد من جيشه فى المدينة أو يدخل بيت أحد • ثم أمر أن تبنى مصر فى هذه الصحراء وأن يشيد كل من

---

(١) اختلفت الروايات فى سبب هذه التسمية ، وقد ذكر التغربردى فى النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٤١) بعض هذه الروايات • والرواية التى يرجحها هى ما قيل من أن جوهرا حين دخل مصر بعسكر عظيم ، وملكها ، وجدها لا تنسع للجند والناس ، فاختط سور القاهرة وبنى بها القصور ، وسماها المنصورية ، وذلك فى سنة ٩٦٨/٣٥٨ • فلما قدم المعز العبيدى من القيروان (٩٧٢/٣٦٢) وغير اسمها وسماها القاهرة • قال والسبب فى ذلك أن جوهرا لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس ، وطالعا لرمى حجارته فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب وبين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس ، وأفهموا البنائين ساعة تحريك الأجراس أن يرموا ما فى أيديهم من المون والحجاره ، ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة وأخذ الطالع ، فاتفق وقوف غراب على خشبة من تلك الخشب ، فتحركت الأجراس ، وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين حركوها ، فالقوا ما بايديهم من الطين والحجارة فى الأساس ، فصاح المنجمون : لا ، لا • القاهرة فى الطالع ! ••• وكان غرض جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا ، فوقع أن المريخ كان فى الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهرة ••• فلما قدم المعز اليها وأخبر بهذه القصة ، وكان له خبرة بالنجامة ، وأفقهم على ذلك ، فغير اسمها وسماها القاهرة •

وقيل أيضا ان سبب هذه التسمية وجود قبة فى قصر بالمدينة تسمى القاهرة ، فسميت بها •

وقد رجع التغربردى الى كتابى المقريزى : اتعاظ الحنفا والخطط •

أفراد حاشيته بيتا، وهكذا بنيت المدينة التى قل نظيرها(١) .

وقدرت أن في القاهرة مالا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك السلطان ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين . والأربطة والحمامات والابنية الاخرى كثيرة لا يحدها الحصر، وكلها ملك السلطان ، اذ ليس لأحد أن يملك عقارا أو بيتا غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه ، وسمعت أن للسلطان ثمانية آلف بيت في القاهرة ومصر ، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر . يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شيء .

ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ، ولا يتصل به أى بناء ، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساويا لمدينة ميافارنين(٢)، وكل ما حوله فضاء ، ويحرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس . وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل والكوس من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر حتى الصباح . ويبدو هذا القصر ، من خارج المدينة ، كأنه جبل ، لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة . وهو لا يرى من داخل المدينة ، لارتفاع أسواره . وقيل ان به اثنى عشر ألف خادم مأجور، ومن يعرف عدد من فيه من النساء والجوارى ؟ الا أنه يقال

---

(١) ولما نزل جوهر القائد اختطت كل قبيلة عرفت بها ، فزويلة البابين المعروفين ببابى زويلة ، وهما البابان اللذان عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين ، وهما بابا القاهرة ، وهكذا .. النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) قصر السلطان يطلق على مجموعة من القصور منها القصر الصغير الغربى ، والقصر اليافعى ، وقصر الذهب ، وقصر الأفيال ، وقصر الظفر ، وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد ، وقصر الحريم ، وقصر البحر (المحول) ، وهى كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير الشرقى ، ويقال لها القصور الزاهره . كان هذا القصر فى الجهة الشرقية من القاهرة ، وقد أمر ببنائه المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٩٥٢/٣٦٥ ـ ٩٧٥) ونفذ الأمر قائده جوهر الصقلى ، ولذا فانه يسمى القصر المعزى ، وكان ابتداء بنائه مع وضع أساس سور القاهرة سنة ٩٦٨/٣٥٨ وفى سنة ٩٦٩/٣٥٩ ركب عليه بابين وفى سنة ٩٧٠/٣٦٠ أدار عليه سورا محيطا به . وهذا القصر كان دار الخلافة وبه سكن الخلفاء الفاطميون الى آخر أيامهم (المقريزى ج ٢ ص ٢١٤) .

ان به ثلاثين ألف آدمى(١) • وهذا القصر يتكون من اثنى عشر بناء • وله عشرة أبواب فوق الأرض • فضلا عن أبواب أخرى تحتها ، وأسماء أبوابه الظاهرة هى : باب الذهب ، باب البحر ، باب السريج ، باب الزهومة ، باب السلام ، باب الزبرجد ، باب العيد ، باب الفتوح ، باب الزلاقة ، باب السرية(٢) ، وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا، وهذا الباب على سرداب يؤدى الى قصر آخر خارج المدينة • ولهذا السرداب الذى يصل بين القصرين سقف محكم ، وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قدت من صخر واحد • ويتألف القصر من المناظر والايوانات العالية • وقد داخله دهليز به دكك •

وأركان الدولة ، والخدم ، من العبيد السود أو الروم • والوزير رجل يمتاز عن الجميع بالزهد والورع والأمانة والصدق والعقل •

ولم يكن شرب الخمر مباحا ، أعنى أيام الحاكم الذى حرم على النساء الخروج من بيوتهن • وما كان أحد يجفف العنب فى بيته لجواز عمل السيكى (نوع من الشراب) منه • ولم يكن أحدهم يجرؤ على شرب الخمر ، ولا كانوا يشربون الفقاع ، فقد قيل انه مسكر ، فهو محرم •

---

(١) عندما استولى صلاح الدين الأيوبى على هذا القصر ، أحرج من كانوا فيه ، فبلغ عددهم اثنا عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده ، (المقريزى ج ٢ ص ٢١٥) •

(٢) ذكر المقريزى النغربردى بعض هذه الأسماء ، مع اختلاف ، وقد صحح ناشر التغربردى (ج ٤ ص ٣٦ ملحوظة ٤) باب السرية بباب التربة ، وقال انه يعرف ببابه تربة الزعفران كما جاء فى خطط المقريزى ، وعندى أن تسمية ناصر ، لكونه أقدم ، أقرب الى الصحة • وأما باب السريج فليس مذكورا فى الكتابين المذكورين ، وذكر ناشر النجوم الزاهرة فى ملحوظاته (ص ٤٦ ج ٤) أن الباب التاسع للقصر يسمى باب الريح الذى كان يقع مكان البناء رقم ٢٥ من شارع التمبكشية بجوار جامع جمال الدين (الجامع المعلق) قرب الصاغة ، وأرجح أن تكون كلمة السريج تحريفا لكلمة الريح • فهو باب الريح لا السريج •

وقد ذكر التغربردى (ج ٤ ص ٣٥ ــ ٤٦) أن من أبواب القصر : باب العبد ، باب الزمرد ، باب الذهب ، باب الزهومة ، باب قصر الشوك •

وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر ، وباب الفتوح ، القنطرة ، وباب الزويلة ، وبا بالخليج ، وليس للمدينة قلعة ، ولكن آينيتها آقوى وأكثر ارتفاعا من القلعة ، وكل قصر حصن • ومعظم العمارات تتآلف من خمس أو ست طبقات •

ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاءون على الجمال • والآبار • القريبة من النيل عذب ماؤها ، وأما البعيدة عنه فماؤها ملح • ويقال ان فى القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاءون الروايا ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره فى الجرار النحاسية أو القرب، وذلك فى الحارات الضيقة التى لا تسير فيها الجمال •

وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار • وفى قصر السلطان بساتين لا نظير لها ، وقد نصبت السواقى لريها • وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات •

وحين كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعا فى اثنى عشر ذراعا بخمسة عشر دينارا مغربيا فى الشهر • والمنزل الذى أقمت فيه ، كان أربعة أدوار ، ثلاثة منها مسكونة ، والرابع خال ، وقد عرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية ، فرفض معتذرا بأنه يلزمه أن يقيم به أحيانا ، ولو أنه لم يحضر مرتين فى السنة التى أقمتها هناك •

وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة • وهى بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت ،

من هدم أو اصلاح ، دون أن يضايق جاره (١) .

ويرى السائر ، خارج المدينة ، ناحية الغرب ، ترعة كبيرة تسمى « الخليج » حفرها والد السلطان . وله على شاطئيها ثلاثمائة قرية . ويبتدىء « فم الخليج » من مدينة مصر ويمر بالقاهرة ويدور بها مارا أمام قصر السلطان . وقد شيد على رأسه قصران ، أولهما « قصر اللؤلؤة » ، وثانيهما « قصر الجوهرة (٢) » .

---

(١) والقاهرة استحدثها جوهر لجيشه وشمله وحاشيته وقد ضمت من المحال والأسواق وحوت من أسباب القنية والارتفاق بالحمامات والفنادق الى قصور مشيدة ونعم عتيدة وقد أحدق بها سور رفيع يزيد على ثلاثة اضعاف ما بني بها . صوره الأرض لأبى القاسم بن حوقل النصيبي . ليدن ١٩٣٨ ص ١٤٧ .

(٢) منظرة اللؤلؤة وتعرف أيضا بقصر اللؤلؤة ، تقع قرب باب القنطرة وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد متنزهات الدنيا المذكورة ، فانه كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ويطل من غربيه على الخليج ، وكان غربى الخليج اذ ذاك ليس فيه من المباني شيء ، وانما كان فيه بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبليها ، ويرى بحر النيل من وراء البساتين . قال ابن ميسر :

هذه المنظرة بناها العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٩٧٥/٣٨٥ ـ ٩٩٦) ، ولما ولى برجوان وزاره الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٩٩٦/٤١١ ـ ١٠٢٠) سكن بمنظرة اللؤلؤة الى أن قتل ، أيام الحاكم وظل بها الى أن قتل سنة ٩٩٩/٣٩٠) ، وفى سنة ١٠١١/٤٠٢ أمر الحاكم (الأستاذ أبو الفتوح برجوان الصقلى ، كان عبدا أسود من عبيد العزيز بالله وولى الوزارة بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها وبيع ما فيها . وفى أيام الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ ـ ١٠٢٠/٤٢٧ ـ ١٠٣٦) أعيد بناء اللؤلؤة ، وكانت عادة الخلفاء ان يقيموا بها أيام النيل . وقد أقام بهذا القصر نجم الدين والد صلاح الدين بعد وفاة العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين (٥٥٥ ـ ١١٦٠/٥٦٧ ـ ١١٧١) ، وقد اجتمع بهذا القصر فى ذلك الوقت ، الشاعران الفقيه نجم الدين عمارة اليمنى وأبو سالم يحيى بن حصيبة فأنشد الأخير لنجم الدين قائلا :

يا ملك الأرض لا أرضى له طرفا ... منهـا وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل الله هذى الدار تسكنها ... وقـد أعـد لك الجنـات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنهـا ... فالبس بها العز ولتلبس بك الشرفا
كانوا بهـا صـدفا والدار لؤلؤة ... وأنت لؤلؤة صـارت لهـا صدفا

وفى القاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة) ، الأزهر وجامع النور وجامع الحاكم وجامع المعز . والأخير خارج القاهرة على شاطىء النيل .

ويتوجه المصريون نحو مطلع الحمل حين يولون وجوههم شطر القبلة .

وبين مدينتى مصر والقاهرة أقل من ميل ، والأولى فى الجنوب والثانية فى الشمال . ويمر النيل بهما ، وبساتينهما وبيوتهما متصلة وتغمر المياه الوادى بأجمعه فى الصيف كأنه بحر ، عدا حديقة السلطان لأنها على مرتفع .

وصف فتح الخليج :

حين يبلغ النيل الوفاء ، أى من العاشر شهر يور (أغسطس وسبتمبر) الى العشرين من آبان (أكتوبر ونوفمبر) ، ويبلغ ارتفاع الماء عشرين ذراعا عن مستواه فى الشتاء ، وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة فى البلاد كلها ، يحضر السلطان راكبا ليفتح هذا النهر الذى يسمى « الخليج » ، والذى يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة . وهو ملك خاص للسلطان . وفى ذلك اليوم (يوم ركوب السلطان لفتح الخليج) تفتح الخلجان والترع الأخرى فى الولايات كلها .

وهذا اليوم من أعظم الأعياد فى مصر ، ويسمى « عيد ركوب فتح الخليج » .

فغضب الفقيه نجم الدين مما فى هذا الشعر من عدم الوفاء وقال :

اثمت يا من هجا السادات والخلفا	وقلت ما قلته فى ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة	والعرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وانما هى دار حل جوهرهم	فيها وشفت فاسناها الذى وصفا
فقال لؤلؤة عجبا ببهجتها	وكونها حوت الأشراف والشرفا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه	من البرية الا كل من عرفا

وقد قتل هذا الشاعر الوفى بعد ذلك ، لأنه أبى أن يغير عقيدته عندما تغيرت الدول .

(المقريزى طبع المليجى ج ٢ ، ص ٣٤٨ والنجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٦) .

حينما يقترب هذا الموسم ، ينصب للسلطان على رأس الخليج سرادق عظيم التكاليف من الديباج الرومى ، وموشى كله بالذهب ، ومكلل بالجواهر ، ومعد أعظم اعداد ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس • وأمام هذا السرادق خيمة من البوقلمون وسرادق آخر كبير •

وقبل الاحتفال بثلاثة أيام يدقون الطبل وينفخون البوق ويضربون الكوس فى الاصطبل ، لتألف الخيل هذه الأصوات •

ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبة ، وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون ، نسجت لهذا الغرض خاصة ، فلم تفصل ولم تخط ، وطرزت حواشيها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان درع او جوشن • على قمة السرج خوذة جميع أنواع الأسلحة الأخرى • وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هوادج مزينة ، وبغال عمارياتها (هوادجها) كلها مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة باللؤلؤ ، وان الكلام ليطول اذا ذكرت كل ما يكون فى يوم فتح الخليج •

فى ذلك اليوم ، يخرج جيش السلطان كله ، فرقة فرقة، وفوجا فوجا ، ولكل جماعة اسم وكنية •

فرقة تسمى « الكتاميين » • وهم من القيروان ، أتوا فى خدمة لدين الله • وقيل انهم عشرون ألف فارس •

وفرقة تسمى « الباطليين » • وهم رجال من المغرب ، دخلوا مصر قبل مجيء السلطان اليها • وقيل انهم خمسة عشر ألف فارس •

وفرقة تسمى «المصامدة» • وهم سود من بلاد المصامدة، قيل انهم عشرون ألف رجل •

وفرقة تسمى « المشارقة » • وهم ترك وعجم • وسبب هذه التسمية أن أصلهم ليس عربيا ، ولو أن معظمهم ولد فى مصر ، وقد اشتق اسمهم من الأصل ، قيل انهم عشرة آلاف رجل ، وهم ضخام الجثة •

وفرقة تسمى « عبيد الشراء » • وهم عبيد مشترون ، قيل انهم ثلاثون ألف رجل •

وفرقة تسمى « البدو » • وهم من أهل الحجاز ، وكلهم يجيدون حرب الرماح ، قيل انهم خمسون ألف فارس •

وفرقة تسمى « الأستاذيين » • كلهم خدم بيض وسود ، اشتروا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس •

وفرقة تسمى « السرائيين » • وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ، لهم قائد خاص ، يتولى رعايتهم ، كل منهم يستعمل سلاح ولايته ، وعددهم عشرة آلاف رجل •

وفرقة تسمى « الزنوج » يحاربون بالسيف وحده • قيل انهم ثلاثون ألف رجل •

ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال • ولكن هؤلاء يسلمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصرف أرزاق الجند من الخزانة فى وقت معين ، بحيث لا يرهق وال أو واحد من الرعية بمطالبة الجند (١) •

---

(١) يقول القلقشندى فى صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤٧٨) فى كلامه عن طوائف الأجناد : « وكانوا عدة كثيرة ، تنسب كل طائفة منهم الى من بقى من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم ، كالحافظية والآمرية من بقايا الحافظ والآمر ، أو الى من بقى من بقايا وزير من الوزراء الماضين كالجيوشية والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالى وولده الأفضل ، أو الى من هى منتسبة اليه فى الوقت الحاضر كالوزيرية ، أو غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة ، أو من المستصنعين كالروم والفرنج والصقالبة ، أو من السودان من عبيد الشراء ، أو العتقاء وغيرهم من الطوائف ، ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم » •

وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا لمصر من أطراف العالم ، ولا يعدون من الجيش . ومن بين هؤلاء أولاد خسرو دهلى ، وقد أتت أمهم معهم ، وأولاد ملوك الكرك (جورجيا) ، وأبناء ملوك الديلم ، وأبناء خاقان تركستان (١) .

وكذلك وجد في يوم فتح الخليج طبقات أخرى من الرجال من ذوى الفضل والأدباء والشعراء والفقهاء ولكل منهم أرزاق معينة . ولا يقل رزق الواحد من أبناء الأمراء عن خمسمائة دينار وقد يبلغ الألفين ، وليس لهم عمل الا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حين يركب ثم يعودون .

والآن نعود الى حديث فتح الخليج .

في اليوم الذى ذهب السلطان في صباحه لفتح الخليج، استأجروا عشرة آلاف رجل أمسك كل واحد منهم احدى الجنائب التى ذكرتها ، وساروا مائة مائة ، وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار . وسار خلفهم فوج من الجيش . مشى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخليج ، أتت الجمال وعليها المهود والمراقد ، ومن بعدها البغال وعليها العماريات .

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجنائب ، وهو شاب كامل الجسم ، طاهر الصورة من أبناء أمير المؤمنين حسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهما . كان حليق شعر الرأس ، يركب على بغل ليس في سرجه أو لجامه حلية ، فليس عليه ذهب أو فضة . وقد ارتدى قميصا أبيض ، عليه « فوطة » فضفاضة ، كالتى تلبس فى بلاد المغرب (٢) ، والتى تسمى فى بلاد العجم « دراعة » ، وقيل ان اسم هذا

---

(١) من هذا نتبين البعثات التى كانت تفد على مصر للتوسع فى معرفة المذهب الفاطمى .

(٢) يقصد ما يلبس فى بلاد المغرب ويسمى الحرام ، والنص الفارسى يقول « العرب » وهو خطأ مطبعى ظاهر .

القميص « الديبقى(١) » ، وانه يساوى عشرة آلاف دينار . وكان على رأسه عمامة من لونه ، ويمسك بيده سوطا ثمينا . وأمامه ثلثمائة راجل ديلمي ، عليهم ثياب رومية مذهبة . وقد حزموا خصورهم ، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر . ومعهم النشاشيب والسهام ، وقد عصبوا سيقانهم .

ويسير مع السلطان حامل المظلة ، راكبا حصانا ، وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة ، وعليه حلة قيمتها عشرة الاف دينار ذهبى مغربى . والمظلة التى بيده ثمينة جدا ، وهى مرصعة ومكللة . وليس مع السلطان فارس غير حامل المظلة (٢) . وقد سار أمامه الديالمة ، وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم ، يحملون المجامر ويحرقون العنبر والعود .

والعادة فى مصر أن يسجد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما قرب منهم .

وجاء بعد السلطان الوزير مع قاضى القضاة وفوج كبير من أهل العلم وأركان الدولة . وقد ذهب السلطان الى حيث ضرب الشراع على رأس سد الخليج أى فى النهر . وظل ممتطيا البغل تحت السرادق مدة ساعة ، وبعد ذلك سلموه مزراقا ليضرب به السد . ثم عجل الرجال بهدمه بالمعاول والفؤوس والمخارف ، فانساب الماء ، وقد كان مرتفعا ، وجرى دفعة واحدة فى الخليج .

---

(١) لعله يقصد « الديبقى » وهو نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التى كانت تصنع فى ديبق ، وهى بلدة بمصر قديمة وكانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس وموضعها اليوم تل ديبق فى الشمال الشرقى لقرية صان الحجر . تعليقات النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٨١ .

(٢) والمظلة التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه هى قبة مبنية خيمة على رأس عمود كالمظلة التى يركب بها السلطان الآن ، وكانت اثنى عشر شوزكا عرض سفل كل شوزك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلث ، وآخره من أعلاه دقيق للغاية ، بحيث يجتمع الاثنا عشر شوزكا فى رأس عمود بدائرة وعمودها منطارية من الزان ملبسة بأنابيب الذهب ، وفى آخر أنبوبة ثلثى رأس العمود فلكة بارزة مقدار عرض ابهام تشد آخر الشوازك فى حلقة من ذهب ، وتنزل رأس الرمح . ولها عندهم مكانة لعلوها رأس الخليفة وحاملها من أكبر الأمراء ، وله عندهم التقدم والرفعة ، لحمل ما يعلو رأس الخليفة .

صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٩ ، ٤٧٩ (طبعة دار الكتب الملكية)

في هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج ، وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة ·

وكان في أول سفينة نزلت الخليج جماعة من الخرس يسمون بالفارسية « كدك ولال » ، لعلهم يتفاءلون بنزولهم · ويجرى السلطان عليهم صدقاته في هذا اليوم ·

وكان للسلطان احدى وعشرون سفينة ، وقد عمل لها حوض خاص قرب القصر ، في اتساع ميدانين أو ثلاثة ، وطول كل سفينة منها خمسون ذراعا وعرضها عشرون ذراعا ، وكلها مزينة بالذهب والفضة والجواهر الديباج ، ولو وصفتها لسطرت أوراقا كثيرة · وهذه السفن كلها مربوطة في الحوض ، معظم الوقت ، كالبغال في الاصطبل ·

★★★

وللسلطان حديقة تسمى « حديقة عين شمس » ، على فرسخين من القاهرة · وهناك عين ماء عذبة سمى البستان بها · ويقال ان هذه الحديقة كانت لفرعون · وقد رأيت قربها بناية قديمة بها أربع قطع من الحجارة الكبيرة ، كل قطعة مثل المنارة ، وطول كل منها ثلاثون ذراعا ، وكان الماء يقطر من رؤوسها ، ولا يدرى أحد ما هى(١)؟ وفى الحديقة شجرة البلسان(٢)، يقال ان آباء هذا السلطان أتوا ببذرتها

---

(١) يقول عبد اللطيف البغدادى فى رحلته بمصر (٤١ طبع المجلة الجديدة) : وفى عين شمس المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون ·· ورأيت احدى المسلتين وقد خرت وانصدعت من نصفها لعظم الثقل وأخذ النحاس من رأسها (فقد كان على رأس كل مسلة قلنسوة نحاس الى ثلاثة أذرع منها كالقمع) ثم ان حولها من المسال شيئا كثيرا ·

(٢) « وبعين شمس الى ناحية الفسطاط نبت يزرع كالقضبان يسمى البلسم ينخذ منه دهن البلسان لا يعرف بمكان من الأرض الا هناك ويؤكل لحاء هذه القضبان فيكون له طعم صالح وفيه حرارة وحروفة لذيذة » · كتاب صورة الأرض لأبى القاسم بن حوقل النصيبى طبع ليدن سنة ١٩٣٨ ص ١٦٠ ـ ١٦١ ·

وذكر عبد اللطيف البغدادى فى كتابه ص ٢٢ ان البلسان من مصر « وانه لا يوجد اليوم الا بها ، بين شمس ، فى موضع محاط عليه ، محتفظ به ، مساحته نحو سبعة أفدنة وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين واذا مضغ ظهر فى الفم منه دهنية ورائحة عطرة وورقه شبيه بورق السنداب ،

من بلاد المغرب وزرعوها في الحديقة ولا يوجد غيرها فى جميع الآفاق • وهى غير معروفة فى بلاد المغرب • ومع أن لهذه الشجرة حبا الا أنه لا ينبت حيثما زرع ، واذا نبت فلا يخرج الزيت منه ، وهذه الشجرة مثل شجرة الاس . يشذبون غصونها بالنصل حينما تكبر ، ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن كالصمغ ، وحين ينفد ما فيها من دهن تجف • ويحمل البستانيون غصونها الى المدينة ويبيعونها ، ولحاؤها ثخين ، وطعمه كاللوز حين يقشر • وينبت فى جزعها أغصان فى السنة التالية فيعملون بها كما فعلوا فى السنة الغابرة •

★★★

ولمدينة القاهرة عشر محلات • وهم يسمون المحلة حارة وهى حارات : برجوان (١) وزويلة(٢) والجودرية(٣)

ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى بان تشدخ السوق بعد ما يحت عنها جميع ورقها • وشدخها يكون بحجر يتخذ محددا ، ويفتقر شدخها الى صناعة ، بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل ، شقا لا ينفذ الى الخشب ، فان نفذ الى الخشب لم يخرج منه شيء ، واذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما لثاه على العود فجمعه باصبعه مسحا الى قرن فاذا امتلأ صبه فى قنانى زجاج ، ولا يزال كذلك حتى ينتهى جناه وينقطع لثاه ، وكلما كثر الندى فى الجو كان لثاه أكثر واغزر ، وفى الجدب وقلة الندى يكون اللثا أنزر • ومقدار ما أخرج منه فى سنة ٥٩٦/١١٧٣ وهى عام جدب نيف وعشرون رطلا • ثم تؤخذ القنانى فتدفن الى القيظ ، وحمارة الحر ، وتخرج من الدفن ، وتجعل فى الشمس ، ثم تتفقد كل يوم ، فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية واثقال ارضية ، فيقطف الدهن ، ثم يعاد الى الشمس ، ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن ، فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمة فى الخفية لا يطلع على طبخه أحدا ثم يرفعه الى خزانة الملك ... ورايت جالينوس يقول ان أجود دهن البلسان ما كان بارض فلسطين واضعفه ما كان بمصر • ولا نجد اليوم منه بفلسطين شيئا البتة » •

(١) تنسب الى الخادم برجوان ، من خدم القصر أيام العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦/ ٩٧٥=٩٩٦) وكان لبرجوان هذا شسان فى أيام الحاكم بامر الله (٣٨٦ ـ ٤١١/ ٩٦٦ ـ ١٠٢٠) ولقب بالواسطة وبمدبر الدولة • وكان يتولى أمور مصر والشام والحجاز والمغرب • وأمر الحاكم أبا الفضل ريدان بان يقتله فقتله سنة ٣٩٠/١٠٠٠ • وتقع هذه الحارة اليوم فى قسم الجمالية •

راجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٨ وشيفر ص ١٤٤ •

(٢) زويلة اسم ضاحية فى القيروان كما أنه اسم بلدة صغيرة بجوار المهدية التى

والامراء (٤) والديالمة (٥) والـروم (٦) والباطليـة (٧) وقصر الشوق (٨) وعبيد الشرا (٩) والمصامدة (١٠) ٠

بناها عبد الله المهدى (٢٩٧ ـ ٩٠٩/٣٢٢ ـ ٩٣٣) وقد سمى المكان باسم القبيلة التى سكنته ٠ وقد سكن أفراد هذه القبيلة حارة سميت باسمهم ـ زويلة ـ فى مصر ، كانت أكبر حاراتها ٠ وتعرف اليوم باسم حارة اليهود (شارع الموسكى) ٠ النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥٢ ٠

(٣) تنسب الى جماعة ينسبون الى جودر خادم المهدى ، كان عددهم ٤٠٠ ، وتقع فى دائرة قسم الدرب الأحمر ٠ النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥١ ٠

(٤) غير اسمها أيام صلاح الدين ، حين سكنها الملك المعظم توران شاه ، بعد مجيئه من الشام ، وسميت درب شمس الدولة ، نسبة اليه ٠ وتقع بين شارع السكة الجديده وشارع الحمزاوى الصغير ٠ النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥٢ ٠ وشيفر ص ١٤٤ ٠

(٥) تنسب الى ساكنيها من الديلم الذين صحبوا افتكين المعزى غلام معز الدولة البويهى (٣٤٤ ـ ٩٥٥/٣٦٥ ـ ٩٧٥) حين قدم أولاده الى القاهرة ٠ وكانت كبيرة ، تشمل ثلاث حارات ، حارة الكحكيين ، ودرب الأتراك ، وخوش قدم ، حيث يوجد للآن زقاق مشهور بحبس الديلم ٠ وكذلك سكن حارة الديلم جماعة من الأمراء والأعيان فأطلق عليها اسم حاره الأمراء ٠ النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٣ ورجع الناشر الى الخطط التوفيقية ج ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

(٦) وهى حارتان ، حارة الروم المشهورة اليوم والتى تقع فى قسم الدرب الأحمر ، وحارة الروم الجوانية تنسب للأشراف الجوانيين ، وهى تقع فى قسم الجمالية والوراقون يكنبون حارة الروم السفلى ، وحارة الروم العليا ٠ وعندما غضب الحاكم بأمر الله على الروم أمر بنهب الحارتين وهدمهما (١٧ ذى الحجة ١٠/٣٩٩ أغسطس ١٠٠٩) ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٢ وشيفر ص ١٤٥ ٠

(٧) تقع فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر ، ويدل على موضعها شارع الباطنية ٠ قال التغربردى (النجوم ج ٤ ص ٤٦) ان المعز لدين الله العبيدى لما قسم العطاء فى الناس ، جاءت اليه طائفة فسألت العطاء فقيل : فرغ المال ٠ فقالوا : رحنا نحن بالباطل ، فسموا الباطلية وعرفت الحارة بهم ٠

(٨) يعرف بهذا الاسم شارع قرب أم الغلام بسيدنا الحسين ٠ وهو فى الأصل قصر بناه الفاطميون فى تلك الجهة ٠

(٩) يظهر أن هذه كانت احدى حارات حى الحسينية ، نسبة الى الأشراف الحسينيين ، وهى حارة حامد والمنشية الكبرى والمنشية الصغرى والحارة الكبيرة والحارة الوسطى التى كانت هى لعبيد الشراء والوزيرية والسوق الكبير وبين الحارتين ٠ وعبيد الشراء فرقة فى الجيش ٠ النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٥ ـ ٤٦ ٠

(١٠) المصامدة فرقة مهمة فى الجيش المصرى أيام الفاطميين ، قال ناصر ان عددهم كان عشرين ألف رجل ٠ وقد سكنوا حارة سميت باسمهم قرب بركة الفيل ٠

وصف مدينة مصر :

شيدت مصر على ربوة · وجانبها الشرقي جبلي يتكون من جبال حجرية غير عالية كالتلال · وفي طرف المدينة جامع ابن طولون · وهو مشيد على ربوة وله جداران محكمان ، ولم أر أعظم منهما غير جدار آمد وميافارقين · وقد بناه أمير من أمراء العباسيين كان حاكما على مصر · وفي أيام الحاكم بأمر الله ، جد هذا السلطان (المستنصر) باعه احفاد ابن طولون بثلاثين ألف دينار مغربي · وبعد مدة شرعوا في هدم المئذنة بحجة أنها لم تبع · فأرسل لهم الحاكم قائلا : « لقد بعتموني هذا المسجد فكيف تهدمونه ؟ » فأجابوا : « نحن لم نبع المئذنة » · فأعطاهم خمسة آلاف دينار ثمنا لها · وكان السلطان يصلي في هذا المسجد طوال شهر رمضان، وأيام الجمع من بقية الشهور ·

ومدينة مصر مشيدة على ربوة ، خشية فيضان الماء عليها ، وهذه الربوة كانت مغطاة ، في وقت ما ، بأحجار كبيرة جدا ، فكسرت وسويت · ويقال الان للأماكن التي لم تسو « عقبة » · وتبدوا مصر كأنها جبل ، حين ينظر اليها من بعيد ·

وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات (١) · وسمعت من ثقات أن شخصا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار ، وحمل اليها عجلا رباه فيها حتى كبر ، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء الى الحديقة من البئر · وزرع على هذا السطح شجر

---

(١) والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذه ، ذات رحاب في محالها واسواق عظام ، ومتاجر فخام وممالك جسام ، الى ظاهر انيق وهواء دقيق وبساتين نضره ومتنزهات على مر الايام خضرة ·

والدار يكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات وربما سكن في الدار المائتان من الناس · صورة الأرض ص ١٤٦ ·

النارنج والموز وغيرهما . وقد أثمرت كلها ، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى .

وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دورا كثيرة فيها حجرات الاستغلال أى للايجار ، ومساحتها ثلاثون ذراعا فى ثلاثين، وتسع ثلاثمائة وخمسين شخصا . وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما ، لأن الضوء لا يصل الى أرضها ، ويسير فيها الناس .

وفى مصر سبعة جوامع ، غير جوامع القاهرة . والمدينتان متصلتان . وفيهما معا خمسة عشر جامعا (مسجد جمعة) . وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة فى كل حى منهما .

وفى وسط سوق مصر جامع يسمى « باب الجوامع » . شيده عمرو بن العاص ، أيام امارته على مصر من قبل عمر ابن الخطاب (١) . وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام . والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بالواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل. ويحيط بالمسجد ، من جهاته الأربع ، الأسواق ، وعليها تفتح أبوابه . ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ، ولا يقل من فيه ، فى أى وقت ، عن خمسة آلاف، من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها . قد اشترى الحاكم بأمر الله هذا المسجد من أبناء عمرو بن العاص ، وكانوا قد ذهبوا اليه وقالوا : « نحن فقراء معوزون وقد بنى جدنا هذا المسجد فاذا أذن السلطان نهدمه ونبيع أحجاره ولبناته » فاشتراه الحاكم بمائة ألف دينار وأشهد على ذلك كل أهل مصر ، ثم أدخل عليه عمارات كثيرة وعجيبة منها

(١) قال فى النص معاوية وهو خطأ ظاهر من الناسخ . وقد صحح شيفر (١٤٧) كلمة باب الجوامع بتاج الجوامع وهو الجامع العتيق الذى أنشاه عمرو بن العاص سنة ٦٤٢/٢١ . وقد ذكر المقريزى ما أجراه الحاكم من اصلاحات فيه (ج ٢ ص ٢٤٦ ــ ٢٥٦) .

ثريا فضية لها ستة عشر جانبا ، كل جانب منها ذراع ، ونصف دائرتها أربع وعشرون ذراعا ·

ويوقدون فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل · ويقال ان وزن هذه الثريا خمسة وعشرون قنطارا فضة . كل قنطار مائة رطل وكل رطل أربعة وأربعون ومائة درهم · ويقال انه حين تم صنعها لم يتسع لها باب من ابواب المسجد لكبرها ، فخلعوا بابا وأدخلوها منه ثم ردوا الباب مكانه · ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصير الجميل الملون بعضها فوق بعض ، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل ·

وفى هذا المسجد مجلس قاضى القضاة ·

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى « سوق القناديل » لا يعرف سوق مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف · ورايت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها · ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بورا غاية فى الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب · وقيل انه ظهر حديثا ، عند بحر القلزم ، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب · ورايت انياب الفيل ، أحضرت من زنجبار ، كان وزن كثير منها يزيد على مائتى من · كما أحضر جلد بقر من الحبشة ، يشبه جلد النمر ، ويعملون منه النعال · وقد جلبوا من الحبشة طائرا أليفا كبيرا ، به نقط بيضاء وعلى راسه تاج مثل الطاووس ·

وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا ·

وفى اليوم الثالث من شهرى دى القديم (ديسمبر — يناير) من السنة الفارسية ست عشرة واربعمائة رايت فى يوم واحد هذه الفواكه والرياحين : الورد الاحمر والنيلوفر والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين الريحان الملكى السفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليلج (الاهليلج)

والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر •

كل من يفكر كيف تجتمع هـذه الأشـياء التى بعضها ربيعى ، وبعضها صيفى وبعضها شتوى ، لا يصدق هـذا • ولكن ليس لى قصد فيما ذكرت ، ولم أكتب الا ما رأيت ، وأما ما سمعته ثم كتبته ، فليست عهدته على • وولاية مصر عظيمة الاتساع ، بها كل أنواع الجو من البارد والحار • وتجلب كل الحاجيات لمدينـة مصر من جميع البـلاد ويباع بعضها فى الأسواق •

ويصنعون بمصر الفخـار من كل نـوع ، وهو لطيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والاقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونونها بحيث تشبه البلوقلمون يلون مختلف فى كل جهـة تكون بهـا ، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن •

وسـمعت من بزاز ثقـة أن وزن الدرهم الـواحد من الخيط يشترى بثلاثة دنانير مغربية وهى تساوى ثلاثة دنانير ونصف نيشابوريه • وقد سألت فى نيشابور ، بكم يشترون أجـود الخيط ، فقالوا ان الخيط الذى لا نظـير له يشترى الدرهم منه بخمسة دراهم •

ومدينة مصر ممتدة على شاطىء النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة ، بحيث اذا احتاجوا الى الماء رفعوه بالحبال من النيل • أما ماء المدينة فيحضره السـقاءون من النيـل أيضا • يحمله بعضهم على الابل وبعضهم على كتفه • ورأيت قدورا من النحاس الدمشقى ، كل واحد منها يسـع ثلاثين منا ، وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب • وقد حكوا لى أن امرأة تملك خمسة آلاف قدر ، وأنها تؤجر الواحـد منها بدرهم فى الشهر ، وينبغى أن يردها المستأجر سليمة •

وأمام مصر جزيرة ، وسط النيل ، كان عليها مدينة في وقت ما ، والجزيرة غربي المدينة ، وبها مسجد جمعة وحدائق • وهي صخرة وسط النهر ، تقسمه قسمين ، كل منهما في اتساع جيحون ، ولكن أكثر هدوءا وبطأ في جريانه • وثبت بين الجزيرة والمدينة جسر من ست وثلاثين سفينة (١) •

ويقع جزء من مدينة مصر على جانب النيل الاخر ، ويسمونه الجيزة ، وبها مسجد لصلاة الجمعة • ولكن ليس بها جسر ، ولذا يعبر الناس بالزوارق او بالمعابر ، وهي كثيرة في مصر ، أكثر مما في بغداد أو البصرة •

وتجار مصر يصدقون في كل ما يبيعون ، واذا كذب أحدهم على مشتر ، فانه يوضع على جمل ، ويعطى جرسا بيده ، ويطوف به في المدينة ، وهو يدق الجرس ، وينادى قائلا : « قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب » •

ويعطى التجار في مصر ، من بقالين وعطارين وبائعي خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون ، من زجاج او خزف او ورق ، حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء •

ويستخرجون من بذور الفجل واللفت زيتا للمصابيح يسمونه « الزيت الحار » • والسمسم هناك قليل وزيته عزيز ، وزيت الزيتون رخيص • والفستق أغلى من اللوز ، ولا تزيد العشرة أمنان من اللوز المقشور على دينار واحد •

ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة في ذهابهم وايابهم من البيوت الى السوق • وفي كل حي

---

(١) والفسطاط على شمال النيل وهي مدينة حسنة ينقسم النيل لديها قسمين ، فيعدى من الفسطاط الى عدوة أولى فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة ويعبر اليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر الى القسم الثاني كالجسر الأول الى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثالث تعرف بالجيزة • صورة الأرض ص ١٤٦ •

على رأس الشوارع ، حمر كثيرة عليها برادع مزينة ، يركبها من يريد ، نظير أجر زهيد • وقيل انه يوجد خمسون الف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى • ولا يركب الخيل الا الجند والعسكر ، فلا يركبها التجار أو القرويون او أصحاب الحرف ، ويركبها العلماء • ورأيت كثيرا من الحمر البلق كالخيل بل أجمل •

وكان أهل مدينة مصر في غنى عظيم حين كنت هناك •

وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (١٠٤٧) ولد للسلطان ولد ، فأمر الناس باقامة الافراح ، فزينت المدينة والأسواق زينة لو وصفتها لما اعتقد بعض الناس صحة ما أقول ، ولما صدقوني • فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر ، والنقد والأمتعة المختلفة ، والملابس المذهبة والمقصبة ، بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس •

وكان الناس جميعا يثقون بالسلطان ، فلا يخشون الجواسيس ولا الغمازين ، معتمدين على أن السلطان لا يظلم أحدا ولا يطمع في مال أحد • ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقني الناس في فارس ، فاني لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرهم • أما الأمن الذي رأيته هناك فاني لم أره في بلد من قبل •

وقد رأيت هناك نصرانيا من سراة مصر ، قيل ان مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد • وحدث في سنة ما أن كان النيل ناقصا ، وكانت الغلة عزيزة فأرسل الوزير الى هذا النصراني وقال : « ليست السنة رخاء والسلطان مشفق على الرعية ، فاعط ما استطعت من الغلة ، اما نقدا واما قرضا » ، قال النصراني : «أسعد الله السلطان والوزير، ان لدي من الغلة ما يمكنني من اطعام أهل مصر الخبز ست سنوات (١) » • ولا شك أن سكان مصر ، في ذلك الوقت ،

---

(١) يقصد مدينة مصر •

كانوا كثيرين، فان سكان نيشابور خمسهم ، مع الاسراف في التبذير • ومن من يستطيع الخدم يسرك ثم يبقى ان يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار وأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل كان للسلطان ، بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر • لم يكن السلطان يظلم او يجور على أحد ، ولا كان احد من الرعية يخفى او ينكر شيئا مما يملك •

ورأيت هناك رباطا يسمى « دار الوزير » لا يباع فيه سوى القصب • وفي الدور الأسفل منه يجلس الخياطون ، وفي الأعلى الرفاءون • وسألت القيم عن أجرة هذا الرباط الكبير • فقال : كانت كل سنة عشرين الف دينار مغربى ، ولكن جانبا منه قد تخرب وهو يعمر الآن ، فيحصل منه كل شهر الف دينار ، يعنى اثنى عشر الف دينار في السنة • وقيل ان في هذه المدينة مائتى رباط أكبر منه أو مثله •

وصف مائدة السلطان :

يقيم السلطان مأدبة في كل من العيدين • ويأذن بالاستقبال في قصره للخواص والعوام • وتنصب مائدة الخواص في حضرته ومائدة العوام في سرايات أخرى • وقد سمعت كثيرا عن هذه المآدب فرغبت في رؤيتها ، رأى العين ، فذهبت عند أحد كتاب السلطان ، وكنت قد صاحبته فتوطدت الصداقة بيننا ، وقلت له : « رأيت مجالس ملوك وسلاطين العجم مثل السلطان محمود الغزنوى وابنه السلطان مسعود، وقد كانا ملكين عظيمين ذوى نعمة وجلال ، وأريد أن أرى مجلس أمير المؤمنين » • فنقل رغبتى الى الموكل بالستار ، المسمى « صاحب الستر » (١) • وقد تفضل هذا فسمح لى

---

(١) لعله يريد صاحب الباب ، وهى ثانى رتبة الوزارة • قال ابن الطوير : وكان يقال لها الوزارة الصغرى ، وصاحبها في المعنى يقرب من النائب الكافل في زماننا ، وهو الذى ينظر في المظالم اذا لم يكن وزير صاحب سيف ، فان كان ثم وزير صاحب سيف ، كان هو الذى يجلس للمظالم بنفسه ، وصاحب الباب من جملة من يقف في خدمته ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٩ •

بالذهاب ، في آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائة (٧ مارس ١٠٤٩) ، وكان المجلس قد أعد لليوم الثاني وهو يوم العيد ، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس في صدر المائدة .

حين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وصففا وايوانات ان اصفها يطول الكتاب . كان هناك اثنا عشر جناحا ، أبنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحا منها وجدته احسن من سابقه ، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع في مائة ، عدا واحدا منها كانت مساحته ستين ذراعا في ستين . كان بهذا الأخير تخت يشغل عرضه بتمامه وعلوه أربع أذرع ، وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث ، وعليه صور المصطاد والميدان وغيرهما ، كما ان عليه كتابة جميلة . وكل ما في هذا الحرم من الفرش والطرح من الديباج الرومي والبوقلمون ، نسجت على قدر كل موضع تشغله . وحول التخت درابزين من الذهب المشبك ، يفوق حد الوصف ومن خلف التخت ، بجانب الحائط ، درجات من الفضة . وبلغ هذا التخت من العظمة أني لو قصرت هذا الكتاب كله على وصفه ما استوفيت الكلام ، وما كفى .

وقيل ان راتب السكر ، في ذلك اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان ، خمسون ألف من . وقد رأيت على المائدة شجرة ، أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضا .

ومطبخ السلطان خارج القصر ، ويعمل فيه دواما خمسون غلاما . ويصل القصر بالمطبخ طريق تحت الأرض . وجرت العادة ، في مصر ، أن يحمل الى دار الشراب السلطانية (شرابخانة) ، كل يوم ، أربعة عشر حملا من الثلج . وكان لمعظم الأمراء والخواص راتب يومي من هذا الثلج . ويصرف منه لمن يطلبه من مرضى المدينة . وكذلك كل من يطلب من أهلها مشروبا أو دواء من الحرم السلطاني فانه

يعطاه • كما أن هناك زيوتا أخرى كزيت البلسان وغيره كان للناس كافة أن يطلبوها فلا تمنع عنهم •

سيرة سلطان مصر :

بلغ أمن المصريين واطمئنانهم الى حكومتهم الى حد ان البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون ابواب دكاكينهم ، بل يسدلون عليها الستائر • ولم يكن احد يجرؤ على مد يده الى شيء منها • يحكى أن كان بمصر يهودى واسع الثراء يتجر بالجواهر ، وكان مقربا من السلطان الذى كان يعتمد عليه في شراء ما يريد من الجواهر الكريمة ، فاعتدى عليه الجنود وقتلوه • فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان ، فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا الى الميدان • وهكذا خرج الجيش الى الصحراء وخاف اهل المدينة مغبة هذه المظاهرة اذ ظل الجيش في الصحراء حتى منتصف النهار • فخرج اليهم خادم القصر ووقف بباب السراى وقال : « ان السلطان يسأل اذا كنتم مطيعين أم لا ؟ » • فصاحوا صيحة واحدة : « نحن عبيد مطيعون ولكننا اذنبنا » ، فقال الخادم : « يامركم السلطان بان تعودوا » • فعادوا في الحال •

واسم هذا اليهودى المقتول ابو سعيد ، وكان له ابن أخ • وقيل انه لا يعرف مدى غناه الا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة زرع في كل منها شجرة ، كأنها حديقة ، وكلها أشجار مثمرة • وقد كتب أخوه ، لما ملكه من الفزع ، رسالة للسلطان يقول فيها : « انى أقدم للخزانة مائتى ألف دينار مغربى حالا » • فامر السلطان بعرض الرسالة على الناس وتمزيقها على الملأ ، وقال : « كونوا آمنين ، وعودوا الى بيتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولسنا بحاجة لمال أحد » واستمالهم اليه (١) •

---

(١) قال من Mann فى كتابه اليهود فى مصر "The Jews In Egypt" ان الخليفة أعطى أخوى اليهودى المقتول امانا ولكنه لم يستمر الا بضع ساعات ، ثم قتل الاخوان بعد ذلك في نفس اليوم • وعندى أن نص ناصر خسرو يخالف ما استنتجه Mann الذى اندفع يعدد تضحيات اليهود فى مصر • راجع الجزء الأول ص ٨٧ وما بعدها • وراجع كتابى عن ناصر خسرو (بالفرنسية) ص ٩٩ •

وكان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى التى نزلت بها ، من الشام الى القيروان ، نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السرج والحصير والبوريا وسجاجيد الصلاة ورواتب القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم • وكتب والى الشام فى بعض السنين الى السلطان بأن الزيت قليل ثم استأذن فى أن يصرف للمساجد الزيت الحار ، المستخرج من بذور الفجل واللفت • فأجيب « انك مأمور لا وزير ، وليس من الجائز ان تغير أو تبدل فى شىء يتعلق ببيت الله » •

ويتقاضى قاضى القضاة آلفى دينار مغربى فى الشهر ، ومرتب كل قاض علـى قدر مرتبتـه ، وذلك حتى لا يطمع القضاة فى أموال الناس أو يظلمونهم •

والعادة فى مصر أن يقرأ مرسوم السلطان فى المساجد فى منتصف رجب ، وهو :

« يا معشر المسلمين ، حل موسم الحج ، وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد ، وسيكون معه الجنود والخيل والجمـال والزاد » • وينادى بذلك فى شهر رمضان أيضا • ويبـدا الناس فى السفر ابتداء من أول ذى القعدة ، وينزلون فى موضع معين ، ثم يسيرون فى منتصف هذا الشهر • ويبلغ خرج الجيش الذى يرافق السلطان الف دينـار مغـربى فى اليوم ، هذا عدا عشرين دينارا مرتبة لـكل رجـل فيـه • ويبلغون مكة فى خمسة وعشرين يوما ويمكثون بهـا عشرة أيام ، ثم يعـودون الى مصر فى خمسـة وعشرين يـوما • ونفقاتهم فى الشهرين سـتون ألف دينـار مغـربى ، عدا التعهدات والصلات والمشاهرات وثمن الجمال التى تنفق فى الطريق •

وقد قرىء على الناس ، سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، المرسوم التالى من سجل السلطان :

« يقول أمير المؤمنين انه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هـذا العام فان به قحطا وضيقا وقد هلك به خلق

كثيرون وانى أقول هذا شفقة بالمسلمين » فلم يسافر الحجاج • وكان السلطان يرسل الكسوة للكعبة كالمعتاد ، لأنه يرسلها مرتين كل سنة ، فلما سافرت الكسوة مع وفد السلطان ، عن طريق القلزم ، سافرت معهم (١) ، فخرجت من مصر أول ذى القعدة ، وبلغت القلزم فى الثامنة منه ، ومن هناك أقلعت السفينة ، فبلغنا بعد خمسة عشر يوما مدينة تسمى الجار ، فى الثانى والعشرين من ذى القعدة ، وقمنا من هناك فبلغنا مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أربعة أيام •

المدينة :

والمدينة بلد على حافة الصحراء أرضها رطبة وملحة ، يجرى بها ماء قليل وهى كثيرة النخل • والقبلة هناك ناحية الجنوب • ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام قدر المسجد الحرام ، ومقامه عليه الصلاة والسلام بجانب المنبر ، يسار المصلين وهم متوجهون ناحية القبلة • فحين يذكر الخطيب ، وهو فوق المنبر ، النبى عليه السلام ويصلى عليه ، يلتفت ناحية اليمين ويشير الى المقام الشريف • وهذا المقام مخمس ترتفع حوائطه من بين أعمدة المسجد ، ويحيط به خمسة أعمدة ، وكان فى آخره حظيرة أحيطت بسياج حتى لا يدخلها أحد ، وأسدل على الجزء المكشوف منها شبكة حتى لا تدخلها الطيور • وبين قبر الرسول والمنبر مسافة من الرخام ، تشبه الساحة وتسمى « الروضة » ، ويقال انها روضة من رياض الجنة ، كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » • ويقول الشيعة ان هناك قبر فاطمة الزهراء عليها السلام • وللمسجد باب واحد • وخارج المدينة ناحية الجنوب ، صحراء بها مقبرة فيها قبر (أمير المؤمنين) حمزة بن عبد المطلب رضى الله

---

(١) هذا النص يبين أن لناصر صلة خاصة فى ذهابه •

عنه (١) ، يسمونها « قبور الشهداء » ٠

وقد أقمنا يومين بالمدينة ، ثم غادرناها لضيق الوقت فسرنا شرقا ٠ وعلى منزلين منها جبل ومضيق يشبه الوادى يسمى الجحفة ٠ وهناك « ميقات » حجاج المغرب والشام ومصر ٠ والميقات هو الموضع الذى يحرم منه الحجاج ٠ ويقال ان الحجاج نزلوا هناك فى سنة ما ، وكانوا كثيرين ، فنزل عليهم السيل فجأة ، فأهلكهم ٠ لذلك سمى هذا المكان الجحفة (٢) ٠ وبين مكة والمدينة مائة فرسخ من الصخر ، قطعناها فى ثمانية أيام ٠

وقد بلغنا مكة فى يوم الأحد السادس من ذى الحجة ، ونزلنا عند باب الصفا ، وكان بمكة قحط ، فكانت الأربعة أمنان من الخبز بدينار نيسابورى ، وقد هاجر منها المجاورون ولم يفد عليها حاج من أى بلد ٠ وقد ادينا فريضة الحج لله الحق سبحانه وتعالى يوم الأربعاء فى عرفات ، ولبثنا بمكة يومين ٠ وقد خرج من الحجاز خلق كثير مما أصابهم من الجوع والفقر ، وتفرقوا فى البلاد ٠

ولا أذكر مناسك الحج ووصف مكة الآن ٠ سأذكر ذلك عند ذكر آخر نوبة للحج ، حين بقيت ستة أشهر بمكة مجاورا ، وسأشرح ما رأيت ٠

ثم توجهنا ناحية مصر فبلغناها بعد خمسة وسبعين يوما ٠ وقد هاجر اليها من الحجاز ، فى هذا العام ، خمسة وثلاثون ألف آدمى ، فكساهم السلطان وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة ٠ وقد كانوا جميعا جائعين عرايا ٠ ولما أمطرت السماء فى بلادهم وكثر فيها الطعام ، كساهم السلطان ، صغيرهم وكبيرهم ، وأغدق عليهم الصلات ثم رحلهم الى الحجاز ٠ وفى شهر رجب سنة أربعين وأربعمائة (ديسمبر

---

(١) لاحظ غنى زاده أن فى هذا السطر خطا فان اطلاق كلمة أمير المؤمنين على حمزة خطا ظاهر ٠ ص ٨٤ (٤) ، ولعلها من زيادات النساخ ٠

(٢) راجع حوادث سنة ٨٠ هجرية أيام عبد الملك بن مروان ٠

سنة ١٠٤٨) قرأوا على الناس مرة أخرى ، مثالا للسلطان بأن فى الحجاز قحطا ، وليس من الخير أن يسافر الحجاج ، فلينفقوا المال على أنفسهم وليفعلوا ما أمر الله به • وفى هذه السنة أيضا لم يسافر الحجاج • ولكن السلطان لم يقصر البتة فى ارسال ما كان يرسله كل سنة من الكسوة وأجور الخدم والحاشية ، وأمراء مكة والمدينة وصلة أمير مكة وقد كانت ثلاثة آلاف دينار فى الشهر ، وكانت ترسل اليه الخيول والخلع مرتين فى السنة (١) • وعهد بهذا ، فى هذه السنة ، الى رجل اسمه القاضى عبد الله ، من قضاة الشام • وقد ذهبت معه عن طريق القلزم (٢) • وقد بلغت السفينة الجار فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ، وكان موعد الحج قد قرب كثيرا ، وكان الجمل يؤجر بخمسة دنانير فذهبنا مسرعين •

بلغت مكة فى الثامن من ذى الحجة ، واديت فريضه الحج لله سبحانه وتعالى • وقد حدث أن قافلة عظيمة اتت للحج من بلاد المغرب ، وفى أثناء عودة حجاجها ، عند باب المدينة المنورة ، طلب العرب « الخفارة » منهم فقامت الحرب بينهم • وقتل من المغاربة أكثر من ألفى رجل ، ولم يعد كثير منهم الى المغرب • وفى هذه الحجة أيضا ، قام جماعة من اهل خراسان ، عن طريق الشام ومصر ، فبلغوا المدينة فى سفينة ، وقد بقى عليهم أن يقطعوا مائة فرسخ واربعه حتى عرفات وهم فى السادس من ذى الحجة • فقالوا : ان كلا منا يدفع أربعين دينارا لمن يرحلنا الى مكة فى هذه الأيام الثلاثة الباقية لنلحق الحج ، فجاء الأعراب وأوصلوهم الى عرفات فى يومين ونصف يوم ، وأخذوا أجورهم ذهبا ، وكانوا قد شدوهم الى جمال سريعة ، وأتوا بهم من المدينة الى عرفات • وقد هلك اثنان منهم ، وكانوا موثقين على الجمال ، وكان أربعة منهم نصف أموات ، وقد بلغوا عرفات

---

(١) وهو الشريف تاج المعالى شكر •

(٢) نادر يسافر مره أخرى مع مبعوث السلطان •

ونحن هناك ساعة صلاة العصر ، وكانوا لا يستطيعون الوقوف أو الكلام ، قالوا انا توسلنا كثيرا فى الطريق ان يأخذ هؤلاء الأعراب الذهب الذى اشترطنا وان يتركونا ، وانه لا طاقة لنا على مواصلة السفر ، ولكنهم لم يسمعوا لنا وساقونا على هذا النحو • ومهما يكن فقد حج هؤلاء الاربعة وعادوا عن طريق الشام •

وبعد أن أكملت الحج ، توجهت نحو مصر ، فقد كانت لى بها كتب ، ولم يكن فى نيتى أن أعود اليها • وقد صحبت أمير مكة فى طريقه الى مصر ، فقد كان له رسم على السلطان يعطاه كل سنة لقرابته من أبناء الحسين بن على صلوات الله عليهما • فركبت السفينة معه حتى مدينة القلزم ، ومن هناك سرنا الى مصر (١) •

فى سنة احدى وأربعين وأربعمائة (١٠٩٤) ، وأنا بمصر ، جاء الخبر أن ملك حلب قد شق عصا الطاعة على السلطان ، وكان تابعا له ، وكان آباؤه ملوكا على حلب • وكان للسلطان خادم اسمه عمدة الدولة ، هو أمير المطالبين، وكان عظيم الجاه والمال • ويسمى مطالبا من يبحث فى تلال مصر عن الكنوز والدفائن ، ويأتى لهذا الأمر رجال من المغرب وديار مصر والشام ، ويتحمل كل منهم المشاق وينفق المال الكثير فى تلال مصر ومحاجرها ، وكثيرا ما يجدون الدفائن والكنوز ، وكثيرا ما ينفقون المال ولا يهتدون الى شىء منها ، فانهم يقولون ان أموال فرعون مدفونة فى هذه المواضع ، ويأخذ السلطان خمس ما يكشفه المطالب والباقى له • قصارى القول أن السلطان بعث هذا الخادم الى حلب ، وأمده بقوة ليشد أزره ، وأعطاه كل ما ينبغى للملوك من الخيام وغيرها • فلما بلغ حلب وقاتل قتل • وكانت أمواله من الكثرة بحيث استغرق نقلها من خزائنه الى خزائن السلطان شهرين • وكان من جملتها ثلاثمائة جارية أكثرهن

---

(١) هذه الجملة تبين أن ناصرا ينوه قصدا بان ليس فى نيته اطالة اقامته فى مصر ، وصحبته لامير مكة تبين مدى احترامه فى الرحلة •

كالبدور ، وبعضهن سراريه • وقد أمر السلطان بأن يكن مخيرات ، فمن رغبن فى الزواج منهن زوجن ، ومن لم يردن أعدن الى بيوتهن وصرفت اليهن أموالهن كاملة ، فلم تجبر واحدة منهن على شىء •

ولما قتل عمـدة الدولة خاف ملك حلب أن يرسـل له السلطان جيشا ، فبادر بارسال ابنه وهو فى السـابعه من عمره مع زوجه ، ومعهما كثير من التحف والهدايا للسلطان، وذلك ليعتذرا عما فعل • فلما جاءا مكثا ما يقرب من شهرين خارج مصر ، ولم يؤذن لهما بالدخول ، ولم تقبل تحفهما الى أن شفع لهما الائمة والقضاة عند السلطان ، وتوسلوا اليه أن يقابلهما ، ففعل ثم رجعا بالتشريف والخلع (٢) •

ومن جملة ما رأيت فى مصر أنه اذا أراد احدهم غرس حديقة ، يستطيع ذلك فى اى فصل من فصول السنة • فانه يحصل دائما على الشجر الذى يريد فيزرعه مثمرا ، أو بغير ثمر • وهناك تجـار لذلك ، يقـدمون كل ما يطلب منهم ، فقد زرعوا الأشجار فى أصص ووضعوها فوق الاسطح • وكثير من سقوف بيوتهم حدائق اكثرها متمر ، من النارنج والترنج والرمان والتفاح والسـفرجل والـورد والريحان والزهر • فاذا اشترى أحدهم شجرا حمل الحمالون الاصص بالشجر بعد شدها على لوح من خشب ونقلوها الى حيث يشاء ، ثم يحفر الزراع الارض لغرس الشجر اما بالاصص او بعد نزعه منها ، من غير ان يضار الشجر بهذا • ولم أر هـذا النظام فى أى مكان آخر ، كما أنى لم اسمع به • والحق انه نظام جميل جدا •

---

(٢) هذه الاميرة هى ابنة مطاب بن سابق النميرى ، سيد حران • واسمها السيدة علوية • وكان يصحبها فى زيارتها لمصر شيخ الدولة على بن أحمد بن الأيسر الذى كان مبعوثا من قبل معز الدولة سنه ١٠٥١/٤٤٣ ليدفع الجزية المفروضة على هذا الأمير لامبراطور الروم فى القسطنطينية • وقد ذكر كامل الدين أبو حفص عمر فى كتابه « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » تفاصيل استقبال هذه الاميرة فى مصر • وهو مخطوط فى المكتبه الاهلية فى باريس (٧٢٨) ورقات ٧٢ ــ ٧٣ ، وقد أعطت المستنصر ، علاوة على الهدايا والتحف ، على اسره حسب وما يتبعها • كما ارسل معها خلعا لهذا الأمير واقربائه • تعميقات سيفر ص ١٧١ ــ ١٧٢ •

العودة الى خراسان عن طريق
الصعيد الأعلى وبلاد العرب والعراق

والآن أعود الى وطنى ، من مصر عن طريق مكة ، حرسها الله تعالى من الآفات •

أديت صلاة العيد فى القاهرة ، وغادرت مصر فى سفينة يوم الثلاثاء الرابع عشر من ذى الحجة سنة احدى وأربعين وأربعمائة (١٠ ابريل ١٠٥٠) ، واتجهنا نحو الصعيد الأعلى ، وهو ولاية مصرية فى الجنوب ، يأتى منها ماء النيل الى مصر • وأكثر رغدها منه • وهناك على ضفتى النيل ، كثير من المدن والقرى يطول وصفها •

وقد بلغنا مدينة تسمى أسيوط ، يزرع فيها الأفيون ، وهو الخشخاش وحبه أسود • حين تنمو الشجرة تكسر ويربط كيس فى موضع الكسر فيخرج منه عصير يشبه اللبن ، فيجمعونه ويحفظونه ، وهو الأفيون (١) • وبذور هذا الخشخاش صغيرة مثل الكمون • وينسجون فى أسيوط عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العالم ، والصوف الدقيق الذى يصدر الى بلاد العجم والمسمى الصوف المصرى، كله من الصعيد الأعلى لأنهم لا ينتجون الصوف بمدينة مصر نفسها ، وقد رأيت فى أسيوط فوطة من صوف الغنم لم أر مثلها فى لهاور أو ملتان ، وهى من الرقة بحيث تحسبها حريرا •

ومن هناك بلغنا مدينة تسمى قوص ، رأيت فيها أبنية عظيمة من الحجارة تبعث على العجب ، وهى مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر ، واكثر ابنتيها من الحجارة الكبيرة التى يزن الواحد منها عشرين أو ثلاثين ألف من • والعجيب أنه ليس على مسافة عشرة أو خمسة عشر فرسخا منها جبل أو محجر ، فمن أين وكيف نقلوا هذه الحجارة ؟

---

(١) ومما تختص به مصر الأفيون • وهو يجتنى من الخشخاش الأسود بالصعيد • رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر • ص ٢٨ •

ومن قوص بلغت مدينة تسمى اخميم ، وهى مدينة واسعة عامرة رجالها أشداء ، لها سور حصين وبها نخل وبساتين كثيرة • وقد أقمت بها عشرين يوما (١) • وفى هذه الجهة طريقان • أحدهما صحراوى لا ماء فيه ، والثانى طريق النيل ، وقد ترددنا أى الطريقين نسلك • واخيرا سرنا فى طريق النيل وبلغنا مدينة اسوان •

عند الجانب الجنوبى من أسوان جبل يخرج من وسطه النيل • ويقال ان السفن لا تستطيع المضى فى النيل وراء هذا الجبل ، لأن الماء هناك ينحدر من شلالات عظيمه • وعلى مسافة اربعة فراسخ من هذه المدينة طريق ولاية النوبه ، وهى ولاية أهلها جميعا نصارى • ويرسل ملوكها ، من قديم ، الهدايا لسلطان مصر • وبين البلدين عهود ومواثيق، فلا يذهب جيش السلطان هناك ، ولا يؤذى أهلها • ومدينة أسوان محصنة جدا بحيث لا يستطيع أحد أن يقصدها من النوبة ، وبها جيش دائم للمحافظة عليها • ويقابل المدينه جزيرة (٢) وسط النيل كأنها حديقة ، فيها نخيل وزيتون وأشجار أخرى وزرع كثير ، ويروى زرعها بالسواقى • وقد لبثت بها واحدا وعشرين يوما • وكان امامنا حتى شاطىء البحر صحراء فسيحة طولها أكثر من مائتى فرسخ(٣) • وكان حينذاك الموسم الذى يعود فيه الحجاج على الجمال فانتظرناهم لنستأجرها ونذهب بها وهى راجعة • وكنت عرفت وأنا فى أسوان رجلا تقيا صالحا يعرف شيئا من علم المنطق • وقد عاوننى فى اكتراء الجمل واختيار الرفيق وغير ذلك • وقد استاجرت جملا بدينار ونصف دينار ، ورحلت عن هذا البلد فى الخامس من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٢٩ يوليو ١٠٥٠) وكان الطريق يتجه نحو الجنوب الشرقى •

---

(١) وفى اخميم جهاز من الكتان المعمول شقة ومناديل • صورة الارض • ص ١٥٦ •

(٢) جزيرة فيله •

(٣) راجع تعليقات غنى زاده ص ٩١ (١١) حيث صحح النص بزيادة كلمة اكثر (زيادى) •

بعد ثمانية فراسخ من رحلتنا بلغنا جهة تسمى ضيقة ، وهى واد فى الصحراء ، على جانبيه حائطان من الجبال ، وسعته مائة ذراع ، وقد حفر فيه بئر يخرج منه ماء كثير ، ولكنه ليس عذبا • وبعد أن تركنا ضيقة ، سرنا خمسة ايام فى صحراء لا ماء فيها ، وكان مع كل منا قربة ماء • ثم بلغنا منزلا يسمى الحوض ، وهو جبل حجرى فيه عينان يتفجر منهما ماء عذب يستقر فى حفرة ، ولم يكن بد من أن يذهب رجل الى حيث العينان ليحضر الماء لشرب الابل ، التى مضى عليها سبعة ايام لم تشرب فيها ولم تأكل ، اذ أن علفها قد نفد كله • وكانت تستريح مرة فى الأربع والعشرين ساعة ، وذلك من الوقت الذى تشتد فيه حرارة الشمس حتى صلاة العصر ، وتسير بقية الوقت • والمنازل التى ينزلون بها معلومة ، فليس ممكنا النزول فى أى مكان ، لتعذر وجود ما توقد به النار • أما فى هذه المنازل فانهم يجدون بعر الابل ، فيتخذونه وقودا يطبخون عليه ما تيسر ، وكان الابل تعلم أنها ان أبطأت ماتت عطشا ، فهى تسير غير محتاجه لأن يسوقها أحد ، متجهة من تلقاء نفسها ناحية المشرق فى هذه الصحارى حيث لا أثر أو علامة تدل على الطريق • وهناك أمكنة يقل فيها الماء مسافة خمسة عشر فرسخا ويكون ملحا ، وأمكنة لا يوجد فيها ماء قط ، مسافة ثلاثين او أربعين فرسخا •

وفى العشرين (١) من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٢ أغسطس ١٠٥٠) بلغنا مدينة عيذاب ، ومن أسوان حتى عيذاب التى بلغناها بعد خمسة عشر يوما مائتا فرسخ بالتحديد • ومدينة عيذاب هذه تقع على شاطىء البحر وبها مسجد جمعة ، وسكانها خمسمائة وهى تابعه لسلطان مصر • وفيها تحصل المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن • ومنها تنقل البضائع على الابل الى أسوان فى هذه الصحراء التى اجتزناها ، ومن

---

(١) راجع تعليقات غنى زاده ص ٩٣ (٤) •

هناك تنقل بالسفن الى مصر فى النيل • وعلى يمين عيذاب ناحية القبلة ، جبل من خلفه صحراء عظيمة بها مراع واسعه وخلق كثيرون يسمون البجة وهم قوم لا دين لهم ولا ملة . لا يؤمنون بنبى او امام ، وذلك لبعدهم عن العمران • وهم يسكنون صحراء طولها أكثر من ألف فرسخ وعرضها ثلاثمائة ، وليس فى هذه المسافة الشاسعة سوى مدينتين صغيرتين تسمى الأولى بحر النعام ، والثانية عيذاب • وتمتد هذه الصحراء من مصر الى الحبشة وذلك من الشمال الى الجنوب ، وعرضها من بلاد النوبة حتى بحر القلزم وذلك من الغرب الى الشرق • ويقيم بها البجة ، وهم ليسوا اشرارا ، فهم لا يسرقون ولا يغيرون، بل يشتغلون بتربية ماشيتهم (١) • ويسرق المسلمون وغيرهم ابناءهم ، ويحملونهم الى المدن الاسلامية ليبيعوهم فيها •

وبحر القلزم هذا خليج يتفرع من المحيط عند ولاية عدن ويسير شمالا حتى مدينة القلزم الصغيرة ويسمى هذا البحر بكل مدينة تقع عليه ، فمرة يسمى القلزم ومرة عيذاب ومرة بحر النعام • وقيل ان به اكثر من ثلاثمائة جزيرة ، تأتى السفن منها محملة بالزيت والكشك ، وقيل ان هناك بقرا وخرافا كثيرة • والناس هناك مسلمون ، بعضهم تابع لمصر وبعضهم لليمن • وليس فى مدينة عيذاب الصغيرة غير ماء المطر ، فلا بئر فيها ولا عين • فاذا لم تمطر السماء أحضر البجة الماء وباعوه • وقد بقينا هناك ثلاثة أشهر وكنا نشترى قربة الماء بدرهم أو بدرهمين • وسبب بقائنا هذه المدة أن السفينة لم تقلع اذ كانت الريح شمالية ، وكان ينبغي لرحلتنا ريح الجنوب • وحينما رآنى الناس طلبوا الى أن أكون خطيبهم فلم أردهم ، وخطبت لهم تلك المدة حتى أتى الموسم • ثم سارت السفينة شمالا الى أن بلغنا جدة •

---

(١) وبصعيد مصر ، من جنوب النيل ، معدن الزبرجد فى برية منقطعة عن العمارة ويكون من حد جزائر بنى حدان الى نواحى عيذاب وهى ناحية للبجة وقوم من العرب من ربيعة وليس بجميع الأرض معدن لازمرد غيره • صورة الأرض ص ١٥٠ •

ويقال ان الجمال النجيبة لا توجد فى مكان آخر غير هذه الصحراء ، وهى تنقل منها الى مصر والحجاز .

وقد حكى لى رجل أعتمد على قوله من مدينة عيذاب قال : « كنت فى سفينة محملة بالجمال لأمير مكة ، فمات جمل منها فرموه فى البحر فابتلعته سمكة فى الحال ، ولم يبق خارج فمها غير رجله ، فجاءت سمكة أخرى وابتلعت هذه السمكة بالرجل ، ولم يظهر عليها أى أثر من ذلك » . ويسمى هذا السمك بالقرش .

ورأيت فى هذه المدينة جلد سمك يسمونه فى خراسان الشفق ، ويظنون أنه نوع من الضب، ولكننى رأيت فى عيذاب أنه سمك وله كل ما للسمك من زعانف .

حينما كنت فى آسوان كان لى صديق ذكرت اسمه قبلا وهو أبو عبد الله محمد بن فليج ، فلما ذهبت من هناك الى عيذاب كتب ، من اخلاصه لى ، لوكيله بها كتابا يقول فيه : اعط ناصرا ما يريد ، وهو يعطيك صكا للحساب . فلما بقيت بها ثلاثة أشهر ، وأنفقت ما معى ، اضطررت أن اعطى هذه الورقة للوكيل فأكرمنى ، وقال : ان له والله لدى أشياء كثيرة ، وانى معطيك ما تريد واعطنى صكا به . فتعجبت من حسن صنع هذا الرجل محمد بن فليج الذى أظهر كل هذه الطيبة بغير سابقة منى اليه . ولو كنت رجلا دنيئا واستحللت لنفسى أن آخذ بهذه الورقة أشياء كثيرة . وقد أخذت منه مائة منّ من الدقيق ، وهو مقدار كبير هناك وأعطيته صكا به أرسله الى أسوان . وقبل رحيلى من عيذاب ورد خطاب من محمد فليج لوكيله يقول فيه : أعط ناصرا كل ما يريد مهما تكن قيمته مما لى عندك ، واذا أراد فاعطه من مالك وانا أعطيك عوضا عنه فقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه : « المؤمن لا يكون محتشما ولا مغتنما » . وقد كتبت هذا الخبر حتى يعرف القارىء أن الرجل يعتمد على الرجل ، وأن الكرم فى كل مكان ، وأن أهله كانوا وسيكونون دائما .

وصف بلاد العرب

جـــدة :

وجدة مدينة كبيرة لها سور حصين ، تقع على شـــاطىء البحر ، وبهـــا خمســـة آلاف رجـــل ، وهى شـــمال البحـــر (الأحمر) ، وفيها أسواق جميلة • وقبلة مســـجدها الجامع ناحية المشرق ، وليس بخارجها عمارات أبدا ، عدا المسجد المعروف بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم • ولها بوابتان احداهما شرقية تؤدى الى مكة ، والثانيـــة غربية تؤدى الى البحر • ويبلغ السائر من جدة جنوبا على شـــاطىء البحر ، اليمن ومدينة صعدة ، والمسافة الى هناك خمسون فرسخا • واذا سار شمالا بلغ الجار وهى تابعـــة للحجاز • وليس فى جدة شجر ولا زرع ، وكل ما يلزمهـــا يحضرونه اليهـــا من القرى • وبينها وبين مكة اثنا عشر فرســـخا • وأمير جـــدة تابع لأمير مكة تاج المعالى بن أبى الفتـــوح الذى هـــو امير المدينة أيضا (١) • وقد ذهبت الى أمير جدة فأكرم وفادتى وأعفانى مما كان يجب على من المكس ولم يطلبه • وهـــكذا خرجت من البوابة فى سلام • وقد كتب الى مكة يقول عنى : هذا رجل عالم فلا يجوز أن يؤخذ شىء منه • وفى يوم الجمعة

---

(١) هو تاج المعالى شكر بن أبى الفتوح حسن بن جعفر العلوى ، من بنى موسى العلويين الذين حكموا مكة والمدينة منذ سنة ٣٥٠/٩٦١ • وكان أبو المعالى آخرهم ، وقد كان شاعرا ومحبا للأدباء ويذكر له ابن الأثير (ج ١٠ ص ١٢) قوله :

قوض خيامك عن أرض تضام بها ... وجانب الذل ان الذل مجتنب

وارحل اذا كان فى الأوطان منقصة ... فالمندل الرطب فى أوطانه حطب

بعد صلاة العصر قمت من جدة فبلغت باب مكة يوم الأحد سلخ جمادى الثانى • وكان قد حضر الى مكة للعمرة خلق كثيرون من نواحى الحجاز واليمن فى أول رجب وهو موسم عظيم مثل عيد رمضان ، وهم يحضرون وقت الحج • ولان طريقهم قريب وسهل يأتون الى مكة ثلاث مرات كل سنة •

وصــف مكة :

تقع مكة بين جبال عالية ، ولا ترى من بعيد ، من اى جانب يقصدها السائر ، وأقرب جبل منها هــو جبــل ابى قبيس ، وهو مستدير كالقبة ، لو رمى سهم من أسفله لبلغ قمته • وهو شرقى مكة ، فترى الشمس من داخــل المســجد وقد نصب على قمته برج من الحجر يقال ان ابراهيم عليــه السلام رفعه عليه •

وتشغل هذه المدينة الــوادى الذى بين الجبــال والذى لا تزيد مساحته عن رمية سهمين في مثلها ، والمسجد الحرام وسط هذا الوادى ، ومن حوله مكة والشوارع والأسواق • وحيثما وجدت ثغرة بين الجبال سدت بسور قوى وضعت عليه بوابة ، وليس بمكة شجر أبدا الا عند الباب الغربى للمسجد الحرام المسمى باب ابراهيم ، حيث يوجد كثير من الشــجر الكبير الذى يرتفع على حافة بئر •

وعند الجانب الشرقى للمسجد سوق تمتد من الجنوب الى الشمال ، وفى أولها ناحية الجنوب جبل أبى قبيس الذى تقع الصفا على سفحه وتبدو على هذا السفح درجات كبيرة من الحجارة المستوية التى يصــعد الحجــاج عليها ويدعون ربهم • والمروة فى نهاية السوق ، شمالى الجبل ، وهى اقل ارتفاعا فى وسط مكة ، وقد شيدت عليها منــازل كثيرة • وما يسمى السعى بين الصفا والمروة هو الســعى فى هــذه السوق من أولها لآخرها • ويجد من يرغب العمرة وهو آت من بعيد ، أبراجا ومساجد على مسافة نصف فرسخ حــول مكة

فيحرم منها للعمرة • والاحرام هو نزع الملابس المخيطة من على الجسد ، وشد المحرم وسطه بازار ، ولف جسده بازار أو وشاح آخر ، وصياحه بصوت عال أن «لبيك اللهم لبيك»، ثم يسير نحو مكة • فاذا أراد حاج أن يعتمر وهو بمكة ، فانه يذهب الى تلك الأبراج ويرتدى ثوب الاحرام ويهتف لبيك ويدخل مكة بنية العمرة • فحين يبلغ مكة يدخل المسجد الحرام ، ويسير نحو الكعبة ثم يطوف ناحية اليمين بحيث تكون هذه على يساره ، ويتوجه الى الركن الذى به الحجر الأسود فيقبله ، ثم يمضى ويستمر فى الطواف حتى يعود الى الحجر الأسود مرة أخرى فيقبله ، وبهذا يكون قد اتم طوفة واحدة •

وعلى هذا النحو يطوف سبع مرات ، ثلاثا منها بسرعة وأربعا على مهل • وبعد تمام الطواف يتوجه نحو مقام ابراهيم عليه السلام ، وهو أمام الكعبة ، فيقف خلفه ، بحيث يكون المقام بينه وبين الكعبة ، وهناك يصلى ركعتين ، هما صلاة الطواف • ثم يذهب الى حيث بئر زمزم ، فيشرب من مائها أو يمسح بها وجهه ، ثم يخرج من المسجد الحرام ، من باب الصفا الذى سمى كذلك لأن جبل الصفا يقع خارجه ، فيصعد على عتبات الصفا موليا وجهه شطر الكعبة ويدعو بالدعاء المعلوم ، ثم ينزل ويتجه ناحية المروة مارا بالسوق التى يسير فيها من الجنوب الى الشمال ، وعليه أن ينظر الى أبواب المسجد الحرام حين يمر بها ، وأن يحث الخطى فى المسافة التى سعاها الرسول عليه الصلاة والسلام مسرعا . والتى أمر الناس باجتيازها مسرعين، وهى خمسون خطوة . وعلى طرفى هذا الموضع (الذى يسار فيه بسرعة) أربع منارات ، على الجانبين • فاذا بلغ الحاج الآتى من الصفا ما بين المنارتين الأوليين أسرع حتى يصل الى ما بين المنارتين الثانيتين ، ثم يسير الهوينى ، حتى يبلغ المروة فيصعد عتباتها ، ويدعو ذلك الدعاء المعلوم • وهكذا يكرر هذا السعى فى السوق ، بحيث يسعى من الصفا الى المروة أربع

مرات ، ومن المروة الى الصفا ثلاث مرات • فيكون قد سعى في هذه السوق سبع مرات •

وعندما ينزل الحاج من جبل المروة يجد سوقا بها عشرون دكانا متقابلة ، يشغلها جميعا حجامون لحلق شعر الرأس • وحين يتم الحاج شعائر العمرة ويخرج من المسجد الحرام ، يدخل السوق الكبيرة التى تقع ناحية الشرق والمسماة سوق العطارين ، وهى سوق جميلة البنايات وكلها عطارون •

وبمكة حمامان بلاطهما من الحجر الأخضر السنان • وقدرت أن سكانها ، القاطنين بها ، لا يزيدون على الفين ، والباقى ويقربون من الخمسمائه ، من الغرباء والمجاورين • وفى ذلك الوقت كان بمكة قحط ، فكان الستة عشر منا من القمح بدينار مغربى ، وقد هاجر منها كثيرون •

وقد كان لأهالى كل مدينة من خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها منازل بمكة ، ولكن اغلبها كان خرابا وقتذاك • وقد بنى بها خلفاء بغداد عمارات كثيرة وابنية جميلة ، وكان بعضها ، وأنا هناك ، خربا والبعض الاخر اشتراه الناس (أصبح ملكا خاصا) • وماء ابار مكه مالح ومر لا يستساغ شربه • ولكن بها كثيرا من الاحواض والمصانع الكبيرة ، بلغت تكاليف الواحد منها أكثر من عشرة آلاف دينار • وهى تملأ من ماء الأمطار الذى يتدفق من الأودية • وكانت فارغة ونحن هناك •

وقد أنشأ ابن شاد دل أحد آمراء عدن مجرى للماء تحت الأرض ، وأنفق عليه أموالا كثيرة ، يسقى منه ما على حافتيه من شجر فى عرفات ، وقد حبس هذا الماء هناك حيث غرست الحدائق ، فلا يصل (قرب) مكة منه الا القليل ، لأن القناة لا تبلغها • وهذا القليل يجمع فى حوض خارج مكة ، فيأخذ منه السقاءون ، ويذهبون به اليها ويبيعونه(١)

---

(١) انشاته زبيدة زوج هرون الرشيد ، وذلك لايصال ماء عين النعمان الى مكة • وقد أصلحه كثير من الخلفاء وأمراء المسلمين • « شيفر ص ١٨٩ » •

وعلى مسافة نصف فرسخ من طريق برقة بئر يسمى بئر الزاهد ، عنده مسجد جميل . وماء هذا البئر عذب ، ويحمله السقاءون الى مكة لبيعه . وجو مكة حار جدا ، وفى آخر بهمن القديم (يناير ـ فبراير) ، رأيت بها الخيار والاترنج والباذنجان . وكانت كلها طازجة .

هذه هى المرة الرابعة التى أزور فيها مكة ، وقد مكثت بها مجاورا من غرة رجب ٤٤٢ (١٠ نوفمبر ١٠٥٠) الى العشرين من ذى الحجة (٣ مايو ١٠٥١) . وقد أثمر بها العنب فى الخامس عشر من فروردين (مارس ـ ابريل) فأحضر من السواد الى مكة وبيع فى السوق . وكان البطيخ كثيرا فى أول اردبهشت (أبريل ـ مايو) . وكانت الفاكهة متوفرة طول الشتاء فلم تنقطع قط .

وصف بلاد العرب واليمن :

وحين يسير المسافر مرحلة واحدة جنوبى مكة يبلغ ولاية اليمن التى تمتد حتى شاطىء البحر . والحجاز واليمن متجاوران ولغتهما العربية . وفى الاصطلاح يقال لليمن حمير وللحجاز العرب . ويحيط البحر البلدين من ثلاث جهات ، فهما شبه جزيرة ، يحدها شرقا بحر البصرة وغربا بحر القلزم الذى تقدم أنه خليج وجنوبا البحر المحيط . وطول شبه الجزيرة هذه ، التى هى اليمن والحجاز من الكوفة الى عدن أى من الشمال الى الجنوب خمسمائة فرسخ ، وعرضها من عمان الى الجار ، أى من الشرق الى الغرب ، اربعمائة فرسخ . وبلاد العرب من الكوفة الى مكة . وبلاد اليمن من مكة الى عدن .

وبلاد العرب قليلة الخصب ، ويسكن أهلها الصحراء ويملكون الدواب والمواشى ويقيمون فى الخيام .

وبلاد حمير (اليمن) ثلاثة أقسام ، قسم منها يسمى تهامة وهو على الساحل الشرقى لبحر القلزم وبه كثير من

المدن والخصب ، مثل صعدة وزبيد وصنعاء وغيرها • وهذه المدن مشيدة فى الصحراء وامير هذا القسم عبد حبشى من أبناء شاددل •

والقسم الثانى من حمير جبلى يسمى نجدا ، وبه أماكن مقفرة واخرى شديدة البرد كما ان به اودية ضيقة وقلاعا محكمة •

والقسم الثالث ناحية المشرق • وبه مدن كثيرة منها نجران وعثر وبيشة وغيرها • وبهذا القسم طوائف كثيرة لكل منها ملك او رئيس ، فليس له حاكم واحد ، فان سكانه عتادة وأغلبهم لصوص وسفاكو دماء وهم كثيرون ومن كل جنس • ومساحة هذا القسم مائتا فرسخ فى مائة وخمسين •

وفى اليمين قصر غمدان (١) ، بمدينة اسمها صنعاء ، وقد بقى منه ما يشبه التل فى وسطها ويقال ، هناك ، ان رب هذا القصر كان ملكا على العالم كله • كما يقال ان بهذا التل كنوزا ودفائن كثيرة ، ولكن احدا لا يجرؤ على مد يده اليها ، سلطانا كان او من الرعية • ويصنعون بصنعاء العقيق ، وهو حجارة تقطع من الجبل وتسوى على النار فى بواتق محاطة بالرمل ، ثم تعرض هكذا ـ وسط الرمل ـ لحرارة الشمس وبعد هذا يصقلونها بعجلة • وقد رأيت فى

---

(١) يذكر ياقوت قصر غمدان (ج ٦ ص ٣٠١ طبعة مصر) ويقول ان الذى بناه هو يشرح بن يحصب ، وانه بنى على اربعة اوجه ، وجه ابيض ووجه احمر ووجه اصفر ووجه اخضر ، وبنى القصر على سبعة سقوف بين كل سقفين منها اربعون ذراعا ، وجعل فى اعلاه مجلسا بناه بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانه تمثال أسد وكانت الريح اذا هبت الى ناحية دخلت من شقوق فيه ثم خرجت فيسمع له زئير كزئير السباع (كما هو الحال فى تمثالى ممنون فى مصر • انظر دائرة المعارف البريطانية الرابعة عشرة مادة Memnon وكالذى يذكر المسعودى فى كلامه عن اديرة الصابئة) • وينسب بعض الكتاب هذا القصر الى سليمان بن داود ، الذى أمر الشياطين ببنائه لبلقيس ، ويقال انه هدم أيام عثمان بن عفان •

وقد أشار شيفر (١٩٣) الى كتاب « بهجة الزمن فى اخبار اليمن » لضياء الدين عبد الله بن عبد المجيد • وراجع المسعودى ج ١ ص ٢٩٤ عند كلامه عن وفد العرب الى معد يكرب وهو بقصر غمدان •

مصر سيفا أحضر للسلطان من اليمن ، مقبضه قطعة واحدة من العقيق الآحمر كأنه ياقوت (١) ٠

وصف المسجد الحرام والكعبة :

قلنا ان الكعبة تقوم وسط المسجد الحرام ، وان المسجد الحرام يقوم وسط مكة ، والمسجد ممتد طولاً من الشرق الى الغرب ، وعرضا من الشمال ألى الجنوب ٠ وسوره ليس قائم الزوايا ، بل آركانه مقوسة ، تميل الى الاستدارة ، وذلك حتى تكون وجوه جميع المصلين شطر الكعبة ، في اى جهة كانوا يصلون بالمسجد ٠ واقصى طول للمسجد من باب ابراهيم الى باب بني هاشم ، اربع وعشرون واربعمائة ذراع ، وعرضه من باب الندوة ، وهو جهة الشمال ، حتى باب الصفا ، وهو جهة الجنوب ، واقصى اتساعه اربع وثلاثمائة ذراع ٠ وبسبب استدارته ، تبدو ساحة المسجد آضيق في جهة وأوسع في جهة أخرى ٠ وحوله ثلاثة أروقة رفعت اسقفها على اعمدة من الرخام ٠ ووسط هذه الاروقة مربع ٠ وعلى طول السقف من ناحية ساحة المسجد خمسة واربعون طاقا ، وعلى عرضه ثلاثة وعشرون ٠ وعدد الاعمدة الرخامية التي فيه اربعة وثمانون وأربعمائة عمود ، قيل انها كلها ، ارسلت من الشام عن طريق البحر ، بامر خلفاء بغداد ٠ وقيل انه حين بلغت هذه العمد مكة ، بلغ ثمن الحبال التي شدت بها الى السفن والعجلات ، والتي قطعت قطعا ، ستين آلف دينار مغربي ٠ ومن هذه العمد عمود من الرخام الأحمر وضع عند باب الندوة ، قيل انه اشترى بوزنه ذهبا ، ويقدر وزنه بثلاثة آلاف من ٠ وللمسجد الحرام ثمانية عشر بابا ، عليها طيقان مقامة على عمد من الرخام ، وضعت بحيث لا تعوق فتح الأبواب ٠ وعلى الجانب الشرقي أربعة أبواب هي من الركن الشمالي : باب النبي وبه

(١) ذكر احمد التيفشي في كتابه عن الأحجار الكريمة باليمن الأنواع المختلفة للعقيق الذي يستخرج من هذا البلد ٠ ولكنه لم يشر الى كيفية صقله ٠ Schefer ص ١٩٤ (٢)) ٠

ثلاثة طيقان مقفلة • وعلى هذا الجانب نفسه عند الطرف الجنوبى (للباب الأول) باب آخر يسمى باب النبى ايضا ، وبين هذين البابين أكثر من مائة ذراع (١) • ولهذا الباب طاقان • وفى خارجه ســـوق العطارين • وقد كان منزل النبى عليه السلام فى هذه السوق ، وكان يدخل من هــذا الباب للصلاة فى المسجد • فاذا جاوز السائر هذا الباب ، وجد على السور الشرقى أيضا ، باب على عليه السلام ، وهو الباب الذى كان يدخل منه أمير المؤمنين على عليه السلام ، للصلاة بالمسجد ، وله ثلاثة طيقان • فاذا جاوزه يجد عنــد ركن المسجد منارة أخرى يبدأ منها السعى ، وهى غير المنارة التى بباب بنى هاشم، ومن عندها ينبغى الاسراع فى السعى، وهى احدى المنارات الاربع المذكورة (المنارات الاربع فى طريق السعى) (٢) •

وعلى الحائط الجنوبى الذى هو طول المسجد ، ســبعة أبواب : أولها على الركن المقوس ، واسمه باب الدقاقين ، وله طاقان • وغربيه بقليل باب اخر ذو طاقين ، يقال له الفسانين (؟) وبعده بقليل باب الصفا ، وله خمسة طيقان ، أكبرها الطاق الأوسط ، وعلى كل من جانبيه طاقان صغيران • وكان رسول الله عليه السلام يخرج من هــذا الباب ويذهب الى الصفا ويدعو • وعتبة الطاق الاوسط مكونه من حجر أبيض كبير ، وكان بها حجر أسود وطئه الرسول عليه السلام بقدمه ، فارتسم نقش القدم المبارك عليه ، وقد نزع هــذا الجزء من الحجر الأسود وركب فى الحجر الأبيض بحيث تكون أطراف أصابع القدم داخل المسجد ، ويضــع بعض الحجــاج وجوههم على هــذا الحجر وبعضــهم يضعون أقدامهم تبركا ، وأعرف أن الأفضل أن أضع وجهى • وبعد هذا الباب بقليل ،

---

(١) يسمى هذان البابان الآن ، باب السلام وباب الجنائز Shefer ص ١٩٥ • يراجع غنى زاده ص ١٠٤ (١١) حيث فسر « كوشه جنوبى » بأن المقصود أن الباب الثانى فى الطرف الجنوبى للباب الأول • والطاق هو العقد •

(٢) فى هذه الجملة نقص واضطراب • غنى زاده ص ١٠٥ (٣) •

ناحية المغرب ، باب السطوى (١) وله طاقان • ثم من بعده بقليل باب التمارين وله طاقان ، ثم باب المعامل وله طاقان • ويقابله بيت أبى جهل وهو الآن مرحاض •

وعلى الحائط الغربى ، وهى عرض المسجد ، ثلاثة أبواب • الأول عند الركن الجنوبى واسمه باب عروة (٢) وله طاقان • وفى الوسط باب ابراهيم وله ثلاثة طيقان •

وعلى الحائط الشمالى وهى طول المسجد أربعة ابواب • ففى الركن الغربى باب الوسيط وله طاق واحد • ومن بعده ، ناحية المشرق ، باب العجلة له طاق واحد • ومن بعده ، في الوسط ، باب الندوة وله طاقان • ثم باب المشاورة وله طاق واحد • وعند زاوية المسجد ، فى الشمال الشرقى ، باب يسمى باب بنى شيبة (٣) •

والكعبة في وسط ساحة المسجد ، وهى مستطيل طوله من الشمال الى الجنوب ثلاثون ذراعا وعرضه من الشرق الى الغرب ست عشرة ذراعا • وبابها شرقى ، بحيث يكون الركن العراقى على يمين الداخل ، وركن الحجر الاسود على يساره • ويسمى ركنها الجنوبى الغربى بالركن اليمانى ، وركنها الشمالى الغربى بالركن الشامى • والحجر الاسود مركب على زاوية الحائط فى حجر كبير ، بحيث اذا وقف رجل

---

(١) كان يسمى باب الأجياد ويسمى الآن الباب الشريف • شيفر ١٩٦ •

(٢) صححه شيفر بانه باب العمرة ثم قال ان الباب الثالث الذى يفتح فى الحائط الغربى هو باب الوداع وقد نسيه ناصر خسرو أو ناسخ النص • شيفر ص ١٩٧ •

(٣) لاحظ غنى زاده ص ١٠٦ (١٨) أن النص الفارسى أشار الى سبعة عشر بابا مع انه قال ان أبواب المسجد الحرام ثمانية عشر • وقد ذكرنا اسم الباب الناقص وهو باب الوداع •

ويلاحظ أن الرحالة المسلمين ، المقدسى وابن جبير والأزرقى وقطب الدين وغيرهم ، قد لاحظوا أن اسماء ابواب المسجد الحرام كانت تختلف باختلاف العصور • وللوقوف على هذه الأسماء المختلفة يراجع الجدول الذى عمله Burckarél في الجزء الأول من ٢٠٤ ـ ٢٠٥ من رحلته في الحجاز (ترجمة فرنسية ،
Eyrié : Voyage en Arabie contenant la description des parties du Hedjaz regardées comme sacrées par les Musulmans.

وراجع Schefer ص ١٩٧) •

طويل القامة يكون مقابلا لصدره • وطول هذا الحجر شبر وأربعة أصابع ، وعرضه ثمانية أصابع ، وهو مستدير الشكل (١) • وبينه وبين باب الكعبة اربع أذرع ويسمى ما بينهما الملتزم •

ويرتفع باب الكعبة عن الأرض أربع أذرع ، بحيث اذا وقف رجل مديد القامة على الأرض يصل الى عتبته • وقد صنع سلم من الخشب ، يضعونه وقت الحاجة أمام الباب ، فيصعد عليه الناس ويدخلون الكعبة ، ويسع عرض هذا السلم عشرة رجال ، يصعدون ينزلون بعضهم بجانب بعض • وأرض الكعبة عالية بهذا المقدار •

وصف باب الكعبة :

هو باب من خشب الساج ، له مصراعان • ارتفاعه ست أذرع ونصف ذراع وعرض كل من مصراعيه ذراع وثلاثة أرباع الذراع ، فعرضهما معا ثلاث اذرع ونصف • وعلى صدر الباب وأعلاه كتابة ، كما أن عليه دوائر زخرفية من فضة ، وكتابات منقوشة بالذهب والفضة ، وقد كتب عليه هذه الآية حتى آخرها : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة (مباركا وهدى للعالمين) (٢) » • وله حلقتان كبيرتان من الفضة ، أرسلتا من غزنين ، وقد ركبتا فى مصراعيه

---

(١) عندما احترقت الكعبة أثناء حرب عبد الله بن الزبير اذابت النار الحجر وشققته الى ثلاث قطع • فكان الزبير اول من ربط الركن الأسود بالفضة لما اصابه من حريق ثم كانت الفضة قد رقت وتزعزعت حول الحجر الأسود حتى خافوا على الركن أن ينقض فلما اعتمر هرون الرشيد وجاور فى سنة ٩٠١/٢٨٩ ، امر بالحجارة التى بينها الحجر الأسود فثقبت بالماس من فوقها وتحتها ثم افرغت فيها الفضة •

وفى ٩٣٠/٣١٧ استطاع ابو طاهر أن ينهب الكعبة وان ينقل الحجر الأسود الى لحا كما سيقول ناصر خسرو (ص ٩٤) ، وقد رده القرامطة ، بعد موت أبى طاهر ، سنة ٩٥٠/٢٣٩ • ويقال ان الحاكم بامر الله ارسل الى مكة رجلا ليكسر الحجر الأسود فضربه بقطعة من الحديد ثلاث مرات ، وقد قتل فى الحال وذبح الجند الذى أعد لحراسته ونهبت قافلة الحجاج من اهل مصر • راجع Schefer ص ١٩٠ واخبار مكة للازرقى ص ٢٢٥ (طبعة مكة) •

(٢) سورة آل عمران آية ٩٦ •

بحيث لا تصل اليهما يد انسان • ومن تحتهما حلقتان أخريان من الفضة ، اصغر حجما ، وموضوعتان بحيث تصل اليد اليهما • وفيهما قفل كبير من الفضة ايضا يقفل به الباب ولا يفتح ما لم ينزع القفل •

وصف الكعبة من الداخل :

يبلغ سمك حائطها ستة أشبار • وأرضها مغطاة بالرخام الابيض • وبالكعبه ثلاث خلوات صغيرة ، كأنها دكاكين ، احداها تقابل الباب والاخريان على الجانب الشمالى • والاعمدة التى بالكعبة والتى اقيم عليها السقف كلها من خشب الساج المربع ، الا عمودا واحدا مدورا • وفى الجانب الشمالى قطعة مستطيلة من الرخام الاحمر ، يقال ان الرسول عليه الصلاة والسلام كان يصلى عليها • ويجتهد من يعرف ذلك أن يصلى هناك • وقد غطيت حوائط الكعبة بالواح الرخام الملون • وعلى الجانب الغربى منها ستة محاريب من الفضة ، ألصقت بالحائط بمسامير • ويبلغ ارتفاع كل منها قامة الرجل وهى مزينة بنقوش كثيرة من الذهب والفضة ، وهى مرتفعة عن الارض • وحوائط الكعبه الاربعة ، حتى اربعة أذرع من الأرض ، خاليه من النقوش ، واما بعد ذلك الى السقف ، فمزينة بالرخام المنقوش والموشى اغلبه بالذهب •

وفوق كل من الخلوات الثلاث التى ذكرتها والتى توجد احداها فى الركن العراقى ، والأخرى فى الركن الشامى ، والثالثة فى الركن اليمانى ، فوق كل ركن منها ، لوحان من الخشب متبتان على الحائط بمسامير من فضة ، وهى الواح من خشب سفينة نوح عليه السلام ، طول كل منها خمس أذرع وعرضه ذراع واحد •

وقد أسدل على الخلوة التى خلف الحجر الأسود ستار من الديباج الأحمر • وحين يدخل السائر فى الكعبة يجد على

اليد اليمنى زاوية مربعة بمقدار ثلاث أذرع فى مثلها •
وهناك سلم يؤدى الى سطح الكعبة ، عليه باب من الفضة له مصراع واحد ، يسمى باب الرحمة ، وعليه قفل من الفضة ، فاذا صار فوق سطح الكعبة يجد بابا اخر ، مثل الباب السابق منقوش بالفضة على وجهيه • وقد غطى سقف الكعبة بالخشب المغطى بالحرير الذى يحجبه عن الانظار • وعلى حائط الكعبة الأمامى ، فوق العمد الخشبية ، كتابة ذهبيه فيها اسم العزيز بالله سلطان مصر الذى استولى على مكه من الخلفاء العباسيين • وعلى الحائط اربعه الواح اخرى كبيرة من الفضة ، متقابله ، ومثبتة بمسامير من فضة • وعلى كل لوح منها اسم السلطان الذى ارسله من سلاطين مصر ، وكان كل منهم يرسل لوحا فى عهده •

وبين الأعمدة ثلاثة قناديل فضية معلقة ، وبلاط سطح الكعبة من الرخام اليمنى الذى يلمع كانه البلور • وفى أركانها أربع روازن على كل منها لوح من الزجاج لينفذ منه النور ولمنع تسرب المطر •

والميزاب فى وسط الحائط الشمالى وطوله ثلاث ادرع، وكله مطلى بالذهب •

والكسوة التى تغطى بها الكعبة بيضاء ، وقد طرزت فى موضعين ، عرض كل منهما ذراع ، وبينهما عشر ادرع تقريبا ، ومن فوقهما وتحتهما عشر ادرع ايضا ، بحيث ينقسم ارتفاع الكعبة الى ثلاثه اقسام ، كل منها عشر ادرع، بواسطة طرازى الكسوة • وعلى جوانب هذه الكسوة الاربعة نسجت محاريب ملونة مزينة بخيوط من ذهب • وعلى كل ناحية ثلاثة محاريب : محراب كبير فى الوسط ، ومحرابان صغيران على جانبيه فعلى النواحى الأربعة اثنا عشر محرابا •

وخارج الكعبة حائط علوه ذراع ونصف ، وتتصل نهايتاه بركنى الكعبة ، لأن هذا الحائط مقوس كنصف الدائرة ، وهو يبعد من منتصفه عن الكعبة مقدار خمس

عشرة ذراعا ، وأرض هـذا الموضع مبلطة بالرخام الملون المنقوش ، ويسمى الحجر • وبه يصب ماء الميزاب الذى فوق الكعبة ، وقد وضع تحته قطعة من الحجر الأخضر على شـكل محراب ، يسقط عليهـا الماء ، وهى كبيرة بحيث يسـتطيع رجل أن يصلى عليها •

ومقام ابراهيم عليه السلام شرقى الكعبة • وهو الحجر الذى به آثار قدمى ابراهيم عليه السلام • وهو مركب فى حجر آخر وعليـه غلاف مربـع من الخشب ، بارتفاع قامة الرجل ، وهو فى غاية الدقة ، ووضعت عليـه ألـواح من الفضة • وقد أحكم ربط الغلاف بالحـائط بسـلاسل من الجانبين ، وعليه قفلان ، وذلك حتى لا يستطيع أحـد أن يلمس الحجر • وبين الكعبة ومقام ابراهيم ثلاثون ذراعا •

بئر زمزم :

بئر زمزم(١) شرقى الكعبة ، حذاء ركن الحجر الأسود• وبين زمزم والكعبة ست وأربعون ذراعا ، وسعة البئر ثلاث أذرع ونصف فى مثلها • وماؤها ملح ولكنه يستساغ • وقد بنوا عند فوهتها خرزة من الرخام الأبيض ارتفاعها ذراعان،

---

(١) يرجع تاريخها ، عند رواة العرب ، الى أيام هاجر أم اسماعيل ، فانه لما طلب الماء فلم تجده جاء جبريل وغمز الأرض بعقبه فنبع الماء وكانت زمزم •••• ثم بنيت مكة حولها وسكنتها قبيلة جرهم التى يقال انها طمست البئر حين نفيت من مكة • وقد كشفها وزاد فى غورها عبد المطلب بن هاشم وولده الحارث • وقد وجد عبد المطلب بها الأوانى الذهبية والأسلحة التى ألقاها فيها بنو جرهم ، ثم أمر بتوزيع مائها على الحجاج الذين كانوا يفدون كل عام لزيارة الكعبة • وقد أخذ ماؤها فى التناقص فعمل الولاة فى السنين ٢٣ و ٢٤ و ٢٠٠ (٦٤٣ و ٦٤٤ و ٨١٥) على زيادة غورها وتدعيم جدرالها ويقول الأزرقى (٣٠٠ ـــ ٣٠١) ان فى قعر البئر ثلاث عيون : عين حذاء الركن الأسود وعين حذاء أبى قبيس وعين حذاء المروة • وفى ١٤١٩/٨٢٢ عمر بيت زمزم وأحواضه والظلة التى فوقه للمؤذنين على نفقة الشيخ على بن محمد بن عبد الكريم الجيلانى • وفى ١٥٢٦/٩٣٣ عمل لدائر بيت زمزم طراز مذهب وكتب فيه اسم السلطان سليمان • وفى ١٥٤١/٩٤٨ جدد الأمير خشقلدى بيت زمزم فرخمت أرضه وجعل عليه سقف فوقه مظلة مسقوفة بالخشب المزخرف عليه جمالون فى وسطه قبة مصفحة بالرصاص • وفى ١٦١١/١٠٢٠ وضعت شبكة من الحديد بداخل البئر ومنخفضة عن سطح الماء بمقدار متر حتى لا يغرق المجاذيب اذا ألقوا بأنفسهم فيها وقد أمر بذلك السلطان أحمد خان • راجع مرآة الحرمين لابراهيم رفعت باشا ج ١ ص ٢٥٥ وما بعدها وشيفر ٢٠٦ •

وفى جوانب حجرة زمزم الأربعة أحواض يصب فيها الماء ، ويتوضأ الناس به . وأرضها من الخشب المشبك ليسيل الماء الذى يراق بها . وبابها ناحية المشرق .

وأمام البئر ناحية المشرق ، بناء آخر مربع عليه قبة ، يسمى سقاية الحاج ، وضع به أزيار يشرب منها الحجاج ، وبعد هذا البناء ، ناحية الشرق ، بناء آخر مستطيل ، عليه ثلاث قباب ، يسمى خزانة الزيت ، به الشمع والزيت والقناديل .

وحول الكعبة أعمدة يتصل بعضها بالبعض بواسطة عروق من الخشب ، عليها زخارف ونقوش من الفضة ، ومعلق بها الحلق والكلابات . حتى يوضع الشمع فى هذه وتدلى المصابيح من تلك بالليل، ويسمى هذا الموضع المشاعل. ويفصله عن الكعبة خمسون ومائة ذراع ، وهى مسافة الطواف .

فجملة المبانى التى بساحة المسجد الحرام ، عدا الكعبة المعظمة ، شرفها الله تعالى ، ثلاثة ، هى بيت زمزم وسقاية الحاج وخزانة الزيت .

وتحت السقف المحيط بالمسجد ، بجانب الحائط ، صناديق من جميع مدن المغرب ومصر والشام والروم والعراقين وخراسان وما راء النهر وغيرها .

وعلى مسافة أربعة فراسخ شمال مكة ، ناحية تسمى برقة يقيم بها أمير مكة مع جيش خاص به ، وهناك ماء جار وأشجار ، ومساحتها فرسخان طولا فى مثلهما عرضا .

وفى هذه السنة كنت بمكة مجاورا منذ أول رجب وعادتهم أن يفتحوا باب الكعبة كل يوم فى هذا الشهر منذ شروق الشمس .

وصف فتح باب الكعبة :

امتازت قبيلة من العرب تسمى بنى شيبة ، يحفظ مفتاح باب الكعبة ، وهم خدمها • وكان لهم خلع ومشاهرات من سلطان مصر ، ولهم رئيس بيده المفتاح : وحين يجىء يصاحبه خمسة أو ستة أفراد ، وحين يصلون ينضم اليهم عشرة من الحجاج فيرفعون السلم الذى قدمنا وصفه ويضعونه أمام الباب ، فيصعدها هذا الشيخ ويقف على العتبة ، ويصعد بعده رجلان ويرفعان الستار والديباج الاصفر ، يمسك كل منهما طرفا منه بحيث يحجب الشيخ وهو يفتح الباب • يفتح الشيخ القفل ، وينزعه من الحلق ، بينما الحجاج وقوف امام الكعبة فحين يفتح الباب يرفعون أيديهم بالدعاء ، فيعرف كل من يسمع صوتهم بمكة أن باب الكعبة قد فتح ، فيرفع الناس جميعا أصواتهم عالية ويدعون ربهم ، وتحدث جلجلة عظيمة بالبلد • ثم يدخل الشيخ ، بينما الرجلان يمسكان الستار ، ويصلى ركعتين • ثم يعود فيفتح الباب على مصراعيه ، ويقف على العتبة ، ويقرأ الخطبة عليهم بصوت مرتفع ، ويصلى على رسول الله عليه الصلوات والسلام وعلى أهل بيته ، ثم يقف الشيخ وأصحابه على جانبى باب الكعبة ، بينما يأخذ الحجاج فى الصعود ودخول الكعبة ، فيصلى كل منهم ركعتين ثم يخرج ، ويدوم ذلك الى قرب منتصف النهار • ويولون وجوههم أثناء صلاتهم بالكعبة نحو الباب ، مع جواز التوجه نحو الجوانب الأخرى ، وقد أحصيت الناس فى وقت كانت الكعبة ممتلئة فيه ، حتى لم يكن بها مكان لداخل ، فكانوا عشرين وسبعمائة رجل • وعامة حجاج اليمن يشبهون الهنود ، فكل منهم يتشح بفوطة ، وشعورهم متدلية ، ولحاهم مضفرة ، وفى وسط كل منهم حربة قطيفية كالتى يتمنطق بها الهنود ، ويقال أن اصل الهنود من اليمن ، وأن قتالة أصلها كتارة (الحربة) ثم عربت • ويفتح باب الكعبة أيام الاثنين والخميس والجمعة من شهر شعبان ورمضان وشوال • فاذا جاء ذو القعدة أغلق الباب •

عمرة الجعرانة :

على اربعة فراسخ من شمال مكة ، مكان يسمى الجعرانة، كان به النبى عليه السلام مع جيشه في السادس عشر من ذى القعدة فاحرم منه وجاء الى مكة واعتمر . وهناك بئران بئر الرسول وبئر على بن ابى طالب صلوات الله عليهما . وماء البئرين عذب جدا وبينهما عشر اذرع . وقد اتخذت هذه العمرة النبوية سنة تؤدى فى هذا الموسم . وقرب البئرين صخرة كبيرة ، فيها فجوات كأنها كؤوس ، يقال ان النبى عليه السلام عجن الدقيق فيها بيديه . والذين يزورون هذا المكان يعجنون الدقيق بأيديهم بماء هذين البئرين . ويتخذون من الاشجار الكثيرة هناك وقودا للخبز الذى يرسلونه الى الأقطار تبركا . وهناك أيضا صخرة كبيرة مرتفعة ، يقال ان بلالا الحبشى كان يقف عليها ويؤذن للصلاة ، ويصعد عليها الزائرون ويؤذنون وحين كنت بالجعرانة كان بها أناس كثيرون وكان بها أكثر من ألف جمل بالعماريات مما يبين كثرة الزائرين الآخرين .

★★★

ومن مصر الى مكة عن الطريق الذى سرت فيه هذه المرة ثلاثمائة فرسخ . ومن مكة الى اليمن اثناعشر فرسخا .

وتقع صحراء عرفات بين جبال صغيرة كالتلال ، ومساحتها فرسخان فى مثلهما . وكان بها مسجد بناه ابراهيم عليه السلام ، لم يبق منه هذه الساعة غير منبر خرب من الطوب النيىء ، يصعد عليه الخطيب فى صلاة الظهر ويخطب، ثم يؤذنون للصلاة ثم يصلون جماعة ركعتين ، سنة المسافرين، ثم يقيمون الصلاة ويصلون جماعة ركعتين أخريين ثم يجلس الخطيب على جمل ويتجه شرقا والناس وراءه . وعلى بعد فرسخ جبل حجرى صغير يسمى جبل الرحمة . هناك يقفون ويدعون حتى وقت الغروب .

وقد أوصل ابن شاد دل ، الذى كان أميرا لعدن ، الماء الى جبل الرحمة من مكان بعيد وأنفق فى ذلك مالا طائلا . ويحمل الماء من هذا الجبل الى صحراء عرفات ، حيث عملت أحواض تملأ ماء أيام الحج حتى يتيسر الماء للحجيج . وقد بنى هذا الأمير ، فوق جبل الرحمة ، طاقا مربعا كبيرا ، يضعون فوق قبته كثيرا من القناديل والشموع ليلة عرفة ويومه ، فيرى نورها من مسافة فرسخين . وقيل ان أمير مكة أخذ ألف دينار من ابن شاد دل ليجيز له اقامة هذا الطاق .

فى التاسع من ذى الحجة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٢٧ ابريل ١٠٥١) قضيت الحجة الرابعة بعون الله سبحانه وتعالى . ولما غابت الشمس عاد الحجاج والخطيب من عرفات ، وساروا فرسخا الى المشعر الحرام . ويسمونه المزدلفة . وهناك بناء جميل كالمقصورة يصلى فيه الناس ويأخذون منه حجارة الرجم التى يرمونها بمنى . والعادة أن يقضى الحجاج هذه الليلة ، وهى ليلة العيد ، هناك ، حيث يصلون الفجر ، وعند طلوع الشمس يتوجهون الى منى حيث يضحون . وهناك مسجد كبير يسمى مسجد خيف . وليس من الفروض القاء الخطبة وصلاة العيد بمنى فى ذلك اليوم ، ولم يأمر بهما المصطفى عليه السلام ويكون الحجاج بمنى فى العاشر من ذى الحجة ، وهناك يرمون الحجارة ، وشرح ذلك مذكور فى مناسك الحج . وفى الثانى عشر من ذى الحجة يغادر منى من عزم على العودة لبلاده ، ويذهب الى مكة أهلها .

الى الحسا عن طريق الطائف ومطار والثريا وجزع وسربا وفلج واليمامة :

بعد اتمام الحج استأجرت جملا من أعرابى لأذهب الى الحسا ، وقيل انهم يبلغونها من مكة فى ثلاثة عشر يوما . وقد ودعت بيت الله يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة (٧ مايو سنة ١٠٥١) الموافق أول خرداد القديم (مايو ــ يونيو) . وقد وجدنا مرجا بعد

سبعة فراسخ من مكة عنده جبل ، ولما بلغناه وجدنا سهلا وقرى وبئرا اسمها بئر الحسين بن سلامة • وكان الجو باردا ، وقد سرنا ناحية المشرق •

بلغنا الطائف يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذى الحجة ، ومن مكة الى هناك اثنا عشر فرسخا • والطائف ناحية على رأس جبل • وكان الجو باردا في شهر خرداد (مايو — يونيو) حتى لزم الجلوس في الشمس ، بينما يكثر البطيخ بمكة في هذا الوقت • وقصبة الطائف هذه مدينة صغيرة بها حصن محكم وسوق وجامع صغيران ، وبها ماء جار واشجار رمان وتين كثيرة • وبجوارها قبر عبد الله بن عباس رضى الله عنه (١) •

وقد بنى خلفاء بغداد هناك مسجدا كبيرا يقع القبر في زاويته ، على يمين المحراب والمنبر • وبنى الناس هناك بيوتا يسكنونها •

سرنا من الطائف واجتزنا جبالا وأراضى صخرية ، وكنا نجد حيثما سرنا قلاعا محصنة وقرى • وقد أرونى وسط الصخور قلعة خربة ، قيل انها كانت بيت ليلى ، وقصتهم فى هذا عجيبة • ومن هناك بلغنا قلعة تسمى مطار ، وبينها وبين الطائف اثنا عشر فرسخا ، ثم بلغنا ناحية تسمى الثريا بها نخيل كثير ، وتزرع أرضها بمياه الآبار والسواقى • قالوا وليس لهذه الناحية حاكم أو سلطان ، فان على كل جهة رئيسا أو سيدا مستقلا ، ويعيش الناس على السرقة والقتل وهم فى حرب دائم بعضهم مع بعض (٢) • ومن الطائف الى هناك

---

(١) توفى بها سنة ست وثمانين هجرية (٦٨٧) فى العام الحادى والسبعين من عمره •

(٢) يقول شيفر ص ٢١٦ ، نقلا عن مخطوط فى مكتبته اسمه « تاريخ مستنصرى » ، فى الصفحتين ٤٥ — ٤٦ ، ان جمال الدين بن المجاور يؤيد ما ذهب اليه ناصر خسرو فيما يتعلق بسكان الجزء الجنوبى الشرقى من الطائف حيث يقول :

ان هذا المكان يشتمل على قرى تكاد تكون متساوية فى المساحة • يسكن كلا منها جماعة أو قبيلة من الأعراب • وهم لا يرضون أن يقيم أجنبى فى أرضهم أو يقف بها • وفى كل قرية قلعة من الحجر والطين ولكل مواطن حجرة بها يضع فيها أملاكه وما ينهبه ، ويأخذ منها حاجياته كل يوم • ويقيم السكان فى أربعة شوارع واسعة مشيدة حول القلعة =

خمسة وعشرون فرسخا • وبعد ذلك مررنا بقلعة تسمى جزع • وعلى مسافة نصف فرسخ منها أربع قلاع ، نزلنا عند أكبرها وتسمى حصن بني نسير (٢) ، وهناك قليل من النخيل ، وبيت العربي الذى استأجرنا جملة في الجزع هذه • وقد لبثنا هناك خمسة عشر يوما اذ لم يكن معنا خفير يهدينا الطريق • ولكل قوم من عرب هذا المكان ارض محددة ترعى بهاماشيتهم ، ولا يستطيع اجنبى أن يدخلها ، فهم يمسكون كل من يدخل بغير خفير ويجردونه مما معه • ويلزم اصطحاب خفير من كل جماعة حتى يتيسر المرور من ارضهم ، فهو وقاية للمسافر ، ويسمونه ايضا مرشد الطريق (قلاوز) • وقد اتفق أن جاء الى الجزع رئيس الأعراب الذين كانوا في طريقنا وهم بنو سواد ، واسمه أبو غانم عبس بن البعير ، فاتخذناه خفيرا ، وذهبنا معه • وقابلنا قومه ، فظنوا أنهم لقوا صيدا ، اذ أن كل أجنبى يرونه يسمى صيدا ، فلما راوا رئيسهم معنا أسقط في ايديهم ، ولولا ذلك لأهلكونا • وفى الجملة لبثنا معهم زمنا ، اذ لم يكن معنا خفير يصحبنا • ثم أخذنا من هناك خفيرين ، أجر كل منهما عشرة جنيهات ، ليسيرا بنا بين قوم آخرين • وقد كان هؤلاء العرب شيوخا في السبعين من عمرهم قالوا لى انهم لم يذوقوا شيئا غير لبن الابل طوال حياتهم ، اذ ليس في هذه الصحراء غير علف فاسد تأكله الجمال ، وكانوا يظنون أن العالم هكذا • وظللت أتحول من قوم الى قوم ، وأجد في كل مكان خطرا وخوفا ، الا أن الله تبارك وتعالى سلمنا منها •

= وتخضع كل قرية لشيخها ، الذى يختار من بين كبارهم لسنه وذكائه ، ولا ينازعه أحد السلطة ولا يعارضه في رأى • ولا تعرف هذه البلاد سلطانا ولا يدفع السكان اى ضريبة ، فلا يعطون غير ما يشاءون • وكل قرية في عداء دائم مع الأخرى • ويعمل كل منهم على انتزاع ما يملك جاره • فأقارب زيد مشتغلون بانتزاع ما يملك أقارب عمرو ، ويزرع هؤلاء الأعراب القمح والشعير ، وفى بلادهم العنب والرمان واللوز • وغذاؤهم الرئيسى الزبدة والعسل • وهم يرجعون نسبهم الى قحطان أو غيره •

(٢) صححها شيفر ببنى نمير ، وهم من أبناء عامر ، يسكنون الجبال والوديان في جزء من بلاد نجد واليمامة • راجع ياقوت ج ٢ ص ٢٨٩ ، وشيفر ص ٢١٧ •

وبلغنا مكانا في وسط أرض ملؤها الصخور يسمى سربا • رأيت به جبلا كل منها كالقبه (١) ، لم ار مثلها في اى ولاية ، وهي من الارتفاع بحيث لا يصل اليها السهم ، وملساء كبيضة الطائر ، وصلبه بحيث لا يظهر عليها شق أو التواء • وقد سرنا من هناك ، فكان زملاؤنا فى الطريق كلما رأوا ضبا قتلوه واكلوه ، وكانوا يحلبون لبن الجمال حيث وجد الاعراب • ولم اكن استطيع اكل الضب او شرب لبن الجمال • وفى كل جهه فى الطريق شجر به ثمر فى حجم حبة البسلة ، فكنت اقنع بأكل حبات منها • وبعد معاناة مشاق ومتاعب كثيرة بلغنا فلج فى الثالث والعشرين من صفر (٤٤٣ / ١٠٥١) •

فلج :

ومن مكة اليها ثمانون ومائة فرسخ • وتقع فلج هذه وسط البادية وهى ناحية كبيرة ، ولكنها خربت بالتعصب • وكان العمران ، حين زرناها ، قاصرا على نصف فرسخ فى ميل عرضا • وفى هذه المسافة أربع عشرة قلعة للصوص والمفسدين والجهلة • وهى مقسمة بين حزبين بينهما خصومة وعداوة دائمة • قد قالوا نحن من أصحاب الرقيم الذين ذكروا فى القرآن الكريم • وهناك أربع قنوات يسقى منها النخيل • أما زرعهم ففى أرض عالية يرفع اليها معظم الماء من الآبار • وهم يستخدمون فى زراعتهم الجمال لا الثيران ولم أرها هناك • وزراعتهم قليلة • وأجر الرجل فى اليوم عشرة سيرات (٢) من غلة ، يخبزها أرغفة • ولا ياكلون الا قليلا من صلاة المغرب حتى صلاة المغرب التالية ، كما فى رمضان ويأكلون التمر أثناء النهار • وقد رأيت هناك تمرا طيبا جدا أحسن مما فى البصرة وغيرها •

---

(١) تسمى هذه الجبال بجبل الطويق ، شيفر ٢١٩ •

(٢) يزن السير خمسة عشر مثقالا ، شيفر ص ٢٢٠ •

والسكان هناك فقراء جدا وبؤساء ، ومع فقرهم فانهم كل يوم في حرب وعداء وسفك دماء وهناك تمر يسمونه ميدون، تزن الواحدة منه عشرة دراهم • ولا يزيد وزن النوى به عن دانق ونصف • ويقال انه لا يفسد ولو بقى عشرين سنة • ومعاملتهم بالذهب النيشابورى وقد لبثت بفلج هذه أربعة أشهر فى حالة ليس أصعب منهـا • لم يكن معى من شئون الدنيا سوى سلتين من الكتب، والناس جياع وعراة وجهلاء ، ويلتزمون حمل الترس والسيف اذا ذهبوا للصلاة ، ولا يشترون الكتب ، وكان هناك مسجد نزلنا فيه ، وكان معى قليل من اللونين القرمزى واللازورد ، فكتبت على حائط المسجد بيت شعر ووضعت فى وسطه ورق الشجر ، فرأوه وتعجبوا وتجمع أهل القلعة كلها ليتفرجوا عليه • وقالوا لى اذا تنقش محراب هذا المسجد نعطيك مائة من تمرا ، ومائة من تمرا عندهم شيء كثير ، فقد أتى ، وأنا هناك ، جيش من العرب وطلب منهم خمسمائة من تمرا فلم يقبلوا وحاربوا ، وقتل من أهل القلعة عشرة رجال ، وقلعت الف نخلة ولم يعطوهم عشرة امنان تمرا ! وقد نقشت المحراب كما اتفقوا معى ، وكان لنا فى المائة من من التمر عون كبير اذ لم يكن ميسورا أن نجد غذاء ، ولم يكن لدينا أمل فى الحياة ولم نكن نستطيع أن نتصور خروجنا من هذه البادية ، اذ كان مخاوف ومهالك • ولم أر فى الأشهر الأربعة التى أقمتها بفلج خمسة أمنان من القمح فى أى مكان • وأخيرا أتت قافلة من اليمامة لأخذ الأديم وحمله الى الحسا • فانه يحضر من اليمن الى فلج حيث يباع للتجار • قال لى أعرابى : أنا أحملك الى البصرة • ولم يكن معى شيء قط لأعطيه أجرا ، والمسافة مائتا فرسخ وأجرة الجمل دينار • ويباع الجمل العظيم هناك بدينارين أو ثلاثة • ولكنى رحلت نسيئة اذ لم يكن معى نقود ، فقال الأعرابى : أحملك الى البصرة على أن تأجرنى ثلاثين دينارا ، فقبلت مضطرا ، ولم أكن قد رأيت البصرة قط • فوضع هؤلاء الاعراب كتبى على جمل أركبوا عليه أخى ، وسرت أنا

راجلا • وتوجهنا فى اتجاه مطلع بنات النعش (الدب الأكبر) • كان الطريق مستويا لا جبال فيه ولا مرتفعات ، وكان ماء المطر متجمعا حيثما كانت الأرض أشد صلابة • ومضت ليال وأيام، ولم يبد فى أى جهة اثر الطريق الا انهم كانوا يسيرون بالغريزة (السمع) ، ومن العجيب أنهم كانوا يبلغون فجاة بئر ماء مع عدم وجود أى علامة •

اليمامة :

وبالاختصار بلغنا اليمامة بعد مسيرة اربعة ايام بلياليها • وباليمامة حصن كبير قديم ، والمدينة والسوق ، حيث صناع من كل نوع ، يقعان خارج الحصن • وبها مسجد جميل • وامراؤها علويون منذ القديم (١) • ولم ينتزع احد هذه الولاية منهم اذ ليس بجوارهم سلطان او ملك قاهر ، وهؤلاء العلويون ذوو شوكه ، فلديهم ثلاثمائة او اربعمائة فارس • ومذهبهم الزيدية (٢) ، وهم يقولون فى الاقامة « محمد وعلى خير البشر وحى على خير العمل » • وقيل ان سكان هذه المدينة شريفية (خاضعون للاشراف) • وباليمامة مياه جارية فى القنوات وفيها نخيل • وقيل انه حين يكثر التمر يباع الألف من منه بدينار • ومن اليمامة الى الحسا أربعون فرسخا • ولا يتيسر الذهاب اليها الا فى فصل الشتاء حين تتجمع مياه المطر فيشرب الناس منها ، ولا يكون ذلك فى الصيف •

وصف الحسا (الأحساء أو الحسا) :

والحسا مدينة فى الصحراء ، ولبلوغها ، عن أى طريق، ينبغى اجتياز صحراء واسعة • والبصرة أقرب البلاد الاسلامية

---

(١) من عائلة طباطبا ، ورأسهم هو الامام يحيى الهادى من نسل الحسن بن على بن ابى طالب ، شيفر ٢٢٤ •

(٢) الزيدية اتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب •

التى بها سلطنة الى الحسا • وبينهما خمسون ومائة فرسخ• ولم يقصد سلطان من البصرة لحسا أبدا •

والحسا مدينة وسواد أيضا وبها قلعة ، ويحيط بها اربعه أسوار قويه متعاقبه من اللبن المحكم البناء بين كل اثنين منها ما يقرب من فرسخ • وفى المدينة عيون ماء عظيمة ، تكفى كل منها لادارة خمس سواق ، ويستهلك كل هذا الماء بهــا ، فلا يخرج منها • ووسط القلعة مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التى فى المدن الكبيرة • وفيهـــا أكثر من عشرين ألف محارب • وقيل أن سلطانهم كان شريفا وقد ردهم عن الاسلام، وقال انى اعفيتكم من الصلاة والصوم، ودعاهم الى أن مرجعهم لا يكون الا اليه واسمه أبو سعيد • وحين يسألون عن مذهبهم يقولون : أنا أبو سعيديون ، وهم لا يصلون ولا يصومون ، ولكنهم يقرون بمحمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وبرسالته وقد قال لهم أبو سعيد انى راجع اليكم ، يعنى بعد الوفاة • وقبره داخل المدينة ، وقد بنوا عنده قبرا جميلا ، وقد أوصى أبناءه قائلا : « يرعى الملك ويحافظ عليه ستة من أبنـــائى يحكمون الناس بالعدل والقسـطاس ولا يختلفون فيما بينهم حتى أعود » • ولهــؤلاء الحـكام الآن قصر منيف ، هــو دار ملكهم(١) • وبه تخت يجلسون هم الستة عليه ويصـــدرون أوامرهم بالاتفاق ، وكذلك يحكمون • ولهم ستة وزراء • فيجلس الملوك على تخت والوزراء على تخت آخر ، ويتداولون فى كل أمر • وكان لهم فى ذلك الـــوقت ثلاثون ألف عبــد زنجى وحبشى ، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البســاتين وهم لا يأخــذون عشـــورا من الرعيـــة ، واذا افتقر انســان أو استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمله ، واذا كان لأحدهم دين عــلى آخــر لا يطالبه بأكثر من رأس المـــال الذى له • وكل غريب ينزل هذه المدينة وله صناعة ، يعطى ما يكفيه من المال

(١) يعرف هذا القصر بدار الهجرة ، انظر ص ٤٠ من De Goeje, Histoire des Qarmathes du Bahrein • وراجع كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك اليمانى وما بعدها (طبعة مصر ١٩٣٩) •

حتى يشترى ما يلزم صناعتــه من عــدد وآلات ويرد (الى الحكام) ما أخذ حين يشاء • واذا تخرب بيت أو طاحــون أحد الملاك ، ولم تكن لديه القدرة عــلى الاصــلاح ــ امروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبــوا اليــه ويصلحوا المنزل أو الطاحون • ولا يطلبون من الملك شيئا • وفى الحســا مطاحن مملوكة للسلطان ــ تطحن للرعيــة مجــانا ــ ويدفع فيهــا السلطان نفقات اصلاحها وأجور الطحانين • وهؤلاء السلاطين الستة يسمون السادات ــ ويســمى وزراؤهم الشــائرة • وليس فى مدينة الحسا مسجد جمعة ــ ولا تقام بهــا صــلاة أو خطبة • الا أن رجلا فارســيا اســمه على بن احمــد بنى مسجدا ، وهو مسلم حاج غنى كان يتعهــد الحجــاج الذين يبلغون الحسا • والبيع والشراء والعطاء والأخذ يتم هنــاك بواسطة رصاص فى زنابيل يزن كل منها ستة آلاف درهم ، فيدفع الثمن عددا من الزنابيل ، هذه العملة لا تسرى فى الخارج • وينسجون هناك فوطا جميلة ويصدرونها للبصرة وغيرها • واذا صلى أحــد فانه لا يمنع ، ولكنهــم أنفســهم لا يصلون • ويجيب السلاطين من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع • ولا يشربون مطلقا • وعلى باب قبر أبى ســعيد حصان مهيأ بعناية ، عليه طوق ولجام ، يقف بالنوبة ليــلا ونهارا ، يعنون بذلك أن أبا ســعيد يركبــه حين يرجع الى الدنيا • ويقال انه قال لأبنائه : « حين أعود ولا تعرفوننى ، اضربوا رقبتى بسيفى ، فاذا كنت أنا حييت فى الحال » • وقد وضعت هذه الدلالة حتى لا يدعى أحد أنه أبو سعيد •

وقد ذهب أحد هؤلاء الســلاطين بجيش الى مكة ، أيام خلفاء بغداد ، فاستولى عليها ، وقتل من كان يطوف بالكعبة ، وانتزع الحجر الأســود من مكمنه ، ونقله الى الحســا • وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجذب الناس اليه من أطراف العالم ، ولم يفقهوا أن شرف محمد المصطفى صلى الله عليــه وسلم وجلاله هما اللذان يجذبان الناس ، فقد لبث الحجــر

فى الحسا سنين عديدة ولم يذهب اليها أحد • وأخيرا اشترى منهم الحجر الأسود وأعيد الى مكانه (١) •

وفى الحسا تباع لحوم الحيوانات كلها ، من قطط وكلاب وحمير وبقر وخراف وغيرها ، وتوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشترى ماذا يشترى • وهم يسمنون الكلاب هناك كما تعلف الخراف ، حتى لا تستطيع الحركة من سمنها ، ثم يذبحونها ويبيعون لحمها •

والبحر على مسيرة سبعة فراسخ من الحسا الى ناحية الشرق ، فاذا اجتازه المسافر وجد البحرين ، وهى جزيرة طولها خمسة عشرة فرسخا ، والبحرين مدينة كبيرة أيضا ، بها نخل كثير • ويستخرجون من هذا البحر اللؤلؤ ، ولسلاطين الحسا نصف ما يستخرجه الغواصون منه • واذا سار المسافر جنوب الحسا يبلغ عمان ، وهى بلاد العرب • وثلاثة جوانب منها صحراء لا يمكن اجتيازها • وولاية عمان ثمانون فرسخا فى مثلها ، وهى حالة الجو ، ويكثر بها الجوز الهندى المسمى نارجيل • واذا أبحر المسافر من عمان نحو الشرق ، يبلغ شاطىء كيش ومكران ، واذا سار جنوبا يبلغ عدن • فاذا سار فى الجانب الآخر يبلغ فارس •

وفى الحسا تمر كثير حتى انهم يسمنون به المواشى ، ويأتى وقت يباع فيه أكثر من الف من بدينار واحد • وحين يسير المسافر من الحسا الى الشمال سبعة فراسخ يبلغ جهة القطيف وهى مدينة كبيرة بها نخل كثير • وقد ذهب أمير عربى الى أبواب الحسا ورابط هناك سنة واستولى على سور من أسوارها الأربعة وشن عليها غارات كثيرة ولكنه لم ينل من أهلها شيئا ، وقد سألنى حين رآنى عما تنبىء به النجوم ، قال : أريد أن أستولى على الحسا فهل أستطيع أم لا فان أهلها قوم لا دين لهم » • فأجبته بما فيه الخير له •

---

(١) انظر تعليقات ص ٨١ ، ٨٢ من هذا الكتاب وراجع سياست نامة ص ١٩٨ •

وعندى أن كل البدو يشبهون أهل الحسا ، فلا دين لهم ، ومنهم أناس لم يمس الماء أيديهم مدة سنة • أقول هــذا عن بصيرة ، لا شيء فيه من الأراجيف ، فقد عشت فى وســطهم تسعة شهور دفعة واحدة لا فرقة بينها • ولم أكن اســتطيع أن أشرب اللبن الذى كانــوا يقــدمونه الى كلما طلبت ماء لأشرب ، فحين أرفضه وأطلب الماء يقولون : أطلبه حيثمــا تراه ، ولكن عند من تراه ؟ • وهم لم يروا الحمامات أو الماء الجارى فى حياتهم •

★★★

وصف البصرة

والآن أعود الى حكايتى :

حينما غادرنا الحسا (١) الى البصرة كنا نجد الماء فى بعض الجهات ولا نجده فى أخرى ، حتى بلغنا البصرة فى العشرين من شعبان سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (٢٨ ديسمبر ١٠٥١) ٠ للبصرة سور عظيم يحيط بها ، ما عدا الجزء المطل على النهر ٠ وهذا النهر هو شط العرب ، ويلتقى دجلة والفرات عند حدود مدينة البصرة ، ويلتقى بهما أيضا قناة الحويزة فيسمى النهر حينئذ شط العرب ٠ ويتفرع من شط العرب هذا قناتان كبيرتان بين منبعهما مسافة فرسخ وقد شقا صوب القبلة مسافة أربعة فراسخ ، ثم يلتقيان ويكونان قناة واحدة تسير مسافة فرسخ واحد ناحية الجنوب ٠ ومن هاتين القناتين شقت ترع كثيرة ، مدت فى كل الأطراف ، وغرست أشجار النخيل والحدائق على شواطئها ٠ والقناة العليا ، وهى الشمالية الشرقية ، تسمى نهر معقل ، والثانية ، وهى الغربية الجنوبية ، تسمى نهر الآبلة ٠ ومنهما تتكون جزيرة كبيرة مستطيلة ٠ والبصرة على أقصر ضلع من هذا المستطيل ٠ والجنوب الغربى للبصرة صحراء ليس بها عمران ولا ماء ولا شجر مطلقا ٠ وكان معظم البصرة خرابا ونحن هناك ٠ والجهات العامرة متباعدة

---

(١) يقول النص اليمامة وصحتها الحسا كما يبدو من سياق الكلام ٠

جدا ، من واحدة لأخرى نصف فرسخ من الخراب ولكن بابها وسورها محكمان وقويان ، وبها خلق كثير ودخل سلطانها كبير • كان أميرها فى ذلك الوقت ، ابن أبى كاليجار الديلمى الذى كان ملك فارس ، وكان وزيره رجلا فارسيا اسمه أبو منصور شاه مردان (١) • وينصب السوق فى البصرة فى ثلاث جهات كل يوم ففى الصباح يجرى التبادل فى سوق عثمان ، وفى المغرب فى سوق القداحين • والعمل فى السوق هكذا : كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكا ثم يشترى كل ما يلزمه ، ويحول الثمن على الصراف فلا يستخدم المشترى شيئا غير صك الصراف طالما يقيم بالمدينة •

حين بلغنا البصرة كنا من العرى والفاقة كأنا مجانين ، وكنا قد لبثنا ثلاثة شهور لم نحلق شعر رأسنا ، فأردت أن أذهب الى الحمام ، ألتمس الدفء ، فقد كان الجو باردا ولم يكن علينا ملابس • وكنت ، أنا وأخى ، كلانا يلبس فوطة بالية ، وعلى ظهرينا خرقة من الصوف متدلية من الرأس ، حتى قلت لنفسى من الذى يسمح لنا الآن بدخول الحمام ؟ فبعت السلتين اللتين كانت بهما كتبى ووضعت بعض دراهم من ثمنهما فى ورقة لأعطيها للحمامى ، عسى أن يسمح لنا بوقت أطول فى الحمام لنزيل ما علينا من كدر • فلما قدمت اليه هذه الدراهم ، نظر الينا شذرا وظن أننا مجانين وانتهرنا قائلا اذهبوا فالآن يخرج الناس من الحمام • ولم يأذن لنا بالدخول ، فخرجنا فى خجل ومشينا مسرعين • وكان بباب الحمام أطفال يلعبون فحسبونا مجانين ، فجروا فى اثرنا ، ورشقونا بالحجارة وصاحوا بنا • فلجأنا الى زاوية

---

(١) أبو نصر فيروز أبو كاليجار ولى الامارة سنة ١٠٤٨/٤٤٠ ، ولقب بالملك الرحيم ، وقد عزله طغرل بيك سنة ١٠٥٥/٤٤٧ •

ووزيره منصور بن شاه مردان هو الذى أنشأ دارا للكتب فى البصرة كان بها نفائس الكتب وأعيانها ، وقد نهبها وأحرقها اعراب الحسا فى هجومهم على البصرة سنة ١٠٩٠/٢٤٨ : ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٣ طبعة مصر •

وقد تملكنا العجب من أمر الدنيا • وكان الأعرابى يطلب منا الثلاثين دينارا مغربيا ولم نكن نعرف وسيلة للسداد وكان بالبصرة وزير ملك الأهواز واسمه أبو الفتح على بن أحمد ، وهو رجل أخلاق وفضل يجيد معرفة الشعر والأدب وكان كريما وقد جاء البصرة مع أبنائه وحاشيته وأقام بها ، ولم يكن لديه ما يشغله ، وكنت عرفت رجلا فارسيا فاضلا من أصدقاء الوزير والمترددين عليه كل وقت ، وكان هذا الفارسى فقيرا ، لا سعة عنده لاعانتنا ، فقص على الوزير قصتنا فلما سمعها أرسل الى رجلا ومعه حصان أن أركب أحضر عندى كما أنت • فخجلت من سوء حالى وعريى ولم أر الذهاب مناسبا فكتبت رقعة معتذرا وقلت فيها انى سأكون في خدمته (بعد وصول ورقتى اليه) وكان قصدى من الكتابة شيئين • أن يعرف فقرى وعلمى حين يطلع على كتابتى وأن يقدر أهليتى ، وذلك حتى لا أخجل من زيارته • وقد أرسل الى فى الحال ثلاثين دينارا لشراء كسوة ، فاشتريت حلتين جميلتين ، وفى اليوم الثالث ذهبت لمجلس الوزير فرأيته رجلا كاملا ، أديبا ، فاضلا ، جميل الخلقة ، متواضعا ، دينا ، حلو الحديث • وله أربعة أبناء أكبرهم شاب فصيح أديب عاقل ، اسمه الرئيس عبد الله أحمد بن على بن أحمد • وكان شاعرا وكاتبا ، فيه فتوة الشباب ورجاحة العقل ومظاهر التقوى ، وقد أضافنا الوزير عنده من أول شعبان الى نصف رمضان • ثم أمر باعطاء الأعرابى الذى استأجرنا جمله ، الثلاثين دينارا التى له على ، فكفانى مؤونة هذا الدين ، اللهم تباركت وتعاليت فرج ضيق المدينين من عبيدك من هم القرض بحق الحق وأهله • ولما أردنا السفر ، رحلنا عن طريق البحر ، بعد أن أفاض علينا بنعمه وأفضاله ، فبلغنا فارس فى كرامة وهدوء ، ببركة هذا الرجل الحر ، رضى الله عز وجل عن الرجال الأحرار •

وفى البصرة ثلاثة عشر مشهدا باسم أمير المؤمنين على ابن أبى طالب صلوات الله عليه وسلم جاء الى البصرة فى ربيع

الأول سنة خمس وثلاثين (سبتمبر ٦٥٥) من هجرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وكانت عائشة رضى الله عنها قد اتت محاربة ، وقد تزوج أمير المؤمنين عليه السلام ليلى بنت مسعود النهشلى ، وكان هذا المشهد بيتها ، وقد أقام به أمير المؤمنين اثنين وسبعين يوما ، ثم رجع الى الكوفة (١) • وبجانب المسجد الجامع مشهد آخر يسمى مشهد باب الطيب • ورأيت فى مسجد البصرة عمودا من الخشب طوله ثلاثون ذراعا وسمكه خمسة أشبار وأربعة أصابع ، وكان احد طرفيه أسمك من الطرف الآخر ، قيل انه من أخشاب بلاد الهند ، استولى عليه أمير المؤمنين على عليه السلام وأحضره للبصرة • والأحد عشر مشهدا الأخرى ، كل منها بموضع ، وقد زرتها كلها •

بعد أن أيسرنا ، ارتدينا ملابسنا ، وذهبنا يوما الى ذلك الحمام الذى لم يسمح لنا بدخوله من قبل • فوقف الحمامي عند دخولنا من الباب ، وكذلك وقف كل من الحاضرين ، حتى دخلنا ، ثم جاء المدلك والقيم وقاما بخدمتنا • فلما فرغنا ودخلنا غرفة الملابس ، وقف كل من بها ، ولم يجلسوا حتى لبسنا ثيابنا وخرجنا • وفى اثناء ذلك كان الحمامى يقول لصاحب له : هذان هما الرجلان اللذان لم ندخلهما الحمام يوم كذا • وكان يظن أننى لا أعرف لغته ، فقلت له بالعربية : حقا ما تقول فنحن اللذان كنا نلبس خرقة من الصوف على ظهرنا • فخجل الرجل واعتذر • وكان بين هذين الحالين عشرون يوما • وقد ذكرت هذا الفصل حتى يعرف الناس أنه لا ينبغى التذمر من أزمات الزمان واليأس من رحمة الخالق جل جلاله وعم نواله فانه تعالى رحيم •

---

(١) وقد انجب على منها ولديه عبيد الله وابا بكر اللذين قتلا مع اخيهما الحسين •

وصف المد والجزر بالبصرة ووصف أنهارها :

يحدث المد ببحر عمان عادة مرتين كل أربع وعشرين ساعة ، فيرتفع الماء مقدار عشر أذرع • وحين يبلغ الارتفاع أقصى مداه يبدأ الجزر بالتدريج • فينخفض الماء عشرا أو اثنى عشرة ذراعا • ويعرف بلوغ ارتفاع الماء مقدار الأذرع العشر بظهوره على عمود أقيم هناك أو على حائط • ولو كانت الأرض مستوية وغير عالية — لعظم امتداد البحر اليها • ويسير النهران ، دجلة والفرات ، بغاية البطء ، حتى يتعذر ، فى بعض الجهات ، معرفة اتجاه التيار فيهما • وحين يبدأ المد يدفع البحر ماءهما مسافة أربعين فرسخا حتى يظن انهما يرتدان الى منبعهما • أما فى الأماكن الأخرى التى تقع على شاطىء البحر ، فان امتداد المد اليها يتوقف على ارتفاعها وانخفاضها ، فحيثما استوت الأرض ازداد المد ، وحيثما ارتفعت قل • ويقال ان المد والجزر متعلقان بالقمر ، فيبلغ المد أقصى مداه حين يكون القمر على الأفقين ، يعنى أفقى المشرق والمغرب • ومن ناحية أخرى حين يكون القمر فى اجتماع الشمس واستقبالها يزداد الماء ، أى أن المد يزيد فى هذه الأوقات ويعظم ارتفاعه ، وحين يكون القمر فى التربيعات تأخذ المياه فى النقصان ، يعنى لا يكون علوها كثيرا وقت المد ، ولا ترتفع ارتفاعها وقت الاجتماع والاستقبال • وكذلك يكون جزرها فى هذه الحالة أقل هبوطا منه فى وقت الاجتماع والاستقبال • وبهذه الدلائل يقولون ان المد والجزر متعلقان بالقمر ، والله تعالى أعلم •

والأبلة ، التى تقع على النهر المسمى بها ، مدينة عامرة • وقد رأيت قصورها وأسواقها ومساجدها وأربطتها ، وهى من الجمال بحيث لا يمكن حدها أو وصفها • والمدينة الأصلية تقع على الجانب الشمالى للنهر ، وعلى جانبه الجنوبى يوجد من الشوارع والمساجد والأربطة والأسواق والأبنية الكبيرة مالا يوجد أحسن منه فى العالم ، وهذا الجانب الجنوبى

يسمى شق عثمان • والشط الكبير ، الذى هو دجلة والفرات مجتمعين ، والمسمى شط العرب ، يقع شرقى الأبلة ، والمدينة فى الجنوب • ويلتقى نهرا الأبله ومعقل عند البصرة • وقد ذكرت ذلك من قبل •

وصف أحياء البصرة :

والبصرة عشرون ناحية ، فى كل منها كثير من القرى والمزارع وهى : حشان ، شربه ، بلاس ، عقر ميسان ، المقيم ، نهر حرب ، شط العرب ، سعد ، سام ، الجعفرية ، المشان ، الصمد ، الجونة ، الجزيرة العظمى ، مروت ، الشرير ، جزيرة العرش ، الحميدة ، الحويزة ، المنفردات •

ويقال انه كان من المتعذر فى وقت ما أن تمر سفينة من فم نهر الأبلة ، لعظم عمق مائه ، فأمرت امرأة من أثرياء البصرة بتجهيز أربعمائة مركب وملأتها كلها بنوى التمر وأغرقتها هناك بعد احكام سدادها ، فارتفع القاع وتيسر عبور السفن • وفى الجملة فقد غادرنا البصرة فى منتصف شوال سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (٢٠ فبراير ١٠٥٢) ، فركبنا الزورق وسرنا فى نهر الأبله ، ورأينا طوال أربعة فراسخ فى اجتيازه حدائق وأكشاكا ومناظر لا تنقطع على شاطئيه • ويتفرع من هذا النهر ترع كل منها فى سعة نهر • فلما بلغنا شق عثمان وهى أمام الأبله نزلنا وأقمنا بها • وفى السابع عشر من شوال (٢٢ فبراير) ركبنا سفينة كبيرة تسمى بوصى • وكان الناس الكثيرون الواقفون على الجانبين يصيحون قائلين : سلمك الله تعالى يا بوصى • وقد بلغنا عبادان فنزل الركاب من السفينة •

تقع عبادان على شاطىء البحر ، وهى كالجزيرة ، اذ أن الشط ينقسم هناك الى قسمين مما يجعل بلوغها متعذرا ، من أى ناحية ، بغير عبور الماء • ويقع المحيط جنوب عبادان،

ولذا فان الماء يبلغ سورها وقت المد ، كما أنه يبتعد عنها أقل من فرسخين أثناء الجزر . ويشترى بعض المسافرين الحصير من عبادان ، ويشترى البعض الآخر المأكولات منها . وفي صباح اليوم التالى ، أجريت السفينة في البحر ، وسارت بنا شمالا ، وكان الماء حلوا مستساغا ، لغاية عشرة فراسخ، ذلك لأن ماء الشط يسير كاللسان في وسط البحر . ولما ارتفعت الشمس ظهر في البحر شيء يشبه العصفور الدرى، وكان يكبر كلما اقتربنا منه ، فلما واجهناه من اليسار على مسافة فرسخ خالفت الرياح، فرموا المرساة ، ولفوا الشراع. فسألت ما هذا ؟ قالوا انه الخشاب .

وصف الخشاب (المنار) :

يتكون من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق . وهو مربع قاعدته متسعة وقمته ضيقة ، ويرتفع عن سطح البحر أربعين ذراعا ، وعلى قمته حجارة وقرميد مقامة على عمد من خشب كأنها سقف ، ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحراس . ويقول البعض ان الذى بنى الخشاب هذا تاجر كبير ، ويقول آخرون بل بناه أحد الملوك . وكان الغرض منه شيئين : أحدهما أنه بنى في جهة ضحلة يضيق البحر عندها ، فاذا بلغتها سفينة كبيرة ارتطمت بالأرض . ففى الليل يشعلون سراجا في زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح ، وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون ، والثاني ليعرف الملاحون الاتجاه ، وايروا القرصان ان وجدوا فيتقونهم بتحويل اتجاه السفينة . ولما اجتزنا الخشاب ، بحيث أصبح لا يرى، رأينا آخر مثله ، ولكن ليس على سطحه قبة لأنهم لم يستطيعوا اكماله .

وصف إيران

ومن هناك بلغنا مدينة مهروبان ، وهى مدينة كبيرة على شاطىء البحر الشرقى ، بها سوق كبير وجامع جميل ، ولكن ماءها من المطر ، وليس بها آبار أو قنوات من الماء العذب ، وقد اتخذ أهلها أحواضا ومصانع ليكون الماء متوفرا دائما • وقد بنى بها ثلاثة أربطة ، كل منها كأنه حصن محكم ومرتفع • وقد رأيت على منبر مسجدها الجامع اسم يعقوب بن الليث ، فسألت واحدا كيف كان ذلك ؟ فقال : ان يعقوب بن الليث الصفار (١) استولى على البلاد لغاية هذه المدينة ، ولم يكن لأمير آخر من أمراء خراسان هذه القوة • وفى الوقت الذى كنت بها ، كانت مهروبان ملكا لأبناء أبى كاليجار الذى كان ملك فارس ، ومأكولات هذه المدينة تحمل اليها من المدن والولايات الأخرى ، اذ ليس بها شىء سوى السمك • وفيها تحصل المكوس ، فهى ميناء • وحين يسير المسافر منها جنوبا على شاطىء البحر ، يبلغ توه وكازرون • وقد لبثت بمهروبان زمنا ، لأنه قيل ان الطرق ليست آمنة لما بين أبناء أبى كاليجار من الحروب • فقد كان كل منهم على رأس جيش وكان الملك مضطربا (٢) • وسمعت أن

---

(١) رأس الأسرة الصفارية ٢٥٤ ــ ٢٦٥/٨٦٨ ــ ٨٧٨ •

(٢) كان لفيروز أبى كاليجار عز الملوك بن المرزبان تسعة أبناء : فيروز خسرو الذى خلفه على ملك البويهيين والذى لقب بالملك الرحيم ، وأبو منصور فولاذستون ، وأبو طالب كمران ، وأبو المظفر بهرام ، وأبو على كيخسرو ، وأبو سعد خسرو شاه وثلاثة آخرون =

بارجان رجلا عظيما فاضلا هو الشيخ السديد محمد بن عبد الملك ، وكنت قد سئمت من كثرة ما أقمت بمهروبان ، فكتبت له خطابا وأعلمته بحالى والتمست منه أن يرحلنى من هذه المدينة الى بلد أمين • فلما أرسلت الكتاب جاءنى فى اليوم الثالث ثلاثون رجلا مدججون بالسلاح وقالوا : قد أرسلنا الشيخ لنكون فى خدمتك الى أرجان ، وقد اصطحبونا آمنين اليها •

أرجان مدينة كبيرة بها عشرون ألف رجل ، وفى الجانب الشرقى منها نهر ينحدر من الجبل الذى شقت عند جانبه الشمالى أربع ترع عظيمة تتخلل المدينة وقد أنفق فى انشائها مال كثير • وتسير هذه الترع الى ما وراء أرجان وقد زرعت على شواطئها الحدائق والبساتين وبها كثير من النخل وأشجار النارنج والترنج والزيتون • بنيت أرجان بحيث يكون ما تحت الأرض من بيوتها مساويا لما فوقها • ويتخلل الماء هذه المساكن الأرضية والسراديب ، فى جميع جهات المدينة ، حيث يستروح الناس فى فصل الصيف • والناس هناك على مذاهب شتى • وامام المعتزلة اسمه أبو سعيد البصرى وهو رجل فصيح يدعى العلم بالهندسة والحساب ، وقد تباحثت معه وسأل كل منا الآخر وأجابه ، كما سمعت منه فى علمى الكلام والحساب وغيرهما •

غادرت أرجان فى أول المحرم سنة أربع وأربعين وأربعمائة (٢ مايو ١٠٥٢) ، وقد اتجهنا ناحية أصفهان عن طريق كوهستان ، فبلغنا فى الطريق جبلا به شق ضيق يقول العامة ان بهرام كور شقه بسيفه ويسمونه شمشير برید • ورأينا فى هذا المكان ماء متدفقا يتفجر من عين على

= أصغر سنا • وقد ثار أبو منصور فولاذستون على أخيه فى شيراز ، واحتمى فى قلعة اصطخر ، وحاصر أخاه أبا سعيد خسرو شاه • وقد أدت الخصومات بين الملك الرحيم واخوته الى عزل خوزستان وفارس الى سنة ٤٤٧/١٠٥٥ وهى السنة التى اضطر التى اضطر فيها أبو منصور الذى اعترف بسيادة طغرل بيك الى الفرار من شيراز والالتجاء الى فيروز آباد •

يميننا ، وينزل من مكان عال ، ويقول العامة ان هـذا المـاء يدوم تفجره في الصيف وأما في الشتاء فيقف ويتجمد ٠

ثم بلغنا الوردغان ، وبينها وبين أرجان أربعون فرسخا ، ولوردغان هذه هي حدود فارس ٠ ومن هناك بلغنا خان لنجان ورأيت اسم السلطان طغرل بيك مكتوبا على بابها ومنها الى أصفهان سبعة فراسخ ٠ ويعيش أهل خان لنجان آمنين هادئين ، كل منهم مشتغل بعمله وشئون بيته ٠ وفي الثامن من صفر سنة أربع وأربعين وأربعمائة (١٠ يونيو ١٠٥٢) قمنا من هناك فبلغنا مدينة أصفهان ٠ ومن البصرة اليها ثمانون ومائة فرسخ ٠ وهي مشيدة على أرض مستوية ، ماؤها عذب وهواؤها عليل ٠ وحيثما حفرت الأرض عشر أذرع خرج ماء عذب بارد ٠ وللمدينة سور مرتفع حصين به بوابات ومقاتلات وعلى السور شرفات ، وفيها أنهار جارية وأبنية جميلة مرتفعة ، وفي وسطها مسجد جمعة جميل جدا ٠ ويقال ان طول سورها ثلاثة فراسخ ونصف ٠ كلها عامرة من الداخل فلم أر بها خرابا قط ، وبها أسواق كثيرة ، ورأيت فيها سوقا من أسواق الصرافين كان بها مائتا صراف ٠ ولكل سوق سور وبوابة محكمة ، وكذلك للأحياء والشوارع ٠ وأربطتها نظيفة ، وفي شارع اسمه كوطراز (شارع الطرازين) خمسون رباطا جميلا ، في كل منها تجار ومستأجرون كثيرون ٠ والقافلة التي صحبناها في الطريق كانت تحمل ثلاثمائة وألف خروار من البضائع ٠ ولما دخلنا أصفهان لم يتحر عن دخولنا أحد ، اذ لا تضيق أماكن السكنى أو تتعذر الاقامة أو المؤن بها ٠ ولما استولى السلطان طغرل بيك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق رحمة الله عليه على هذه المدينة ولى عليها شابا نيسابوريا ، كان كاتبا مجيدا حسن الخط ، هادئا حسن اللقاء ولقبه

الخواجه العميد (١) كان صاحب فضل ، حلو الحديث ، كريما • وكان السلطان قد أمر بأن لا يطالب الناس بشيء مدة ثلاث سنين ، فسار على ذلك ، وأعاد المهاجرين الى أوطانهم • وكان هذا الرجل من كتاب الشورى • وكان بأصفهان ، قبل مجيئنا ، قحط عظيم ، ولكن حين بلوغنا اياها كان الشعير قد جمع وكان المن والنصف من خبز القمح يساوى درهما عدلا ، وكذلك كانت ثلاثة الأمنان من الشعير • وقال الناس هناك ان أحدا منهم لم ير أنه بيع بها بدرهم أقل من ثمانية أمنان من الخبز • ولم أر فى كل البلاد التى تتكلم الفارسية ، مدينة أجمل ولا أكثر سكانا وعمرانا من أصفهان • وقيل انه اذا خزن بها القمح أو الشعير أو غيرهما من الحبوب مدة عشرين سنة لا يفسد • وقال البعض ان هواءها كان أحسن قبل انشاء السور ، وانه تغير بعد انشائه ، بحيث تفسد بعض الأشياء • أما الريف فقد ظل هواؤه كما كان • وقد أقمت بأصفهان عشرين يوما بسبب تأخر قيام القافلة • وفى الثامن والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين وأربعمائة (٣٠ يونيو ١٠٥٢) بلغنا قرية تسمى هيثم آباد ، ومن هناك بلغنا قصبة نايين عن طريق الصحراء وجبل مسكيان • ومن أصفهان الى هناك ثلاثون فرسخا • وقد سرنا من نايين مسافة ثلاثة وأربعين فرسخا حتى بلغنا قرية كرمة من ناحية بيابان التى بها عشر أو اثنتا عشرة قرية ، وهى جهة جوها جار وبها نخيل • وكانت تابعة قديما للقفص (٢) • وحين بلغناها كان الأمير كيلكى قد استولى عليها منهم ونصب عليها نائبا من قبله ، وجعل

---

(١) يلقب حكام اصفهان بلقب العميد والعميد المذكور هنا هو سورى بن المعتز ، وقد جاء ذكره فى تاريخ البيهقى ص ٥١٩ طبعة الهند وفى راحت الصدور للروالدى ص ٩٤ •

(٢) أصلها كوفج ثم عربت • وهم قوم يسكنون جبال كرمان ويسمون الكوج ايضا ويذكرون غالبا مع البلوج فيقال كوج وبلوج • واليها اشار نظام الملك فى كتابه سياست نامة الفصل العاشر ص ٦٠ وقد ذكر قصة نهب الكوج لدير كجين وكيف تحايل السلطان محمود الغزنوى على قتلهم •

مقامه فى قرية ذات قلعة تسمى بيادة • وقد ضبط هـــذا الحاكم الولاية وجعل طرقهـا آمنــة • واذا قطــع القفص الطريق يرسل اليهم الأمير كيــلكى جنـــده فيقبضون عليهم ويستردون منهم المال ويقتلونهم • وقد أصبح الطريق آمنا، واستراحا الناس بفضل هذا الأمير العظيم ، اللهم تباركت تعاليت أحفظ وأنصر وأعن السلاطين العــادلين ، وأرحــم المتوفين منهم ، وقد بنيت ، فى هذا الطريق الصحرواى ، بين كل فرسخين فى المواضع غير الملحة قباب صغيرة وخزانات يتجمع فيها ماء المطر ، وقد شيدت القباب حتى لا يضـــل المسافرون الطريق ، ولكى يأووا اليهــا ســاعات فى الحر والبرد • وقد رأينا فى الطريق الرمل المتحرك ، وكل من يتحول عن العلامات (التى وضعت فى الطريق للارشاد) ، فانه لا يستطيع الخروج من وسط هذا الرمل ويهلك • وبدا لنا طوال ستة فراسخ أرض ملحة متحركة يختفى فيهــا من ينحرف اليها عن الطريق المحدود • ومن هنـــاك ذهبنا عن طريق رباط زبيدة المسمى رباط المرامى ، وهو يحتوى على خمس آبار ، ولولا هذا الرباط والماء الذى به لما استطاع أحد اجتياز هذه الصحراء • ثم دخلنــا ناحيـــة طبس ، فى قرية تسمى رستاباد • وفى التاسع من ربيع الأول ســـنة أربع وأربعين وأربعمائة (٩ يوليو ١٠٥٢) بلغنا طبس • ويقال ان بينها وبين أصفهان عشرة ومائة فرسخ • وطبس مدينة مزدحمة ولو انها تشبه القرية ، ماؤها فرسخ • وطبس أقل وبها النخل والبساتين وتقع نيسابور على مسيرة أربعين فرسخا منها ، شمالا • وخبيص على مسيرة أربعين فرســـخا جنوبا فى طريق الصحراء • وناحيــة المشرق جبــل صعب المرتقى • وكان أميرها فى ذلك الوقت كيلكى بن محمد الذى استولى عليها بالسيف • والنـــاس هنــاك فى ســلام وأمن عظيمين ، حتى أنهم لا يغلقون بيــوتهم ليــلا ، ويتركون البهائم فى الطريق ، مع أن المدينة غير مسورة • ولا تجرؤ امرأة على الكلام مع شخص أجنبى عنهاـــ فاذا فعلت قتــل

الاثنان . وكذلك لا سرقة ولا قتل ، بفضل حزم الأمير وعدله (١) .

وقد رأيت الأمن والعدل ، فيما رأيت من بلاد العرب والعجم في أربعة مواضع : الأول بالدشت أيام لشكرخان ، والثاني في الديلم أيام أمير الأمراء جستان بن ابراهيم ، والثالث بمصر أيام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، والرابع بطبس أيام الأمير أبي الحسن كيلكي بن محمد ، فلم أسمع على كثرة ما سافرت بمثل ما في هذه الجهات من الأمن ولم أره .

وقد استبقانا الأمير رضى الله عنه ، سبعة عشر يوما بطبس ، وأضافنا وأمر لنا بصلات وقت الرحيل ، معتذرا عن ضآلتها ، وأرسل معنا أحد فرسانه حتى زوزن التي تقع على مسيرة اثنين وسبعين فرسخا .

وبعد اثني عشر فرسخا من قيامنا من طبس بلغنا قصبة تسمى الرقة ، بها مياه جارية وزرع وبساتين وأشجار وحصن ومسجد جمعة وقرى ومزارع كبيرة . وفي التاسع من ربيع الآخر (٨ أغسطس) غادرنا الرقة . وفي الثاني عشر من هذا الشهر بلغنا تون ، وبينهما عشرون فرسخا . وتون مدينة كبيرة ، ولكن معظمها كان خرابا حين رأيتها . وهي على حافة واد به الماء الجاري والقنوات ، وفي جانبها الشرقي بساتين كثيرة . ولها حصن محكم . وقيل انه كان بها أربعمائة مصنع للسجاد . وفي المدينة كثير من شجر الفستق في بساتين المنازل . ويعتقد سكان بلخ وطخارستان أن الفستق لا ينبت ولا ينمو الا على الجبال .

ولما رحلنا من تون ، حكى لي الرجل الذي بعثه معنا الأمير كيلكي، فقال : كنا ذاهبين ذات مرة من تون الى كنابد،

---

(١) تعرف هذه المدينة باسم طبس التمر او طبس كيلكي نسبة لأميرها كيلكي بن محمد . انظر كتاب « حدود العالم » تعليقات مينورسكي ص ٣٢٦ (مجموعة جب ١١) . والمعجم ج ٦ ص ٢٨ مصر .

فخرج علينا اللصـــوص وتغلبوا علينـــا ، فألقى بعضنا من الخوف بنفسه فى بئر تجرى تحت الأرض ، وكان لواحد من هؤلاء والد شفوق فجاء واستأجر رجلا لينزل الى البئر ويخرج ولده منها • واستعان الجمـاعة بكل ما لديهم من الحبـال وأتى رجال كثيرون ، ونزل الرجل مســافة سبعمائة ذراع حتى بلغ القاع ربط الولد بالحبل وجروه ميتا ، وقد قال الرجل حين طلع من البئر ان بهـا ماء عظيما ينـدفق جاريا تحت الأرض مسافة أربعة فراسخ ، ويقال ان كيخسرو هو الذى أمر بحفرها •

وفى الثالث والعشرين من شوال (٢٣ أغسطس) بلغنا مدينة قاين ، وبينها وبين تون ثمانية عشر فرسخا ، تجتازها القافلة فى أربعة أيام ، وهى مسافة شاقة • وقاين مدينة كبيرة حصينة حولها خندق • وبها مسجد جمعة به مقصورة عليها عقد عظيم لم أر أكبر منه فى خراسـان ، وهو غـير متناسب مع حجم المسجد • وعلى جميع بيوت المدينة قباب ، وزوزن على مسيرة ثمانية عشر فرسخا من الجـانب الشرقى الشمالى لقاين • ومنها جنـوبا الى هراة ثلاثون فرسـخا • ورأيت بقاين رجلا اسمه ابو منصور محمد بن دوست ، ملم بكل علم ، من طب وفلك ومنطق ، فسألنى : أى شىء خارج هذه الأفلاك والأنجم ؟ قلت : يسمى شيئا ما يكـون داخـل الأفلاك ، أما ما وراءها فلا يجوز أن يسمى شيئا • فقال : ما وراء السموات معنوى أم مادى ؟ قلت : لا جدال أن العالم محدود ، وحده فلك الأفلاك • والحـد ما يفصـل فلكا عما عداه • فاذا علم هذا وجب أن يكون ما وراء الأفلاك مخالفا لما فى داخلها • قال : هذا المعنى الذى يثبته العقل هل له نهاية من هذه الناحية ؟ ان كانت له نهاية فأين ؟ وان كان لا نهاية له ، فكيف يقبل اللا متناهى الفناء ؟ ، وتكلمنا زمنا على هذا النحو ، فقال : أنا كثير الحيرة من هذا • فقلت : ومن لا يحار فيه • وعلى كل حال فقد لبثنا بقاين شـهرا ، بسبب ثورة كانت فى زوزن آثارها عبيـد النيسابورى ولتمـرد رئيس

زوزن . وقد أرجعت من هناك الفارس الذى بعثه معنا الأمير كيلكى . وخرجنا من قاين قاصدين سرخس فبلغناها فى الثانى من جمادى الآخرة (أول اكتوبر) ، وقدرت من البصرة الى سرخس تسعين وثلاثمائة فرسخ . وقد غادرنا سرخس عن طريق الرباط الجعفرى والرباط العمروى والرباط النعمتى ، وهى ثلاثة أربطة متقاربة على الطريق .

وفى الثانى عشر من جمادىالآخر بلغنا مدينة مروالرود، وخرجنا منها بعد يومين وتبعنا طريق اب كرم ، وفى التاسع عشر بلغنا فارياب بعد ان سرنا ستة وثلاثين فرسخا . وكان أمير خراسان جغرى بيك أبو سليمان داود بن ميكائيل بن سلجوق فى شبورغان، وكان يقصدالذهاب الى دار ملكه مرو . وقد اتبعنا طريق سنكلان ، بسبب الثورات ، ثم اتجهنا ناحية بلخ عن طريق سه دره ، فلما بلغنا رباطها سمعنا أن أخى أبا الفتح عبد الجليل كان فى حاشية وزير أمير خراسان المسمى أبا نصر .

وقد مضى على خروجنا من خراسان سبعة أعوام ، فلما بلغنا دستكرد ، رأينا أمنعة تنقل الى شبورغان ، فسأل أخى الذى كان معى لمن هذه ؟ فقيل له : انها لهذا الوزير . فسألهم هل تعرفون أبا الفتح عبد الجليل ؟ فقالوا انه كان معنا ، ثم اقترب منا خادم وسألنا من أين أتيتم ؟ فقلنا من الحج . قال : ان لسيدى أبى الفتح عبد الجليل اخوين ذهبا للحج منذ سنوات وهو دائم الشوق اليهما ، وكلما سأل عنهما أحدا لا يدله . قال اخى : انا نحمل من ناصر كتابا ، فحين يصل سيدك نسلمه اياه . وبعد قليل سارت القافلة وسرنا معها فقال هذا الخادم : ان سيدى يصل الآن ، فاذا لم يجدكما يضيق صدره ، فاذا أعطيتمانى الكتاب لاسلمه له يسر به . فقال له أخى : أتريد خطاب ناصر أم ناصرا نفسه ؟ هذا هو ناصر . ففرح الخادم ولم يعرف ماذا يفعل . وسرنا نحن الى بلخ عن طريق ميان روستا .

وقد جاء أخي الخواجه أبو الفتح عبد الجليل الى دستكرد عن طريق الصحراء ، وكان ذاهبا مع الوزير الى أمير خراسان . فلما سمع بأمرنا عاد من دستكرد ، وانتظرنا على رأس قنطرة جموكيان الى أن وصلنا . وكان هذا في يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الآخر سنة أربع وأربعين وأربعمائة (٢٦ أكتوبر ١٠٥٢) . وقد التقينا ، وفرحنا باللقاء وشكرنا الله سبحانه وتعالى ، وذلك بعد أن فقدنا الأمل في اللقاء ، وبعد أن تعرضنا للتهلكة مرات حتى يئسنا من الحياة . وفى هذا التاريخ نفسه بلغنا بلخ . فقلت هذه الأبيات الثلاثة فى هذا المقام :

« فان يكن تعب الدنيا وعناؤها طويلين ، فشرها وخيرها لا محالة منتهيان » .

« ان الفلك يتحرك من أجلنا ليل نهار ، وكلما راح منا واحد تلاه آخر » .

« انا نروح ونغدو فى الحياة ، الى أن تحين الروحة التى لا عودة منها » .

وتبلغ المسافة التى قطعناها من بلخ الى مصر ، ومن مصر الى مكة ، ومنها الى فارس عن طريق البصرة ثم الى بلخ ، عدا الأطراف التى زرناها فى الطريق ، ألفين ومائتين وعشرين فرسخا .

وقد وصفت بأمانة ما رأيت فى رحلتى . وأما ما سمعته ، وكان عليه اعتراض ، فلا ينسبه القراء الى ولا يؤاخذونى أو يلومونى عليه . وان وفقنى الله سبحانه وتعالى وسافرت الى المشرق ، فسأضم وصف ما أشاهده هناك الى هذه الرحلة ان شاء الله تعالى وحده العزيز ، والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله وصحبه أجمعين .

المقاييس والموازين والنقود

(التى جاء ذكرها في الرحلة)

المقــــاييس :

الميل : ثلاثة أو أربعة آلاف ذراع

فرسنك (الفرسخ) : تسعة آلاف ذراع بذراع القدماء
واثنا عشر الفا بذراع المحدثين

كز : ويساوى ٨٠ شبرا ويستعملهما
أو ١٢٥ س م ناصر بمعنى
أرش : الذراع واحد يقصد
بهما الذراع (١)

كز الملك (كز شايكان) : أقل قليلا من ذراع ونصف

دستى : الشبر

كام : القــدم

انكشت : الاصبع

الشـــبر ٠

المـــوازين :

جو : الحبـــة

دانكك (دانق) : ٨ حبات

---

(١) تعليقات غنى زاده على سفر نامة طبعة برلين ص ٣٦ ٠

مثقال : ٦ دوانق
سير : ١٥ مثقالا
من : ٤٠ سيرا
خرور : (حمل حمار) : ١٠٠ من
رطل أخلاط : ٣٠٠ درهم
الرطل الظاهرى : ٤٨ درهما

النقـــود :

الدينار المغربى . وهو الذى كان فى المغرب وفى مصر أيام الفاطميين وكان معروفا للطولونيين قبلهم وقد سـمى الجيشى والأحمدى والمغربى .

وثلاثة دنانير مغربية تساوى ثلاثة ونصف نيسابورية .

فهرس

●● كتب صدرت عن مشروع الألف كتاب (الثانى)

اسم الكتاب	المؤلف
١ ــ أحلام الأعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
٢ ــ الألكترونيات والحياة الحديثة	ي ٠ رادونسكايا ٠
٣ ــ نقطة مقابل نقطة	ألدس هكسلى ٠
٤ ــ الجغرافيا فى مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمان
٥ ــ الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
٦ ــ تاريخ العلم والتكنولوجيا ٠ جـ ٢ ٠ القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر ٠ ج ٠ فوربس
٧ ــ الأرض الغامضة	ليستر ديل راى
٨ ــ الرواية الانجليزية	والتر الن
٩ ــ المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
١٠ ــ آلهة مصر	فرانسوا دوماس
١١ ــ الانسان المصرى على الشاشة	د ٠ قدرى حفنى وآخرون
١٢ ــ القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
١٣ ــ الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
١٤ ــ مجموعات النقود صيانتها ٠٠ تصنيفها ٠٠ عرضها	ديفيد وليام ماكدونالد
١٥ ــ الموسيقى ــ تعبير نغمى ــ ومنطق	عزيز الشوان
١٦ ــ عصر الرواية ــ مقال فى النوع الأدبى	د ٠ محسن جاسم الموسوى
١٧ ــ ديلان توماس	اشرف س ٠ بى كوكس
١٨ ــ الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
١٩ ــ الرواية الحديثة ٠ الانجليزية ــ والفرنسية جـ ١	بول ويست
٢٠ ــ المسرح المصرى المعاصر ٠ أصله وبدايته	د ٠ عبد المعطى شعراوى
٢١ ــ على محمود طه ٠ الشاعر والانسان	أنور المعداوى
٢٢ ــ القوة النفسية للاهرام	بيل شول وأدنبيت
٢٣ ــ فن الترجمة	د ٠ صفاء خلوصى

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ ـ تولستوى	رالف ثى ماتلو
٢٥ ـ ستندال	فيكتور برومبير
٢٦ ـ رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
٢٧ ـ الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
٢٨ ـ التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
٣٠ ـ أدب الأطفال ٠ (فلسفته ـ فنونه ـ وسائطه)	هادى نعمان الهيتى
٣١ ـ احمد حسن الزيات ٠ كاتبا وناقدا	د ٠ نعمة رحيم العزاوى
٣٢ ـ اعلام العرب فى الكيمياء	د ٠ فاضل أحمد الطائى
٣٣ ـ فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جوكوب برونوفسكى
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د ٠ روجر ستروجان
٣٨ ـ تربية الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
٤٠ ـ النحل والطب	د ٠ ناعوم بيتروفيتش
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د ٠ جون شندلر
٤٤ ـ الصحافة	بيير البير
٤٥ ـ أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
٤٦ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د ٠ رمسيس عوض
٤٧ ـ حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د ٠ محمد نعمان جلال
٤٨ ـ الفكر الأوروبى الحديث جـ١	فرانكلين ل ٠ باومر

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٩ ـ الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعي
٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د ٠ محيي الدين أحمد حسين
٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى	تاليف : ج٠ دادلي أندرو
٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصي	جوزيف كونراد
٥٣ ـ الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	د ٠ جوهان دورشنر
٥٤ ـ حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة واستراتيجيات حرب الفضاء)	طائفة من العلماء الأمريكيين
٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية (دراسة في سياسات التعاون الدولي)	د ٠ السيد عليوة
٥٦ ـ الميكروكمبيوتر	د ٠ مصطفى عناني
٥٧ ـ مختارات من الأدب الياباني (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)	صبري الفضل
٥٨ ـ الفكر الأوروبي الحديث ٠ جـ ٢ (الاتصال والتغير في الأفكار) من ١٦٠٠ ـ ١٩٥٠	فرانكلين ل ٠ باومر
٥٩ ـ تاريخ ملكية الاراضي في مصر الحديثة	جابرييل باير
٦٠ ـ أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
٦١ ـ الفكر الأوروبي الحديث ٠ جـ ٣	فرانكلين ل ٠ باومر
٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
٦٣ ـ الزمن وقياسه	زافيلسكي ف ٠ س
٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوي
٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي	بيتر رداي
٦٦ ـ سبعة مؤرخين في العصور الوسطى ٠	جوزيف داهموس
٦٧ ـ التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
٦٨ ـ مراكز الصناعة في مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس	رونالد د٠ سمبسون و نورمان د٠ اندرسون
٧٠ ـ الشارع المصري والفكر ٠	د٠ أنور عبد الملك

الاسم	المؤلف
٧١ ـ حوار حول التنمية	والت روستو
٧٢ ـ تبسيط الكيمياء	فريد هيس
٧٣ ـ العادات والتقاليد المصرية	مون بوركهارت
٧٤ ـ التذوق السينمائى	آلان كاسبياى
٧٥ ـ التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
٧٦ ـ البذور الكونية	فريد هويل
	شاندرا ويكرا ماسينج
٧٧ ـ دراما الشاشة	حسين حلمى المهندس
٧٨ ـ الهيروين والايدز	روى روبر رتسول
٧٩ ـ صور أفريقية	دوركاس ماكلينتوك
٨٠ ـ نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
٨١ ـ الفكر الأوروبى الحديث جـ ٤	فرانكلين ل ٠ باومر
٨٢ ـ الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
٨٣ ـ دراما الشاشة جـ ٢	حسين حلمى المهندس
٨٤ ـ المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
٨٥ ـ وظائف الاعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
٨٦ ـ الهندسة الوراثية	ويليـــام بينز
٨٧ ـ تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
٨٨ ـ كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى
٨٩ ـ الفلسفة وقضايا العصر جـ١	جمعها : جـون ٠ ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجـر
٩٠ ـ الفكر التاريخى عند الاغريق	آرنولد توينبى
٩١ ـ قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضـــا
٩٢ ـ التغذية فى البلدان النامية	م٠ هـ٠ كنج واخرون
٩٣ ـ الفلسفة وقضايا العصر جـ٢	جمعها : جون ٠ ر٠ بورر وميلتون جولدينجر
٩٤ ـ بداية بلا نهاية	جورج جاموف
٩٥ ـ الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د ٠ السيد طه أبو سديرة
٩٦ ـ حوار حـــول النظامين الرئيســيين للكون جـ١	جاليليو جاليليه
٩٧ ـ حوار حـــول النظامين الرئيســيين للكون جـ٢	جاليليو جاليليه
٩٨ ـ حوار حـــول النظامين الرئيســيين للكون جـ٣	جاليليو جاليليه

المــؤلف	اسم الكتاب
اريك موريس ، آلان هــو	٩٩ ـ الارهــاب
ســـيريل الدريد	١٠٠ ـ اخنــاتون
آرثر كيستلر	١٠١ ـ القبيلة الثالثة عشرة
جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتــون جــولدينجر	١٠٢ ـ الفلسفة وقضايا العصر جـ ٣
ر ٠ ج ٠ فوريس	١٠٣ ـ العــلم والتكنولوجيا
ا ٠ ج ٠ ديكسترهوز كــوفلان	١٠٤ ـ الأســاطير الاغريقية
توماس ا ٠ هاريس	١٠٥ ـ التــوافق النفسى
روى أرمز	١٠٦ ـ الدليل الببليوجرافى
ناجاى متشيو	١٠٧ ـ لغــــة الصورة
بول هاريسون	١٠٨ ـ الثورة الاصلاحية فى اليابان
ميكائيل البى ، جيمس لفلوك	١٠٩ ـ العــالم الثالث غدا
ادامز فيليب وآخرون	١١٠ ـ الانقراض الكبير
فيكتور مورجان	١١١ ـ دليل تنظيم المتاحف
اعداد محمد كمال اسماعيل	١١٢ ـ تاريخ النقود
الفردوس الطوسى	١١٣ ـ التحليل والتوزيع الاوركسترالى
الفردوس الطوسى	١١٤ ـ الشــاهنامه جـ ١
بيرتون بورتر	١١٥ ـ الشــاهنامه جـ ٢
بيرتون بورتر	١١٦ ـ الحياة الكريمة جـ ١
جاك كرابس جونيور	١١٧ ـ الحياة الكريمة جـ ٢
محمد فؤاد ، كوبريلى	١١٨ ـ كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩
بول كونر	١١٩ ـ قيام الدولة العثمانية
	١٢٠ ـ العثمانيون فى أوربا

مطابع الهيئة العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٣٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 3333 — 7

في عام ١٠٤٧ م خرج الشاعر المتفلسف الفارسي ناصر خسرو علوى من مدينة مرو الفارسية فى رحلة من اقدم واهم الرحلات فى العصور الوسطى استغرقت سبع سنوات جال فيها ناصر فى ربوع ايران وانتقل منها الى اذربيجان وارمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز — وكان لمصر النصيب الاكبر فى الرحلة حيث عاش فيها الكاتب ثلاث سنوات تقريبا . وسجل عنها اقدم وصف لشاهد عيان على مدينة القاهرة فى عصر المستنصر ، اى بعد تاسيسها بنحو مائة عام تقريبا . فالكتاب صفحة ممتعة دافقة بالحياة والحيوية بما يندر ان نقراه فى كتب ذلك العصر ، وزاد من قيمتها تلك المقدمة الوافية الضافية التى اضافها المترجم المرحوم الدكتور يحيى الخشاب عن عصر ناصر خسرو وما اكتنفه من صراعات مذهبية وطائفية واحداث تاريخية هائلة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٧٥ قرشا